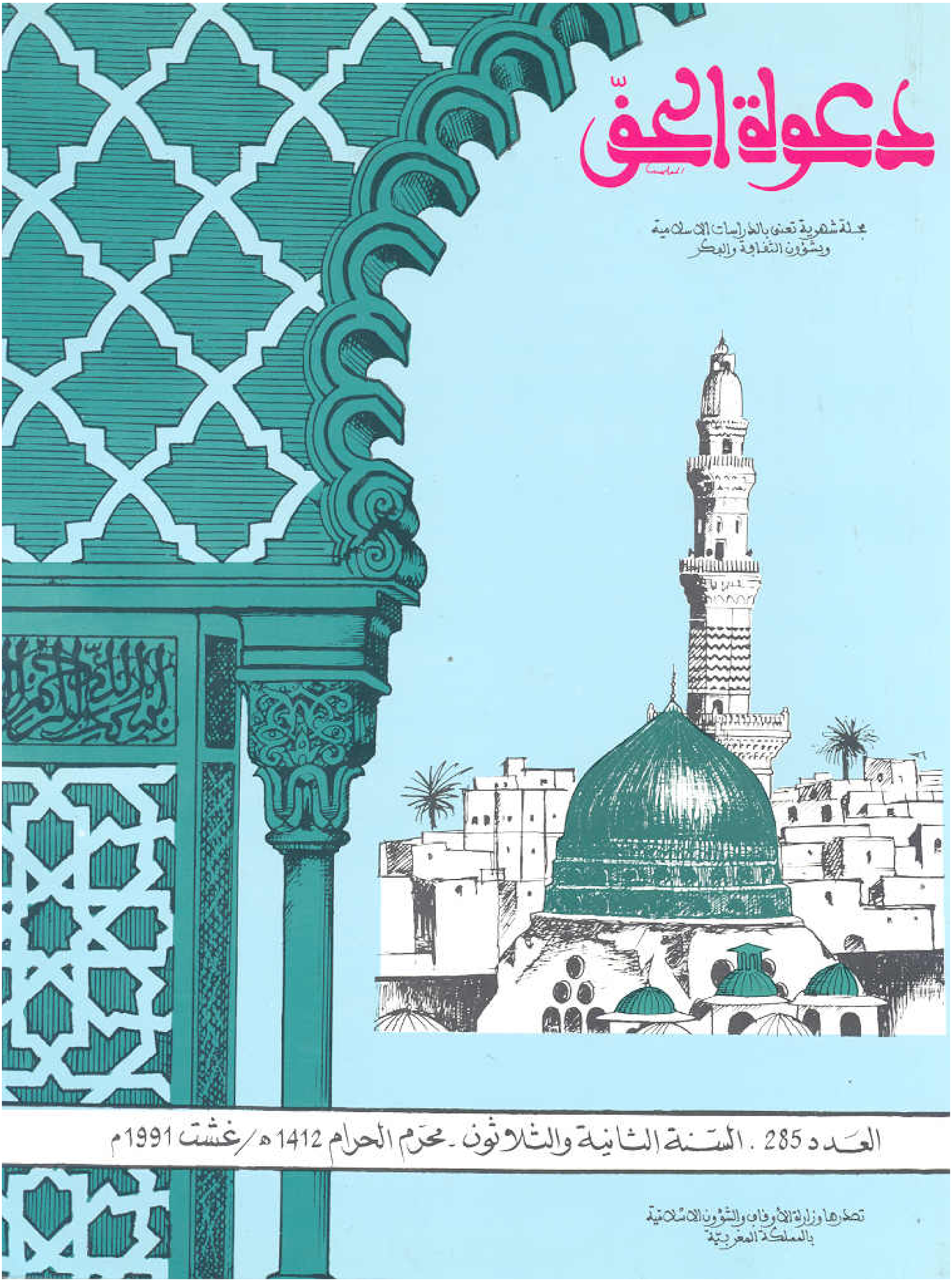


دعوة الحق

مجلة شهرية تعنى بالدراسات الإسلامية
وبشؤون الثقافة والفكر

العدد 285 . السنة الثانية والثلاثون . محرم الحرام 1412 هـ / غشت 1991 م

تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
بالمملكة المغربية

بسم الله الرحمن الرحيم

وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ

صدق الله العظيم

مطبعة فضالة . المحمدية . المغرب
رقم الايداع القانوني 1981/3

تهنئة

بمناسبة حلول العام الهجري الجديد 1412، وإشراق طلعته المباركة على الأمة الإسلامية، وتيمنا بذكرى الهجرة النبوية إلى المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة وأزكى السلام، يسعد وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، وأسرة مجلة "دعوة الحق" أن ترفع بهذه المناسبة الكريمة إلى مقام أمير المومنين، وحامي حمى الوطن والدين صاحب الجلالة والمهابة الملك الحسن الثاني دام له النصر والسودد والتمكين، أسمى آيات الولاء والإخلاص، وأبلغ مشاعر الطاعة والوفاء، وتتوجه إلى الله العلي القدير أن يجعل هذا العام عام خير ويمن وبركة، على جنابه الشريف، ونصر عزيز وفتح مبين لجلالته، ولشعبه المومن الوفي المتشبث بأهداب العرش العلوي المجيد، وأن يحقق لجلالته مزيدا من التوفيق والسداد، ويبارك خطواته الموفقة، وجهوده المشكورة، ومساعيه الحميدة لما فيه خير بلده وشعبه، وفي سبيل تقدمه وازدهاره وسعادته، وخير الأمة الاسلامية جمعاء في مشارق الأرض ومغاربها.

أطال الله عمر مولانا الإمام، وبارك في حياته العامرة بجلائل الأعمال، وأدام له العز والسداد والفخار، وأبقاه ذخرا وملاذا للبلاد، وحفظه بما حفظ به الذكر الحكيم، وأعاد على جلالته أمثال هذه الذكرى وهو يرفل في حلل العز والهناء، وأقر عينه بولي عهده الأمجد صاحب السمو الملكي الأمير الجليل سيدي محمد وصنوه السعيد صاحب السمو الملكي الأمير مولاي رشيد، وحفظه في كافة أسرته الملكية الشريفة، إنه سميع مجيب.

افتتاحيـــة

ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين

قرآن كريم

يهل شهر المحرم الحرام، فيستقبله كل مسلم ومسلمة بمنتهى الانشراح والاستبشار، ويرى فيه بداية عام هجري جديد. يبعث على الآمال والطموح والتفاؤل، وتجديد النظرة إلى الحياة وقضاياها بروح إسلامية واعية، ويحمل على تقوية الإرادة وشحذ العزيمة لمواصلة العمل في طريق النماء والتشييد الاجتماعي. والنهوض والبناء الاقتصادي، والعطاء الفكري والحضاري، والدفع بعجلة الحياة إلى الأمام في كافة المجالات، لتحقيق المزيد من التقارب والتواصل والتلاقي على مختلف الأصعدة والمستويات، والتقدم والرخاء للأمة الإسلامية وشعوبها المومنة الناهضة، المتطلعة بوعي ونضج إلى بلوغ ذرى مدارج الرقي والكمال، وأعلى مراتب العز والازدهار. والرخاء والاطمئنان.

ولا غرو في ذلك، فهو أول شهور العام، وأحد الأشهر الحرم الأربعة التي لها حرمة ومكانة خاصة بين شهور السنة، مصداقا لقول الله تعالى: ﴿إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا في كتاب الله يوم خلق السماوات والارض، منها أربعة حرم﴾. وبحلوله يستحضر فكر المسلم وقلبه، وإحساسه وشعوره، ذلكم الحدث الإسلامي العظيم، الذي ميز هذا الشهر المبارك الكريم، وطبعه بطابع خاص، وجعل المسلمين يتخذونه مبدءا لتاريخهم الإسلامي الهجري، منذ عهد الخليفة الثاني لرسول الله، عمر بن الخطاب رضي الله عنه وعن الصحابة أجمعين. إنه حدث الهجرة النبوية من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة، بعدما أذن الله بها لنبيه ورسوله ﷺ، فكانت عملا من أعمال جهاد الرسول عليه الصلاة والسلام وصبره الجميل، ومعه صحابته الكرام، ومسلكا من مسالكه المتعددة في سبيل نصرة دين الله وإظهاره، وتبليغ رسالة الله وشريعته إلى كافة الناس، وكانت مرحلة ثانية حاسمة في

بداية الدعوة الإسلامية ونشرها بعد المرحلة الأولى التي قضاها الرسول -ﷺ- في مكة طيلة ثلاث عشرة سنة.

كان حدث الهجرة - إذن - فاتحة عهد جديد في مسيرة الدعوة الإسلامية ونجاحها واكتمالها، اقتضته حكمة الله البالغة، وتميز باستقرار النبي -ﷺ- في المدينة المنورة، واستقرار صحابته المهاجرين والأنصار معه، وأمنهم واطمئنانهم على دينهم ونفوسهم وأموالهم، وبترسيخ معالم الدين والإيمان، وتوطيد قواعده الثابتة وشريعته الخالدة، وتاسيس المساجد لاجتماع المسلمين والتقائهم فيها على عبادة الله وذكره وطاعته، والأخذ بمشروعية الجهاد الذي شرع بعد الهجرة، إعلاء لكلمة الله، ودفاعا عن حوزة دينه وشريعته الربانية، مما قوى عضد المسلمين وجانبهم، وأصبحوا معه قوة مهيبة يحسب لها حسابها، واستطاعوا معها أن يخوضوا تلك الغزوات الكبرى التي شهدها الرسول عليه الصلاة والسلام، وقادها بنفسه، مؤيدا بوحي الله ونصره، معززا بملائكة الله ومدده، وبالمومنين من عباده وجنده، الذين آمنوا بنبيه ورسوله، فعزروه ونصروه، واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون. فكانت النصرة لدين الله وشريعته، وكانت الغلبة والعزة لرسول الله وأمته، كما هي سنة الله مع أنبيائه ورسله والمومنين من عباده، مصداقا لقوله الكريم: ﴿ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم لهم المنصورون وإن جندنا لهم الغالبون﴾، وقوله سبحانه مخاطبا نبيه ورسوله: ﴿هو الذي أيدك بنصره وبالمومنين وألف بين قلوبهم﴾ وقوله جل علاه: ﴿ولله العزة ولرسوله وللمومنين﴾.

وسارت دعوة الإسلام سيرها الحثيث، وواصلت طريقها المفتوح نحو الانتشار والظهور، وفتح القلوب والعقول، حتى أكمل الله دينه، وأتم على نبيه وأمة رسوله نعمته، ورضي لها الإسلام دينا خالدا إلى يوم القيامة، وأنزل في ذلك قوله المبين في حجة الوداع بعرفة: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا﴾.

وإذا كان المسلم في كل مكان يستحضر في مطلع كل عام هجري ذلكم الحدث الإسلامي العظيم، وما صاحبه وواكبه من جهاد وصبر كبير، ونصر وفتح مبين، ويتبادل المسلمون التهانئ بمناسبته السنوية، فإن ذلك ينبغي أن يكون مدعاة للتوقف عنده، وباعثا على استعراضه بتفكر وتدبر، لاستخلاص الدروس والعبر، التي كانت وراء انتصار

المسلمين وعزتهم في عهد النبوة والرسالة، وفيما بعده من الفتوحات الإسلامية، التي تواصلت في عهد الصحابة، وتابعيهم بإحسان، فيتأمل المسلم كيف بدأت رسالة الإسلام مع النبي ﷺ ومعه عدد قليل من المومنين به من آل بيته وصحابته، وكيف ظهرت وانتشرت دعوته الربانية في العالم وأرجائه، وكيف ثبتت وصمدت، وكيف واجهت خصومها بأسلوب الحكمة والموعظة الحسنة، ومخاطبة العقل والقلب والوجدان، ونهج طريق الحوار والحجة والإقناع تارة، وسلوك طريق استعمال القوة المادية الحسية تارة أخرى عند الاضطرار إلى استعمالها، وحين لا يكون بد ومفر من ركوب أسنتها والإمساك بأعنتها لقبول الحق والاقتناع به، والاهتداء لسلوك صراطه المستقيم، فاستطاعت الدعوة الإسلامية أن تُكَوِّن من المومنين بها، المنضوين تحت لوائها، خير أمة أخرجت للناس، تامر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتومن بالله، وأن تحقق لهم في ظل عقيدتها الإسلامية الحقة، وشرعها الحكيم، ومثلها العليا وأخلاقها الفاضلة، والاعتصام بها وبحبلها قولا وعملا، نصا وروحا، منهجا وتطبيقا، ما حققته في عهد النبوة والرسالة، وعهد الخلافة الراشدة، فما بعدها، من وحدة قوية، وأخوة متينة، جعلت منهم جسما واحدا، وكونت منهم أمة واحدة متماسكة كالبنيان يشد بعضه بعضا.

فبتلك الروح الدينية المستنيرة، والنظرة الإسلامية الواعية إلى حدث الهجرة المحمدية، والسيرة النبوية الطاهرة، والأخذ بالمبادئ الشرعية والأخلاق الكريمة يتمكن كل مسلم ومسلمة من إصلاح نفسه وإسعادها أولا، والعمل لإصلاح وإسعاد غيره من الناس ثانيا، وتتمكن الأمة الإسلامية جمعاء، دولا وشعوبا وأفرادا، من الالتقاء على تصحيح النظرة والمسار، في كل الأمور والأحوال، وفي جميع المرافق والأعمال، وتستطيع بما لديها من وسائل وإمكانيات مادية ومعنوية تخطي العقبات الكأداء العارضة، وتجاوز الحالات النفسية والاجتماعية الصعبة التي تولدها ظروف طارئة وأسباب عابرة، وتهتدي إلى استعادة الثقة للنفوس وفتح صفحة جديدة ناصعة، وتتوفّق إلى استشراف آفاق الحاضر والمستقبل، وتربط بينهما في القضايا ذات الاهتمام الواحد والمصير المشترك بنظرة فاحصة ورؤية واضحة، وقلوب متفتحة، وأفكار وثابة متنورة، تمكن من طي المراحل المطلوب قطعها لصالح الأمة الإسلامية، وتساعد على تثبيت الذات

وملاحقة الـركب والزمان، ومسـايرة التطور السريع الـذي تتحرك به عجلة الحياة في كـل ميدان، وخلق البواعث والحوافز المحققـة لكل ذلك، ولسلوك الطريق السوي الذي جاء به القرآن، ورسمه الإسلام لأمته في كل مجال، وأوضحه الـرسول عليه الصلاة والسـلام في سنته وسيرته ونهجه النبوي الحكيـم، الذي جمع الله به كلمـة المسلمين، وحقق لهم به من صفاء الإخاء، وسلامة الطـوية وخلوص القصد والنية، وصِدْق الإرادة والعـزيمة، والتضـامـن الوثيـق ونكـران الذات، ويسر لهم مـن أسباب التواصـل والتكامل، ووسائل التعـاون على الخير والبر والتقوى ما مكن لهم في الأرض، وجعلهم فيها سـادة أعزة، وأصلح حالهم فيها، وأسعدهم دينا ودنيا، ويحقق لهم حالا ومآلا ما تحقق لسلفهم الصالح وخلفهـم الصالـح في كـل جيل مـن أجيـال الأمة الإسـلاميـة من العـز والانتصار، والسؤدد والفخـار، مصداقا لقول الله المتعـال: ﴿وكان حقا علينا نصر المومنين﴾.

فديـن الإسلام بمبادئه وأحكـامه وأخلاقـه الفاضلة، وحيـاة النبي ﷺ وسيرتـه الطاهرة وشمائله الطيبة، كلهـا دروس وعبر، ومواعظ وحكم، لأولي الألباب والأبصار، وكلها مصابيح وأقباس وأنوار، لمن كان له قلب أو ألقـى السمع وهو شهيد، وكلُّهـا منهج وهداية لمن يـريد أن يهتدي بـه ويستنير في دجى هذه الحياة المدلهمـة، ودروبها المتشعبة، وقضاياها الشائكة، ومسالكها الـوعرة، وجهادها المتواصل من الإنسان في كل حقبة ومكان، وفي كل عمل وواجهـة ومسؤولية وميدان، مصداقا لقول ربنـا الكريـم: ﴿لقد خلقنـا الإنسان في كبـد﴾ وقولـه سبحانـه: ﴿ولينصرن الله من ينصره، إن اللـه لقوي عزيز، الذيـن إن مكناهم في الأرض أقاموا الصـلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعـروف ونهوا عن المنكر، ولله عـاقبة الأمـور﴾. وقول نبينا الأكـرم ﷺ: «تـركت فيكـم ما إن تمسكتم به بعـدي لن تضلوا أبدا: كتاب الله وسنتـي» فهما حبل الله المتين، والدرع القوي المكين، والحصن الحصين للإسلام والمسلمين في كل مكان وأمر وحين. ﴿ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم﴾.

وإذا كانـت الهجرة المحمـدية إلى المدينة المنـورة أمرا واجبـا على كل مسلم ومسلمـة، حين هاجـر إليها النبي ﷺ فـإن هذه الهجـرة لم تعد مطلوبة حين فتح النبي ﷺ مكة المكرمة، ودخلها مع صحابته البررة ظـافـرا كريما، منتصرا رحيما، فصـارت دار إسـلام وأمـان للمسلمين، واستقرار واطمئنـان لهم مثل المدينة المنـورة، وبقيت الهجرة المعنـوية

المتمثلة في الاعتصام بكتاب الله وسنة رسوله، والجهاد في سبيل الله، إعلاء لكلمته، ونصرة لدينه وشريعته، وفي امتثال أمره واجتناب نهيه، مستمرة خالدة، ومطلوبة من كل مومن ومومنة، مصداقا لقوله ﷺ: «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا» وقوله: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه، والمومن من أمنه الناس على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم».

وهذا المنظور الإسلامي لدلالة الهجرة النبوية، ولمفهومها الشامل، ومعناها المستمر، ينقلنا إلى الحديث عن ذكرى بارزة بين الذكريات الوطنية المغربية، وأيامها الخالدة المشهودة في تاريخ المغرب، ألا وهي ذكرى ثورة الملك والشعب، التي يخلدها المغرب في عشري غشت من كل سنة، منذ اندلاعها سنة ثلاث وخمسين وتسعمائة وألف (1953)، هذا الشهر الذي تتزامن أيام منه مع أيام من هذا الشهر المحرم الحرام، فتدعو إلى التذكير بتلك الانتفاضة الشعبية التلقائية، التي تعتبر امتدادا واستمرارا للهجرة إلى الله ورسوله، وللجهاد في سبيل الله، إعلاء لكلمته ونصرة دينه، وبذلك الاستنفار العام الذي انطلق بإيمان ديني وحماس وطني، وغيرة إسلامية من أبناء المغرب المسلم الأبي للدفاع عن مقدسات الوطن، والحفاظ على هويته وشخصيته، وكرامته وحريته، وفداء لملكه وعرشه، حين تجاسر الاستعمار الفرنسي، وتطاول على رمز سيادة البلاد وضامن وحدتها واستقرارها جلالة المغفور له محمد الخامس طيب الله ثراه، فنفاه الاستعمار عن وطنه وشعبه وعرشه، وبجانبه ومعيته أسرته الملكية المجاهدة، وفي مقدمتها ولي عهده آنذاك، ورفيقه في التضحية والجهاد، جلالة الملك الحسن الثاني أدام الله نصره وحفظه، وأطال عمره وحياته.

لقد كان إقدام الاستعمار على تلك الفعلة النكراء في تلك الحقبة من تاريخ المغرب وجهاده المستميت تصرفا جاهلا طائشا، وسلوكا مغرورا خاطئا، ومساسا عميقا بكرامة هذا البلد المسلم الغيور، المتفاني في حب ملكه وعرشه، أذكى في الشعب المغربي المسلم شعلة الجهاد والمقاومة ضد الاستعمار، وبعث فيه مكامن البطولة والنضال، وفجر فيه طاقات التضحية بالغالي والنفيس من النفْس والمال، وبما لم يكن للمستعمر في الحسبان، أو يخطر له على بال، وحرك فيه روح التضامن والتعاون، وقوى فيه العزم على الالتفاف حول عرشه العلوي المجيد، ذلكم الالتفاف والتعلق المتأصل الذي أبرز بصورة ما عليها من

مزيد، مدى التلاحم والترابط المتين، والطاعة والولاء المكين، والوفاء والإخلاص العميق، والتماسك القوي الوثيق، الذي يجمع بين القمة والقاعدة في هذا البلد الوفي العزيز، مما سهل تحقيق الانتصار، وعجل بالعودة الميمونة المظفرة لجلالة محمد الخامس وأسرته من منفاه، واستعاد المغرب بذلك عزته وكرامته، واعتباره ومكانته، والتمتع بنعمة الاستقلال والحرية، فانطلقت مسيرة الجهاد الأكبر في مجال بناء المغرب الحديث المستقل، وهيكلة مؤسساتها العامة، والنهوض بمشاريع التنمية الاقتصادية والاجتماعية على أسس متينة، والحفاظ على الهوية الدينية والوطنية، واستكمال الوحدة الترابية، في ظل الملكية الدستورية، والحياة الديمقراطية، وهو ما فاه ونطق به جلالته في كلماته الذهبية التي زف فيها إلى شعبه المومن الوفي بشرى حريته واستقلاله، ولهج فيها بحمد الله وشكره، حين قال رضوان الله عليه: «لقد انتهى عهد الحجر والاستعمار، وبزغ فجر الحرية والاستقلال» وقال: رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر»، وتلا قول الله تعالى: ﴿الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور﴾.

وظل جلالته وفيا مخلصا لتلك المبادئ والكلمات، ولما عاهد الله عليه من خدمة الدين والوطن في جميع الأوقات والحالات، حتى اختاره الله إلى جواره راضيا مطمئنا، تاركا بلده ينعم بالاستقرار والحرية، وصدق فيه قول الله تعالى: ﴿من المومنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، منهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر، وما بدلوا تبديلا﴾.

فجزى الله محمدا الخامس عن المغرب والمغاربة أحسن الجزاء، وبوّأه مقام الصلحاء الأتقياء، وبارك الله في خلفه ووارث سره ورفيقه في الجهاد والنضال، رمز السيادة والوحدة، وضامن الاستقرار والحرية، مبدع المسيرة الخضراء ومحرر الصحراء، أمير المومنين وحامي حمى الوطن والدين جلالة الحسن الثاني حفظه الله وأدام له النصر والتمكين، وأقر عينه بولي عهده صاحب السمو الملكي الأمير الجليل سيدي محمد، وصونه المجيد سموه الأمير مولاي رشيد، وكافة أفراد أسرته الملكية الشريفة إنه سميع مجيب.

دعوة الحق

خطاب مولانا أمير المومنين جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله وأيده بمناسبة عيد الشباب المجيد

بمناسبة عيد الشباب، وحلول الذكرى الثانية والستين لميلاد مولانا أمير المومنين جلالة الملك الحسن الثاني أدام الله عزه وعلاه، وجه جلالته - حفظه الله - خطابا ساميا إلى الأمة، وذلك مساء يوم الإثنين 25 ذي الحجة 1411هـ موافق 8 يوليوز 1991.

وقد كان جلالة الملك خلال إلقاء هذا الخطاب محفوفا بصاحب السمو الملكي ولي العهد الأمير الجليل سيدي محمد وصاحب السمو الملكي الأمير مولاي رشيد وصاحب السمو الملكي الأمير مولاي هشام.

وفيما يلي نص الخطاب الملكي السامي الذي نقل مباشرة على أمواج الإذاعة وشاشة التلفزة :

الحمد لله والصلاة والسلام على مولانا رسول الله وآله وصحبه.

شعبي العزيز،

كسابقتها، نحتفل اليوم في هذه السنة بعيد الشباب... شباب المغرب وشباب تاريخه وشباب مستقبله وشباب طموحاته.

وكنا في السنة الماضية تطرقنا إلى موضوع الشباب الذي لا يجد المجال اللائق لأن يخدم بلده بكيفية منتظمة وكريمة بالنسبة له ولأسرته، وبكيفية شريفة بالنسبة لبلده ووطنه.

وكنا آنذاك قررنا أن نخلق المجلس الوطني للشبيبة والمستقبل لينكب على ملفات الشباب العاطل، حتى يصبح هذا البلد كريما بأبنائه وبسكانه. وقد انكب هذا المجلس بمجرد ما عينا أعضاءه على أشغال مهمة وجبارة لم أكن أنتظر أن يقوم بها في هذا الزمن القصير وبهذا الاتقان المثالي. إلا أننا — ولله الحمد —



وجدنا في أعضاء المجلس وفي من عيناه على رأسه... أمينه العام ورئيسه، وجدنا فيهم كلهم ما كنا ننتظر، وفوق ما كنا ننتظر. فبرهن الجميع حكومة ومجلسا وموظفين على أنهم يومنون بهذه المامورية، وعلى أنهم يومنون بجسامتها. لذا جندوا طاقاتهم وقريحتهم لإنجاحها كما يجب أن يكون إنجاح مثل هذه المهمات.

ولن أطيل عليك شعبي العزيز، لأن الدورة الثانية لمجلس الشبيبة والمستقبل سوف تنعقد في شهر يوليوز الجاري، وسنعطيك آنذاك جميع التفاصيل، وسوف يكون الحوار مفتوحا بين مسيري المجلس وبين مديرية وبين الأعضاء الذين يتركب منهم. وستدرس الحقبة الماضية، لنتخطى في الحقب المقبلة جميع العقبات والعراقيل أو الثغرات، لأنه كانت ثغرات وجدناها في طريقنا.

ولكن ــ لكي لا أطيل عليك شعبي العزيز وشبابي العزيز ـ كانت المشكلة هي الآتية: كانت أمامنا 100 ألف شاب مغربي

ـدون عمل، منهم من يحمل الشهادات لعليا، ومنهم من يحمل البكالوريا أو ونها.

وهكذا، ورغم أننا ابتدأنا العمل لحقيقي للتشغيل في شهر ماي الماضي، أي بل ثلاثة أشهر، يمكنني إن أقول لك: أن لدولة وظفت من هذه المائة ألف 16 ألفا. أن الجماعات المحلية وظفت 37 ألفا، القطاع شبه العمومي وظف 7500 شاب، القطاع الخاص شغل وسيشغل 20 ألفا. هذا المجموع يكون 80 ألفا و700. ويبقى قريبا 20 ألفا، وهؤلاء العشرون ألفا لباقون جلهم يطلبون فقط الإعانة البنكية لأنهم سيقومون بمشاريع خاصة بهم سيخلقون أيضا شغلا لشبان آخرين.

أما في هذا النصف الثاني من السنة أي يتداء من يوليوز إلى آخرى السنة فسوف حول أنظارنا وبحوثنا إلى الشباب في لعالم القروي الذي هو دون مستوى لدراسات العليا، أي الحاصل على لباكلوريا ودونها. وهكذا إن شاء الله في خر هذه السنة سنكون قد وفينا بعهدنا، شغلنا مائة ألف شاب مغربي، وكرمنا مواطنينا، وجعلناهم قادرين على أن يتهيأوا يهيؤوا بلدهم لخوض غمار القرن المقبل. هذا ولله الحمد رهان جديد في تاريخ لمغرب.

ولا أظن أن بلدا في طريق النمو غير المغرب يمكنه ــ بالوسائل التي هي لدينا ونظرا للحالة الاقتصادية العالمية التي مر بها العالم ــ أن يشغل في ظرف سبعة أشهر مائة ألف شاب وشابة لا بالصدقات أو بفتح الأوراش. أبدا، بل بإعطائهم منصبا وشغلا، إما إداريا أو حرا متعاقد عليه، ضامنا لهم المستقبل والتقاعد والترقي في منصبهم.

فلنحمد الله سبحانه وتعالى على ما ألهمنا إليه من خلق هذه الإدارة، ومن إيجاد الناس الكفاة الذين ـ ولله الحمد ـ وضعنا فيهم ثقتنا، ولم يخيب الله ظننا، لأن النبيﷺ كان دائما يقول: «اتقوا فراسة المومن فإن فراسة المومن لا تخطىء».

فشكرا للأطر الإدارية، للأمين العام، ولرئيس الدورة ولمن أعانهما على القيام بعملهما، وهنيئا لجميع المجالس والهيئات السياسية والنقابية التي عملت معهما بجد واجتهاد، وشكرا لجميع أرباب القطاع الخاص الذين أظهروا تفهما لهذا المشكل العويص، وأخيرا، هنيئا لحكومتنا التي قامت بالواجب وبأكثر من الواجب، ولاسيما أننا إتخذنا إجراءات جريئة جديدة لم نكن لنتخذها لولا أهمية الموضوع. ولكن كما قلت لك في أول الخطاب، وجدنا

أمامنا ثغرات قانونية أو تنظيمية، فأصبح من الواجب علينا أن ندرس القوانين والنصوص التنظيمية، فمنها ما أحيل على البرلمان أو سيحال عليه للتصويت عليه، ومنها من تدارسته الحكومة في إطار القوانين التنظيمية وصادقت عليه.

وهكذا شعبي العزيز، ترى أن هذا العمل المتعدد الأطراف والجهات منه ماهو من قبيل الابتكار، ومنه ما هو من قبيل الإحصاء، ومنه ماهو من قبيل التشريع، ومنه ما هو من قبيل اتخاذ القوانين التنظيمية، ومنه ماهو قبل كل شيء وبعد كل شيء من قبيل الإيمان العميق بقداسة الموضوع.وهاأنت ترى أننا ـ ولله الحمد ـ بفضل الله وقوته وعونه، وبحسن مواطنة جميع أعضاء المجلس الوطني للشبيبة والمستقبل، قد حققنا وعدنا، وإن الله سبحانه وتعالى لم يخيب رجاءنا.

فإذن شعبي العزيز وشبابي العزيز، من الناحية المغربية ـ المغربية يمكن أن نقول إننا مطمئنون، ونرجو الله سبحانه وتعالى أن يؤكد هذا الاطمئنان، وأن يجعل له أسسا دائمة إن شاء الله. إننا نؤكد بأننا مطمئنون فيما يخص مستقبل كل مغربي مغربي داخل مغربه.

ولكن شعبي العزيز وشبابي العزيز، المغرب منذ أن خلقه الله سبحانه وتعالى لم يكن المغرب الذي لا يعرف إلا المشاكل المغربية ـ المغربية، فالمغرب لم يكن من تلك البلاد التي تقول كما قال الشاعر «إذا مت ظمآنا فلا نزل القطر».

إن المغرب ليس من تلك الأوطان البخيلة التي تدخر كل شيء لنفسها، ولا تفكر أبدا في ما حولها. إن المغرب بالعكس بلد اجتماعي، فكما أن المغاربة اجتماعيون يحبون غيرهم ويحبهم غيرهم، فالمغرب كذلك وطن في كليته وطن اجتماعي يحب التعارف والتآلف والتعرف على إخوانه كانوا مسلمين أو غير مسلمين.

وهذه الخصال، هي التي جعلت المغرب مع المد والجزر الجغرافي تاريخيا من الغرب إلى الشرق ومن الشرق إلى الغرب يأخذ ويعطي، ويساهم ويشارك، ويناضل ويجاهد، فعرف الناس وعرفوه، وعرف بلده فتعرفوا عليه. فالمغرب إذن يجب عليه أن لا ينشغل فقط بالمشاكل المغربية ـ المغربية، فكما قلت لكم، فإن مشاكل الشباب المغربي، المغربية ــ المغربية، ها هي ــ ولله الحمد ــ في طريق الحل، وستكون كلمتي طويلة ومستفيضة حينما افتتح الدورة الثانية للمجلس الوطني للشباب والمستقبل.

شبابي العزيز،

كن على يقين أن الأعمال والمدارسات والحوار الذي سيتبعها حينما سنفتتح الدورة المقبلة، سوف تملأ صدرك تفاؤلا

ويقينا. ولكن هذه صفحة طويت. وأتساءل الآن، هل الشباب المغربي سيبقى مقتصرا على مشاكله المغربية ـ المغربية... أقول: لا. لم نكن هكذا، ولن نكون هكذا أبدا، لأن الرجل المغربي رجل فوق الحدود الجغرافية، وفوق المعتقدات الدينية، وفوق الإيديولوجيات السياسية، فهو قبل كل شيء مواطن عالمي في خدمة العالم والأخوة العالمية. فلذا عليه أن يتفهم ويعي العمق الحقيقي للأزمة التي مربها العالم العربي في السنة المنصرمة وفي نصف هذه السنة.

إن الأزمة التي مر بها العالم العربي ـ ونحن طرف منه، وشبابنا طرف من الشباب العربي ـ لازالت دامية. وقد اجتهدت الحكومات كما اعتقدت أنه يجب عليها أن تجتهد، واتخذت كل حكومة حكومة موقفا من المأساة العربية، فمنهم من اجتهد واختار هذا المعسكر، ومنهم من اجتهد واختار هذا المعسكر، ومنهم من اجتهد واختار هذا المعسكر، والنتيجة هي أنه كيفما كان الاختيار وكيفما كان الاجتهاد ـ سواء صائبا أو مخطئا ـ النتيجة كانت مع الأسف والأسف العميق المدمي. أننا أخرنا الأمة العربية بعشرات السنين، لقد كانت النتيجة أننا سودنا سمعة العرب سنين طويلة، وكانت النتيجة أننا أسدلنا أمام عيون كل مواطن عربي ستارا أسودَ لا يترك للنور أي منفذ، ولا يترك لبارق أمل أي منفذ، ولا يترك لا للأفراد ولا للجماعات ولا للمسؤولين ولا لغير المسؤولين أي مجال للتفكير في التعارف من جديد والتواصل من جديد، حتى نتخطى جميعا ما وقع، وحتى نتناسى لننسى بعد مدة، وينبغي ألا نكذب على أنفسنا، ويجب أن نعرف هذه المدة التي سنلزم بها أنفسنا لنتناسى لمدة ستكون فيها المصافحات وتبادل السلام مخلوطة بشيء من النفاق، أو لنقل المجاملة.

ولكن سرعان ما ستمر هذه المرحلة، لأن القلب العربي إنسان معطاء. وهناك نقط لا أجد لها ترجمة في أية لغة كانت من غير العربية وهو: المروءة، والرجل العربي صاحب مروءة.

وهنا شبابي العزيز، ترى أن دورك قد حان وسيحين مثل جميع شباب العالم العربي، ولا أريد كما فعل البعض في الستينات حينما كانت بعض الأصوات تقول: نحن لا نتعامل مع الحكومات بل نتخطاها ونقفز على رأسها لنخاطب الشعوب. أنا لست من أولئك المشاغبين، فأنا لا أتخطى الرؤساء والملوك، وأخاطب الشعوب والشباب منهم أبدا ـ حاشا الله ـ أنت شبابي شباب المغرب، خاطب إخوانك الشبان في العالم العربي، واخط معهم الخطوة الأولى. ولي اليقين أنه يوجد في

جميع الدول العربية شباب مثل الشباب المغربي، قلبه يتحرق، ولكن لايجد لا المخرج، ولا الفتوى. إن الفتوى سأعطيها لك، إنها فتوى المحبة والقلب واللغة والدين والدم والسلالة المشتركة.

إن طريق الشباب على ما أعرف - لأنني لازلت بقلبي وضميري وتفكيري شابا - هو الارتجال، فقد جاء إعرابي إلى النبيﷺ وقال له: يارسول الله، أريد أن أسألك في مسألة. قال له رسول الله ما هي؟ فقال الأعرابي: هل زوجتي وأولادي يحبونني. قال له النبيﷺ: استفت قلبك. بمعنى تصرف وعليك أن تبتكر.

شبابي العزيز:

عليك أن تنادي بنداء الإخاء، ونداء اللقاء، حتى تجعلنا نحن الكهول تابعين لنزوات شبابنا الحكيمة والطيبة والكريمة والمعطاءة.

إفتح الحوار مع الشباب العربي الآخر كيفما كان المعسكر الذي كان من جهته، ومدّ له يدك، فكما قلت لك فإن الجرح عميق ودام، والسمعة العربية ملطخة، والتساكن العربي يمكن القول أنه أصبح مستحيلا. ولكن كما قال الشاعر الذي أحبه كشاعر وكأستاذ وهو من أساتذتنا المغاربة المعاصرين:

كل شيء على الشباب يهون

هكذا همة الرجال تكون

فشبابي العزيز إطمئن على حالتك المغربية ــ المغربية، فنحن لن ندخر جهدا في تقويمها وتعزيزها وتحسينها، متكلين في ذلك على عزمنا الوطيد وإيماننا الراسخ، إيماننا وإيمان من يعمل بجانبنا في جميع القطاعات، ومتكلين قبل كل شيء على الله سبحانه وتعالى، الذي لم يخيب لنا ظنا، ولم يردنا خائبين كلما رجوناه وطلبناه.

إطمئن من هذه الناحية، وارتق بفكرك وبقلبك لترى ولتطل على عالمنا الآخر.. العالم العربي حتى ترى جسامة العمل، ونبل العمل، وقداسة العمل.

أعاننا الله سبحانه وتعالى على القيام بما نعتبره من واجبنا كمغاربة وكمواطنين عرب وكمواطنين عالميين. ونحن في هذا كله نتوجه إليه سبحانه وتعالى ليحقق فينا ما وعد به عباده المخلصين.

﴿**إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم**﴾ صدق الله العظيم.

والسلام عليكم ورحمة الله.

جلالة الملك الحسن الثاني

مفخرة للعرب والمسلمين

للشيخ ماء العينين لا رباس الأغظف
رئيس المجلس العلمي الإقليمي بالعيون

لقد من الله على هذه الأمة الإسلامية بأن أعطاها في هذا الظرف المليء بالمتناقضات، بأن بزغت في ظلام جهالته، شمس طلعة سليل الدوحة النبوية أمير المومنين جلالة الملك الحسن الثاني، فأزاحت عن هذه الأمة غيوم الكثير مما كانت تتخبط فيه من مؤامرات حيكت لأمتنا كي تبقى ترسف في قيد العبودية، وتتخبط في متاهات الجهل ولا غرابة في ذلك، فمدرسة المجاهد الأكبر، والمقاوم الأول والداعية الإسلامية العظيم، والمخطط لتحرير شعوب إفريقيا وغيرها، جلالة المغفور له محمد الخامس، هي التي تخرج منها منقذ العروبة والإسلام وبطلهما جلالة الملك الحسن الثاني، فإذا كان رائد سلم، وداعية سلام، ومنقذ أمة، فذلك ما تلقى دروسه في هذه المدرسة المحمدية التحررية الإسلامية العظيمة، فكان ساعد والده العظيم الأيمن في تحرير المغرب واستقلاله، فحرك الشباب، واشعل فتيل غيرة المواطن المغربي على الوجود الاستعماري من وجدة إلى لكويرة.

ولقد فهم المستعمر في عنفوان شباب الملك الحسن الثاني، أنه هو المحرك لما يعاني منه وجود المستعمر في كثير من جهات المملكة، فتضايق الغازي منه، وحبكوا له عدة مؤامرات نجاه الله منها.

وعندما امتدت يد العدو الأثيمة لمحرر البلاد المغفور له محمد الخامس، واجه المستعمر الملك الحسن الثاني بكثير من أنواع العداء والمكر، وسلطوا عليه ـ حفظه الله ـ رقابة صارمة وهو في المنفى بمعية

والده وأسرته الكريمة، تلك الأسرة المجاهدة الفريدة من نوعها.

وكان جلالة الملك الحسن الثاني، بالرغم من منفاه السحيق، مقتنعا تمام الاقتناع بالنصر على العدو، ومومنا إيمانا قاطعا من أن العرش والشعب سينتصران على العدو، وذلك مما جعل مدة المنفى في نظر جلالته البعيد هي فترة تخطيط لما وراء إستقلال المغرب، فكان الجناح الأيمن والمؤازر القوي للمغفور له.

وفعلا، تحقق لجلالة الملك الحسن الثاني ما يصبو إليه، وانطلق بجنب والده المنعم — بعد تحرير البعض من الوطن العزيز، وبقاء العرش منتصرا على قوى الكفر والشر والطغيان — يبني ويشيد ويواجه ويجاهد، من أجل استكمال وحدة هذا الوطن.

وبعد أن اعتلى - دام عزه وعلاه - عرش أسلافه المنعمين، لم يهدأ له بال، ولم يعرف راحة ولا سكون، حتى حرر - دام عزه — إيفني بعد طرفاية سنة 1969، وأعلنها بعد ذلك مسيرة سلمية خضراء سلاحها القرآن، وشعب عرف بقوة إيمانه ووفائه لمقدساته، فكان له ما أراد من استكمال وحدة هذا الوطن الذي خدمه - دام عزه — بكل ما لديه من وسائل، ليعيش مواطن المملكة المغربية في عز وأمن وأمان. وانتشر البناء والعمران ونهض هذا الشعب بالعناية التي أولاها رائد هذه الأمة، فاحتل المكانة اللائقة علما واقتصادا، وحرية وأمنا.

فكان هذا الوطن، ملتقى لقادة الدول، ومحل ثقة الجميع، لما يمتاز به هذا البلد الأمين من تاريخ موغل في الحضارة، واستطاع وطننا العزيز بعناية العرش العلوي المجيد والجالس عليه، بوفاء هذا الشعب النبيل العظيم، أن يصمد أمام محاولات الأعداء أينما كانوا، وحيث ما حلوا وارتحلوا، وذلك راجع في هذا الظرف المحموم بالتيارات العنيفة لحنكة وحكمة صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني دام في حرز السبع المثاني.

لقد أسدى العرش العلوي، وملوكه البررة للعالم الإسلامي، الشيء الكثير، فانتشر بهم السلم، وعمت رسالة جدهم سيد البشر كثيرا من أصقاع العالم، ودور جلالة الملك في مجالات العلم والعمل البناء، وتوعية الأمة، وتعميم البعث الإسلامي. جليٌّ وعظيم، ففي عهده الزاهر - دام علاه - أعطيت أكبر عناية للعلوم الإسلامية وبالأخص الأصلين الكتاب والسنة، فاختير لنشر العلم علماء أكفاء، متخصصين في شتى ميادين العلوم الإسلامية، لبعث الإسلام من جديد، ودوى صوت دعاة الإسلام، بفضل عناية أمير المومنين الملك الحسن الثاني، في كثير من قارات العالم.

في أوروبا وأمريكا وآسيا، بله إفريقيا، التي عرفت منذ القدم، انتشار العلم والدعوة إلى الله بواسطة المملكة المغربية وعلمائها الأجلاء، الذين خلدوا ذكرا جميلا، وأثرا حسنا في خدمة هذا الدين ورسالته الخالدة، بفضل العرش العلوي، أبد الله ملكه، وخلد في الصالحات ذكره.

فأمير المومنين الحسن الثاني لا يرضى من الأمة الإسلامية أن تبقى في المؤخرة بعد أن كانت هي الرائدة بحضارتها الإنسانية. فديننا المثالي يستحث الهمم ويشحذها، لتعيد هذه الأمة مجدها وتجدده بعد الاندثار بالجد والعلم والعمل والتشييد والبناء، في ظل ما يدعو له الإسلام وفق الكتاب والسنة.

قال أعزه الله، في رسالته الموجهة للأمة الإسلامية بمناسبة مطلع القرن الخامس عشر الهجري:

(إن الطريق إلى مركز الصدارة بين الأمم مفتوح في وجه الأمة الإسلامية، لا يحول بينها وبينه حائل. لكن يلزم لضمان ذلك، أن لا تقتصر عنايتها على الجانب المادي وحده، وعليها أن توجه حظا كافيا من اهتمامها إلى الحفاظ على تلاحم الأسرة المسلمة، وحمايتها من عوامل التفكك والانحلال، وأن تعيد للتربية الدينية والخلقية ما كان لها من الاعتبار والأهمية في تنشئة الأجيال، وأن تجعل من الأم المسلمة أما مثالية، تعتز بأن تكون هي المربية الأولى للناشئة والأطفال فداء لدينها، وإخلاصا لوطنها، وأن تجعل من المدرسة والكلية والجامعة — إلى جانب المسجد — الملتقى المفضل والدائم للعلم والإيمان، وأن تتعاون على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان).

هذه الدرر من النصائح الغالية، والتوجيهات الملكية السامية والتي مصدرها الكتاب وأقواله عليه الصلاة والسلام وأفعاله وتقريراته، إن أخذ بها المجتمع الإسلامي وعمل بما يدعو له شكلها وجوهرها، سيقوى بعد ضعف، ويرقى إلى مصاف الدول الراقية روحا ومادة.

فكلما أطل عيد الشباب، إلا ويذكرنا بما أسدى هذا البيت النبوي الشريف من خير للأمة الإسلامية، ولهذا الشعب الذي يبادل العرش العلوي المجيد وبيته النبوي المنيف حبا بحب، وإخلاصا بإخلاص.

بيت فضل، وبيت مجد وعز

وجهاد، وبيت صدر النادي

أعاد الله هذا العيد على مولانا أمير المومنين جلالة الملك الحسن الثاني مرات تلو مرات وهو يرفل في ثوب العز والنصر والتمكين، محروسا بعين الله التي لا تنام،

مكفولا بكنفه الذي لا يرام، مقرور العين بولي العهد الأمجد سمو الأمير سيدي محمد، وبصنوه الرشيد سمو الأمير مولاي رشيد، وبأسرته الشريفة.

إنه مجيب الدعوات، وجالب الخيرات، ودافع المضرات.

العيون ـ الشيخ ماء العينين لارباس الأغظف



الفكر المستقبلي لدى الحسن الثاني

للدكتور محمد الكتاني
عميد كلية الآداب والعلوم الإنسانية بتطوان

اتخذ بعض علماء النفس المحدثين مقياسا لتمييز كل طور من أطوار حياة الإنسان الثلاثة، وهي الطفولة والشباب والشيخوخة، فقالوا إن هذا التمييز يمكن أن يلتمس في نظرة الشخص إلى الزمن وإلى ملء هذا الزمن بما ينمي الذات ويحقق وجودها، ولاحظوا انطلاقا من ذلك أن الطفل يعيش فقط في حاضره، وأن الشاب يفكر دائما في مستقبله، وأن الشيخ لا يشغله إلا ماضيه، وبعبارة أخرى لاحظوا أن مميزات الطفولة أنها مستغرقة في الحاضر أو في اللحظة الراهنة، فلا تفكير في الماضي ولا في المستقبل، وأن مميزات الشباب هي الانشغال بالمستقبل سواء كان قريبا أو بعيدا، أما الشيخوخة فهي دائمة الالتفات إلى الماضي. ويرتبون على هذا التمييز الملاحظة التالية: إن رأيت إنسانا لا يشغله سوى حاضره فهو طفل مهما كان عمره، وإن رأيت إنسانا دائم التفكير في الغد أو في المستقبل، قريبا كان أو بعيدا فهو شاب، وإن رأيت إنسانا لا يتحدث إلا عن ماضيه ويرى أن ما حققه هو ما كان ممكنا بالنسبة لذلك الماضي فهو شيخ. ولا عبرة بعد ذلك بسن الإنسان ولا بالطور الفعلي الذي يحياه.

ونحن حين نورد هذه الملاحظة السيكولوجية فإنما لنستأنس بها في فهم حقيقة الشباب. ذلك أن الشباب الحقيقي هو تطلع الشخص نحو المستقبل بروح التفاؤل وروح التجاوز لواقع واستثمار الحاضر الراهن في سبيل بناء المستقبل. وهذه الحالة النفسية تشبه إلى حد كبير الشعلة، ولذلك دل لفظ الشبوب على اتقاد النار ونشاطها كما دل لفظ الشباب، وهو من نفس المادة اللغوية، على النشاط وكمال النضج بالنسبة للإنسان.

إن خاصية الأمل والتوجه نحو المستقبل بروح التفاؤل والبناء إن كانت من خصائص الشباب فهي لازمة من لوازم القائد السياسي الناجح في كل زمان ومكان. وتتلخص هذه الخاصية في سلوك واحد، هي التفكير المستقبلي الذي يتعين في حق كل زعيم جماعة أو قائد أمة أو رئيس دولة أن يتحلى به، إذ بدون هذا التفكير المستقبلي بما ينطوي عليه من أمل وتفاؤل وإرادة بناءة يتخلف شرط أساسي من شروط الزعامة والقيادة.

وما نعنيه في هذه المقالة بالفكر المستقبلي هو محاولة استشراف المستقبل وتوقع وتيرة تطوره والتماح معالمه. والمستقبل فضاء من الزمن غير محدود، ويمكن للمرء أن ينظر إلى هذا الفضاء في الحدود المعقولة من الرؤية والتوقع، مثل أن ينظر في عقد من السنن أو عقدين على أبعد تقدير. أما المستقبل البعيد الذي لا يعلمه إلا الله فهو أمر لا خلاف في أنه مجهول وأنه مما استأثر الله بعلمه.

وهكذا يكون الفكر المستقبلي وفي إطار هذه الحدود المعقولة هاجسا من هواجس الأمم المتقدمة والماضية في طريق النمو، كل بالقدر الذي يواجهه من مشاكل أو تحديات في الحاضر والمستقبل القريب.

ومن المعلوم أنه منذ الحرب العالمية الثانية أخذت كثير من مراكز البحث العلمي في أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية تشتغل بشكل ملموس في مجال المستقبليات لأنها مصدر التخطيط لسياساتها الاقتصادية والاجتماعية، وقد ساعد على تنمية حركة البحث في المستقبليات وإرسائها على قواعد علمية ثلاثة عناصر:

أولها: التقدم الهائل الذي حصلت عليه علوم الإحصاء في المجالات المتعددة فأصبح الإحصاء الرياضي أداة ناجعة في إدراك الثوابت والمتغيرات، ومعيارا يهيىء للباحث إمكان استشراف المستقبل. وقد تطورت الدراسات الإحصائية عندما استعملت العقول الإلكترونية، وأصبح بإمكانها إنجاز عدة نماذج لتخطيط المستقبل القريب بناء على معطيات دقيقة تخص الواقع الحاضر بكل عناصره.

ثانيا: تقدم البحوث العلمية والعلمية الإنسانية، الأمر الذي أصبح الإنسان بفضله قادرا على إدراك العلاقات المتفاعلة بين عدة مظاهر كتفاعل النمو الديمغرافي مع الإنتاج، أو كتفاعل الإنتاج الصناعي مع عوامل التلوث للبيئة، أو كتفاعل نوع من الأنظمة السياسية مع الاستقرار الاجتماعي. وهكذا أصبح بإمكان عالم الاجتماع وعالم الاقتصاد أن يتوقعا الكثير من الوقائع بالنسبة لسياق من السياقات أو نسق من الأنساق الاقتصادية والاجتماعية.

ثالثا: ارتباط العلم والتكنولوجيا في

حضارتنا المعاصرة ارتباطا قلل من المسافة بين العلم والصناعة، فأصبح كل اكتشاف علمي ينجز في صناعة من الصناعات المتعلقة بحياة الإنسان وتوفير أكثر ما يمكن من الأمن والرفاهية في حياته. ولكن هذا الارتباط أفضى إلى نتيجة خطيرة كغيره من العوامل السابقة، وهو أن الدول المتقدمة في العالم التي تحتكر لنفسها العلم والتكنولوجيا، أصبحت تقطع كل يوم وربما كل ساعة مسافات هائلة تزيد من عمق الهوة والتفاوت بين هذه الدول وبين ما يعرف بالعالم الثالث.

أمام هذا التقدم الهائل من جهة والنتائج التي أسفر عنها البحث في المستقبليات من جهة أخرى، انشغلت عدة مراكز علمية بمستقبل الإنسان انشغالا دفعها إليه المخاوف العديدة التي تملأ أفق المستقبل الإنساني منها الإفراط في الفقر والغنى، واتساع الهوة بين عالم الشمال وعالم الجنوب، ومنها التلوث البيئي، ومنها الأمن الغذائي ومشكلات الطاقة، وفي مقدمة هذه المراكز (نادي روما) الذي أسس للبحث في المستقبليات.

وليس من أهداف هذه المقالة الوقوف على التفكير المستقبلي كما تمارسه عدد من الهيئات العلمية والسياسية في كل من أوربا والولايات المتحدة الأمريكية، وإنما يهمنا، ونحن ننتمي إلى العالم الثالث أن نتساءل ما مدى اهتمامنا بمستقبلنا في الحدود الطبيعية للنظر في المستقبل؟ وهل لنا مراكز أبحاث في هذا المجال؟ وهل يشغلنا هاجس المستقبل مثلما يشغل الآخرين؟

إن العالم الثالث سيواجه تحديات أساسية وعميقة بالنسبة للمستقبل القريب ضعف ما يواجهه اليوم من تلك التحديات. ولذلك علينا أن نقر بما قرره أحد الباحثين من أن بلدان العالم الثالث تفرض عليها الثورة العلمية والتكنولوجيا من جهة، وإرث التخلف من العهد الاستعماري من جهة ثانية تحديات ستسفر إما عن الحياة والاستمرار، وإما عن الموت والزوال، وأنه لا مخلص من تلك التحديات إلا بمواجهة التنمية.(1) والتنمية تأخذ عدة مفاهيم، فمنهم من يعتبرها تتمثل في استيراد التكنولوجيا وبناء الصناعات الثقيلة، ومنهم من يعتبر التنمية هي تقليد الأوربيين وتَرَسُّم حياتهم وأنظمتهم شبرا بشبر، وذراعا بذراع، ومنهم من يعتبرها في وفرة الإنتاج والاستهلاك. إلا أن هذا التصور أو ذاك يغفل حقيقة أساسية، وهذه الحقيقة

---

(1) انظر كتاب العالم بعد مائتي عام (الثورة العلمية والتكنولوجية) للدكتور هرمان كان. ترجمة شوقي جلال (مقدمة المترجم).

هي حقيقة الإنسان، والإنسان هو محور كل مبحث وتخطيط وتنمية، وكل تفكير في المستقبل من غير تقدير إنسية هذا الإنسان، وعلاقته بتاريخه وثقافته، تفكير في خواء، أو تفكير مادي يحقق التنمية المادية وسط بؤس روحي واغتراب نفسي.

نعود بعد ذلك لنرى أن المغرب قد حباه الله بملك عبقري أخذ مقاليد الحكم وهو في ريعان الشباب، فأخذ منذ توليه عرش المغرب لا يشغله إلا مستقبل المغرب، وبناء هذا المستقبل على صورة تتوازى فيها عناصر الأصالة والمعاصرة والذاتية والتفتح، والقيم الإسلامية والقيم العلمية المعاصرة، وهذه القيم بارزة في فكر الحسن الثاني، ومتكاملة ومتفاعلة فيما بينها. وخلال الثلاثين عاما الماضية من تاريخ المغرب المعاصر، اتسمت القيادة الحسنية بروح الشباب المليئة بالتفاؤل والعزم، والتفتح والتخطيط للمستقبل، لتنمية المغرب تنمية حضارية متوازنة لا يطغى فيها عنصر على آخر.

وإذا أردنا أن نستخلص هذه السمات الأساسية لروح القيادة الحسنية فما علينا إلا أن نعود إلى قراءة خطبه وندواته الصحافية، وكتابه التحدي الذي هو خلاصة فكره وتجاربه.

وعندما نتأمل بكل موضوعية فكر جلالة الملك الحسن الثاني، نجد لديه دائما ومن خلال خطبه وآرائه، وندواته الصحفية وتوجيهاته السامية، طابعا متميزا يطبع سلوكه الفكري والعملي، وهو طابع الحيوية المتدفقة التي يقودها الأمل والتفاؤل دائما، كما يعززها النضج الفكري والإرادة الصلبة والأناة التي تعصم من الزلل.

ويلاحظ الملاحظ أن الفكر المستقبلي لدى الحسن الثاني فكر حاضر في كل لحظة، مدعوم بدلائل الماضي وتجاربه، مدفوع بمشاغل الحاضر وضروراته، متجه نحو المستقبل، مؤمن بالتخطيط والتهيئة للإنسان والمجال بغير انقطاع. وللتدليل على ذلك نتناول بعض الفقرات والآراء من خطب جلالته لتحليلها في هذا الإطار.

ولا يخفى على أحد أن من مظاهر التفكير المستقبلي الاهتمام بالماضي والانشغال بالحاضر. أما الاهتمام بالماضي فمن أجل تحليله والاعتبار بأحداثه وإدراك سننه الثابتة التي هي وحدها المرآة الحقيقية لقوانين الحياة الاجتماعية، إذ لا يمكن التفكير في المستقبل من غير استحضار المعرفة بالماضي وإدراك قوانينه. وأما الانشغال بالحاضر فمعناه بذل كل طاقة لدى الإنسان في إنتاج ما ينبغي إنتاجه، ومواجهة كل مشكلة والعمل على تجاوزها، وتحقيق الذات على نحو أفضل، ولا يعقل أن يفكر المرء في المستقبل إن لم يكن منطلقا من معرفة الحاضر، ومن

حديد مشكلات الحاضر. وإذن، فالتفكير في ستقبل لا يكون تفكيرا جادا إلا إذا بني لى معرفة موضوعية، وربما إحصائية تحليلية تشمل الماضي والحاضر بالنسبة فرد أو بالنسبة للجماعة.

وعلى هذا النحو الموضوعي من معرفة اضي والحاضر ينطلق التفكير المستقبلي دى الحسن الثاني، ولذلك نجده دائما حث على قراءة التاريخ لمعرفة طبيعة الأمة غربية من خلال تاريخها الطويل، لوقوف على ثوابتها ومتغيراتها في تفاعلها ع العوامل المختلفة المتحكمة في هذا تاريخ، ونجد هذا الفكر المستقبلي أيضا طلق من تحليل الحاضر أيضا، فيقول لالته في رسالة ملكية للمعرض الدولي لدار البيضاء بتاريخ: 1981/4/29.(2)

«في الوقت الذي تفتتح الدورة التاسعة لعشرون للمعرض الدولي بالدار البيضاء لاحظ أن الأزمة (أزمة الاقتصاد العالمي) تزداد إلا حدة، يضاعف من تفاقمها ما دد عدة مناطق في عالمنا من خلافات وترات، وقد غدت أنماط التنمية ومقاصد نماء الاقتصادي وكذا نماذج التعاون ائمة بين الشمال والجنوب محل تساؤل ت تأثير المعضلات الحادة كتلك المتعلقة تغذية والطاقة والتحولات التكنولوجية.

فنحن نعيش إذن في فترة تحول، وفي مرحلة حاسمة من تاريخ الإنسانية، يحتار فيها رجل السياسة وصاحب القرار أمام ضخامة المشاكل الاجتماعية والاقتصادية التي يتعين حلها، وأمام التكنولوجية الهامة القابلة للاستثمار سواء منها ما يتعلق بعلوم الأحياء أو علوم المحيطات أو الإعلاميات عبر المسافات.

وإن الاهتمام البالغ الذي نعيره للتعاون الثنائي والمتعدد الأطراف ليستمد مرتكزاته من أهمية التحديات التي يجب أن تواجهها الإنسانية سواء على الصعيد الاقتصادي أو الثقافي أو العلمي أو التقني، لتضمن الرخاء والسلام للإنسان في آفاق سنة ألفين.

هذه كلمات تدل على وعي كامل وموضوعي لدى جلالة الملك بطبيعة المرحلة التاريخية التي يجتازها عالمنا المعاصر، في خضم التطورات الكبيرة للتكنولوجية، والاكتشافات العلمية التي من شأنها تغيير وتطوير وسائل الإنتاج، واستثمار الطاقة، وقلب الموازين الكلاسيكية، وبالتالي توسيع الهوة بين عالم الشمال وعالم الجنوب، وهذا الوعي الموضوعي يمليه الإحساس العميق بضرورة التفكير في المستقبل، والتخطيط لهذا المستقبل في ضوء قوانين التطور ودينامية

انظر كتاب «انبعاث أمة» الجزء 26، ص: 169.

التقدم. ولذلك يقترح بناء المستقبل على أسس جديدة تدخل في اعتبارها عوامل التطور وديناميةالتقدم وحتمية التعاون والانفتاح وبناء النظام الاقتصادي على أسس جديدة. ويقول جلالته في هذا السياق:(3)

«إن العالم النامي وقد أثرته الخبرات المستمدة من مختلف أنماط التنمية المجربة في الدول المصنعة والتي عرفنا حدودها، مدعو إلى البحث عن طرق للتقدم تتلاءم مع خصائصه الثقافية وأصالته الحقة، ويتعين أن يكون الحفاظ على التراث الثقافي وتعبئة إمكانات التنمية الهائلة للدول السائرة في طريق النمو الهدف الأسمى لعلاقات الجنوب بالجنوب، وبقدر النجاح في إدراك هذا الهدف يتحقق الوصول إلى الأمن والتوازن الجيوسياسي».

إن الهاجس الاقتصادي كما نلاحظ يظل يأخذ حيزا كبيرا من التفكير المستقبلي لدى الحسن الثاني في كل خطبه وتوجيهاته. فهو دائم التفكير في التخطيط وإعادة التخطيط، ومراجعة التخطيط، سواء تعلق الأمر بالقطاع الفلاحي أو القطاع الصناعي أو بقطاع التكوين للإنسان واستثمار طاقاته من أجل إنتاج أفضل. وهذا التفكير المستقبلي لا يقتصر على هذه القطاعات ليقف عندها، وإنما ينطلق منها لبناء تصور مستقبلي متكامل يتوحد فيه السياسي والاقتصادي والحضاري والثقافي باعتبارها مقاطع لبناء واحد ذي واجهات متعددة.

يقول جلالته:(4)

«إذن، الاختيارات لم تعد كثيرة، اختيارات وحيدة وواحدة، وهي: كيف يمكن أن نضع بلدنا وطاقاتنا البشرية حالا واستقبالا في مأمن من الغلبة، في مأمن من القهر، في مأمن من الاستجداء؟ كيف نوطد للمغاربة أن يعيشوا كما عاش أجدادهم وكما عشنا نحن، قادرين على التدخلات لصالح الإسلام، ولصالح إفريقيا، ولصالح العروبة، وبكلمة واحدة على أن نلعب الدور الذي خلقنا له، لأن الله سبحانه وتعالى لا يفعل الأمور عبثا، فلم يخلقنا في ملتقى البحرين وملتقى الحضارتين، ولم يعطنا سبحانه وتعالى الأراضي الخصبة والمياه العذبة الكثيرة، ولم يعطنا الشواطىء ويزيدنا منها في السنوات الأخيرة، لم يعطنا كل ذلك لنظل مكتوفي الأيدي ولنظل متواكلين».

ويقول أيضا في سياق آخر وفي كلمات جامعة شاملة تختصر الثلاثين سنة من

(3) المرجع السابق ص: 78.

(4) المرجع السابق ص: 75/76.

جهاد ملكنا الشاب وعمله الدائم في سبيل جعل المستقبل دائما أفضل من الحاضر. يقول جلالته:(5)

«وانطلاقا من حرصنا الأوكد على أن تواكب نهضتنا الفكرية والعلمية، نهضة تنتظم الاقتصاد والاجتماع، أحدثنا بادئ ذي بدء الإنعاش الوطني، وتوخينا من إحداثه تعبئة الطاقة البشرية لإنجاز أكبر عدد ممكن من المشاريع الاقتصادية والاجتماعية التي لا تحتاج إلى تقنيات كبيرة، ثم تولينا بعناية خاصة الفلاحة والفلاحين والصناعة والتجهيز وتشغيل اليد العاملة، وترامت مطامحنا إلى تأمين الاكتفاء الذاتي وإغزار الإنتاج والتصدير، فاتجه عزمنا إلى سقي المزارع بتشييد السدود وبسط القنوات، وإلى مباشرة إصلاح زراعي خليق بأن يدر على المستفيدين منه الكسب المغري والربح المحقق، كما اتجه إلى تنمية استغلال ثرواتنا المنجمية، وبث الصناعات على اختلاف أنماطها، وإنشاء الموانئ على طول سواحل التراب الوطني، وبناء الطرق وتوسيعها وحفر الآبار وتوليد الطاقة الكهربائية، وتمديد شبكة المواصلات وتحديثها وتكثير المطارات وإحداث ما يضاهي منها المطارات الغربية المرموقة، ولم تعزب عن بالنا أوضاع عمالنا فأعرناها اهتمامنا، وطفقنا نصدر من القوانين ما جعلها الآن في طليعة الأوضاع، وإلى هذا كله استرعى انتباهنا ما بين الفئات الاجتماعية من فوارق، فحفزنا عزائم وزرائنا بموالاة التوجيهات قصد تقريب الشقة الفاصلة والعمل على التقليل من التفاوت، والتباين، وفي هذا الإطار أصدرنا أوامرنا للشركة الوطنية للاستثمار باتخاذ التدابير الكفيلة بحصول ذوي الدخل اليسير الذين يقتنون قراطيس مالية على مردود مربح.

وإذا كنا شعبي العزيز قد اتجهنا منذ جلوسنا على عرش أسلافنا المقدسين في اتجاهات شتى، قصدنا من وراء كل منها إلى أن يخطو وطننا تلك الخطى الواسعة التي يقودها تطلع فسيح وطموح رحب، فقد أملى علينا اقتناع شخصي واعتقاد متوغل في القلب أن نقيم نظام الملكية الدستورية، ونقر الحريات العامة، ونخولك ـ شعبي العزيز وأنت من أنت كفاية واقتدارا، ووعيا واستبصارا ـ حقوقا تؤدي من طريق التسيير والتدبير إلى أخذك بحظ وافر من التجديد والتطوير، ونصيب ظاهر من البناء والإنشاء».

هذه الكلمات الوجيزة تدل على فكر مستقبلي واسع الأفق، كامل الوعي

---

(5) المرجع السابق ص: 87/88.

والاستبصار بخصائص الشعب المغربي وطاقاته وإمكاناته وحقوقه المشروعة في عيش رغيد يقوم على التجديد والتطوير من غير توقف. ويدل على ذلك ما قاله جلالته في مناسبة أخرى وهي افتتاح أشغال المجلس الأعلى للإنعاش الوطني والتخطيط بتاريخ: 81/4/28.

يقول جلالته في إيمان بضرورة التخطيط:(6)

«لا يمكن لأي بلد ما أن يعيش دون تخطيط في القرن العشرين.. ولو لم يكن من هذا التخطيط إلا أن يضع الأسبقيات من جهة، وغير الأسبقيات من جهة أخرى، ولو لم يكن له من المزايا إلا أن يضع أضعف الإيمان من البرامج الاقتصادية والاجتماعية التي يجب على أي حال أن تنجز وأن يضع بجانبها اختيارات تأتى له أن ينجزها أو لم يتأت له ولو أعطى لنفسه خمس سنوات للبحث، إما عن البديل من المشاريع التي لا تكلف تلك التكاليف، أو بالبحث عن التمويل حتى يتمكن من إنجاز تلك الاختيارات وتلك البرامج لكان ذلك كافيا.

والجواب عن السؤال الثاني: كيف يمكن وضع تخطيط والعالم يعيش الآن في فوضى وعدم التوازن بين الغني والفقير، والمصنع والغير المصنع، والفلاحي وغير الفلاحي، بين البلاد التي تتوفر على كميات باهظة من وسائل الطاقة، وبين الدول التي لا تتيسر لها تلك الإمكانات، بين دول غنية ودول فقيرة في عالم لم تبق تسوده قوانين التجارة التقليدية المعروفة، والمبادلات التي عرفناها وعرفها أجدادنا».

لهذا التساؤل جواب وهو أنه لا يمكن لأي أحد أن يعايش الفوضى وعدم النظام بالارتجال والتسرع، إذن، ولو كانت الفوضى سائدة، ولو كان عدم النظام موجودا فلا يمكن أن نتغلب عليها إلا بعدم الارتجال والأخذ في نفس الوقت بالأناة والتأني حتى ندرس من المشاريع ما يمكن أن يدر علينا الخير».

وبعد تحليل كامل لواقع القطاعات المنتجة يختم جلالته خطابه بهذه الكلمات:

«علينا أن نفكر في الآتي العاجل والآجل، العاجل الشيء الذي سيخلق المال الذي ليس حقيقيا، والآجل الذي سيخلق الثروة الحقيقية. وهذا أملي في المجلس الأعلى للإنعاش الوطني والتخطيط».(7)

وخلاصة ما يمكن أن يقال عن الفكر المستقبلي لدى الحسن الثاني، أنه فكر يتجه نحو المستقبل حين يفكر في الحاضر، فلا

---

(6) المرجع السابق ص: 158.

(7) المرجع السابق ص: 165.

طيعة بينهما في التفكير والتخطيط، يضاف
ى ذلك أن التفكير في المستقبل مسألة
حيوية وليست مسألة كمالية. وفي كتابه
تحدي يورد جلالته هذه الكلمة لأحد
جال الغرب: «علينا أن نركض بسرعة
ئدة لكي نبقى في نفس المكان». ويعلق على
لك بقوله: «إن تقدمنا الديمغرافي يضطرنا
ى نتقدم، وكل إبطاء في هذا التقدم يقودنا
ى التقهقر، أما الركوض فهو ترف لا
ستطيع أي شعب أن يسمح به لنفسه».

وسمة أخرى يمكن أن تضاف إلى
سمات الفكر المستقبلي لدى الحسن الثاني
هي أنه ينظر إلى مستقبل أمته من منظور
صالتها، والحفاظ على هويتها، فليس
تفكير في المستقبل عنده أن نقتبس كل شيء
ن العالم المتقدم، وأن نقلد كلما وسعنا
تقليد، وإنما أن نصنع مستقبلا يتفق مع
اضينا. ويؤكد ذلك جلالته بعبارات
ضحة: «إن على كل شعب أن ينتهج
طريق الذي يناسبه، والذي هو طريقه
خاص وفق مزاج شعبه وطبيعته وقيمه
مكاناته وجذوره الممتدة في تاريخه».(8)

أوردنا هذه النصوص القليلة ولعلها أن
كون كافية في تحديد معالم الفكر المستقبلي
دى جلالة الملك الحسن الثاني، وكافية
ضا في الدلالة على مؤهلات هذا القائد
سياسي الملهم الذي طبع مسيرة المغرب
بعد الاستقلال بطابع الحركة والحيوية
والتنمية المتوازنة.

إن الكلمات والنصوص التي أوردناها
منذ البداية تشير إلى المحاور التالية:

1 — مفهوم التنمية بالنسبة للظرفية
العالمية.

2 — قيام التنمية على أساس الشركة
والتعاون الدوليين.

3 — استشعار الفوارق بين الشمال
والجنوب وما يقتضيه ذلك من تخطيط
جدي، وعمل دؤوب، للحفاظ على التوازن،
أو الحفاظ على نفس المكان.

4 — إن التنمية والتفكير المستقبلي
ينبغي أن يدعما الأصالة والهوية الوطنية.

ونظن أن في هذه المحاور الأساسية ما
يلخص توجهات الفكر المستقبلي لدى جلالة
الملك، هذا الفكر الذي أفاد منه المغرب في
عقوده الأخيرة بشكل جعله يحتفظ بمكانته
التي كانت له في تاريخه المجيد بين دول
إفريقيا ودول البحر الأبيض المتوسط
والمجموعة العربية والمجموعة الإسلامية.
وإن الحفاظ على هذه المكانة ليس بالأمر
السهل في عالم يركض باستمرار نحو
المستقبل وعلى وتيرة لا يستطيع ملاحقتها
إلا أولو العزم.

تطوان ـ د. محمد الكتاني

كتاب التحدي لجلالة الملك (النص المعرب) ص: 229/230.

حاشية على حديث ابن النجار

"السلطان ظل الله في الأرض"

للأستاذ
محمد العربي الشاوش
عضو رابطة علماء المغرب.

بقي في النفس شيء من المناقشة التي دارت حول حديث الحافظ محب الدين محمد ابن النجار البغدادي، ونقله الحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي في (الجامع الصغير) ونصه:

(السلطان ظل الله في الأرض، يأوي إليه الضعيف، وبه ينتصر المظلوم، ومن أكرم سلطان الله في الدنيا أكرمه الله يوم القيامة).

وهو الحديث الذي استهل به فضيلة الدكتور سيدي عبد الكبير العلوي المدغري درسه حول (مبادىء القانون الدستوري في الإسلام) في سلسلة الدروس الحسنية لشهر رمضان سنة 1410هـ - إبريل 1990م. واعترض عليه فضيلة الشيخ الأستاذ سيدي عبد العزيز بن محمد ابن الصديق، بحكمه على الحديث المذكور بأنه موضوع، لما جرح به أحد رواته وهو شيخ ابن النجار(1)، ثم عقب عليه الدكتور عبد الكبير ضمن حوار صحافي معه، بأن الحديث المذكور ثابت لاشك فيه، والطعن فيه كان نوعا من التسرع(2).

ولنا هنا وقفة تأمل، دفعتنا إلى تسجيل ملاحظات ووجهة نظر في هذه الحاشية وفي إطار هذه المناقشة العلمية، لا دفاعا عن أحد، ولا تحيزا لطرف معين، بل لإعادة النظر في الإشكالية المطروحة، رجاء تقريب وجهات النظر في المناقشة.

ذكر الأستاذ ابن الصديق مع احترامنا له وتقديرنا لاجتهاده في نقده لحديث ابن النجار، حديث الإمام مسلم، عن سمرة بن جندب أن النبيﷺ قال: «من حدث عني بحديث يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين».

---

1) جريدة العلم : عدد يوم 6 - 4 - 1990. وعدد يوم 20 - 4 - 1990م.

2) جريدة السياسة : عدد يوم 31 مايو 1990م.

وهنا نريد أن نتساءل: من رأى أن
لحديث المشار إليه أعلاه موضوع
ومكذوب ثم حدث به نقلا عن الجامع
لصغير..؟ مع العلم بأن الشيخ المناوي
شارح الجامع الصغير لم يتعقبه بشيء
متنا وسندا حسب طريقته في (فيض
لقدير)، بالإشارة إلى ضعف الراوي أو
تهامه بالوضع في أخبار أخرى، فهل غاب
من الشيخ زين الدين المناوي المتوفى سنة
103هـ، أن الحديث المذكور موضوع..؟
ومع ذلك سكت عنه، فيكون بذلك أحد
لكذابين، وهو القائل في شرح حديث مسلم
لمتقدم: «ليس لراوي حديث أن يقول: قال
لرسول إلا إن علم صحته، ويقول في
لضعيف: روي أو بلغنا، فإن روى ما علم
و ظن وضعه ولم يبين حاله اندرج في
جملة الكذابين»(3).

أعيد السؤال: من رأى الحديث السابق
ذكر موضوعا وحدث به ولم يبين
حاله..؟: الدكتور العلوي المدغري وغيره
ن العلماء؟!. الحافظ السيوطي المتوفى
سنة 911هـ مؤلف الجامع الصغير أحد
معاجم المشهورة في السنة المشرفة منذ
قرن العاشر الهجري؟!. من أيضا...؟
حافظ ابن النجار المتوفى سنة 643هـ.
ذي رواه عن شيخه الذي سيأتي الكلام
نه، والذي كان موضع المناقشة؟!. كيف
يصح أن نتهم من ذكرنا بأنهم حدثوا بحديث موضوع تحرم روايته وهم أول من يعلم الحديث المتفق عليه: «من كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار». كيف يجوز ذلك؟!. وكيف يسوغ لنا أن نسيء الظن في هذا المقام والله عز وجل يقول: ﴿**إن بعض الظن إثم**﴾..؟

والذي نراه هو أن من حدث بالحديث المذكور أو دونه أو احتج به، إنما فعل ذلك عن حسن نية وقصد جميل واعتقاد صحيح بأن الحديث وارد وثابت. ولم يصل إلينا فيما علمنا أن أحدا من العلماء اعترض عليه ـ قبل الأستاذ ابن الصديق ـ أو وصفه بأنه ضعيف، فضلا عن موضوع.

والإمام المناوي شارح الحديث نفسه في فيض القدير لم يتعرض له كما قدمنا بأي شيء يوهم الضعف، فضلا عن الوضع كعادته في شرح أحاديث أخرى، فيقول: فيه فلان وهو ضعيف، أو هو متهم بالوضع، أو فيه فلان ضعفه فلان ووثقه فلان. وهذا هو منهجه في الشرح سواء في فيض القدير أو في مختصره المعروف بالتيسير. وعدم تعرضه لحديث ابن النجار بشيء جارح يدل على سلامة الحديث المذكور من أي طعن، خاصة وهو من شيوخ القرن العاشر، قرن مؤلف

المناوي : فيض القدير. 6/ 116 ـ ط. 2 ـ بيروت 1391 هـ 1972م.

الجامع الصغير، وهي طريقة سلفه أيضا شمس الدين العلقمي المتوفى سنة 969، تلميذ السيوطي، وأول شارح لجامعه في الكوكب المنير.

فإذا كان العلماء قد اتفقوا على تقسيم الحديث النبوي حسب رواته في العدالة والضبط والاستقامة إلى ثلاثة أقسام هي: الصحيح، والحسن والضعيف، واتفقوا على الاحتجاج بالصحيح والحسن، وتحفظوا في الضعيف ما لم يرد ما يقويه ويعضده رواية ودراية. واحتاطوا من الحكم على حديث ما بالضعف قبل التأكد من سبب من أسباب التضعيف المبسوطة في مصنفات مصطلح الحديث، وتساهل بعضهم في العمل بالضعيف في الفضائل والآداب مالم يتعارض مع نص أو دليل أقوى منه من الكتاب أو السنة المتواترة، فإن الحديث الموضوع ليس قسما رابعا من أقسام الحديث الثلاثة المذكورة، لأنه كما قال السيوطي في تدريب الراوي: «ليس في الحقيقة بحديث اصطلاحا، بل بِزَعْمِ واضعه».

والأصل في الموضوعات أن الروافض والزنادقة وأهل البدع والأهواء وضعوا عدة أحاديث نسبوها إلى رسول الله ﷺ كذبا واختلاقا. وحذر العلماء من الرافضة بصفة خاصة. قال أشهب بن عبد العزيز القيسي من أصحاب الإمام مالك: «سئل مالك رحمه الله عن الرافضة فقال: لا تكلمهم ولا ترو عنهم، فإنهم يكذبون»(4). وقال شريك بن عبد الله النخعي من أصحاب الإمام أبي حنيفة: «أحمل العلم عن كل من لقيت إلا الرافضة، فإنهم يضعون الحديث ويتخذونه دينا»(5).

وقد اكتشف النقاد الأحاديث الموضوعة في الوقت المناسب، وتعقبها المحدثون على ضوء الأسباب الدقيقة والقواعد العلمية المختصة بنقد الحديث، وبينوا ذلك وكتبوا فيه، ونبهوا عليه في مصنفات علوم الحديث. فإذا ثبت بالأدلة القاطعة على أن الحديث موضوع، فلا يلتفت إليه، ولا تحل روايته، فضلا عن الاحتجاج به، سواء في التشريع أو في الفضائل.

ولكنهم حذروا من التسرع بإصدار حكم على حديثٍ مَا بالوضع إلاَّ بعد دراسته متنا وسندا، دراسة متأنية وفق ما قرره علماء مصطلح الحديث من القواعد، والأسباب الدالة على الوضع، وفي مقدمتها: كذب الراوي أو تهمته بالكذب. كما قال الحافظ ابن حجر في بيان الموضوع، قال: «الطعن بكذب الراوي في الحديث النبوي هو: الموضوع. والحكم عليه بالوضع إنما هو بطريق الظن الغالب، لا بالقطع، إذ قد

4) ـ 5) ابن حجر : لسان الميزان 1/ 10 ـ ط. 2 ـ بيروت 1390هـ ـ 1971م.

يصدق الكذوب...»(6). وقال الإمام ابن السبكي في جمع الجوامع بشرح الجلال المحلي ما نصه: «سبب الوضع نسيان من الراوي، أو افتراء عليه ﷺ، كوضع الزنادقة أحاديث تخالف المعقول، تنفيراً للعقلاء من الشريعة المطهرة، أو غلط من الراوي...».

ويمكن تلخيص ماقرره العلماء في ذلك مما جاء في نخبة الفِكَرِ لابن حجر وغيرها:

أن يكون الراوي مشهورا بالكذب لا يتورع عن وضع الحديث لأغراض شخصية أو مذهبية.

أن يعترف الوضاع نفسه باختلاق الحديث، أو يكون المروي مخالفا للعقل. أو يكون متناقضا مع الكتاب، أو السنة المتواترة، أو الاجماع القطعي، أو يكون فيه لحن في العبارة أوركة في المعنى(7).

وقال الإمام ابن الجوزي: «إذا رأيت الحديث يباين المعقول، أو يخالف المنقول، أو يناقض الأصول، فاعلم أنه موضوع»(8).

وتجدر الإشارة إلى أن الدكتور محمد حسين هيكل في كلامه على الحديث نقل عن ابن خلدون مانصه: «أن من علامة الحديث الموضوع: مخالفته لظاهر القرآن، أو القواعد المقررة في الشريعة، أو البرهان العقلي، أو للحس والعيان وسائر اليقينيات. قال هيكل: وهذا المقياس الذي ذكره ابن خلدون، يتفق مع قواعد النقد العلمي الحديث أدق اتفاق»(9).

ولا يجوز تجريح رجل بمجرد المظهر والظن ﴿**إن بعض الظن إثم**﴾ كما في الآية، بل لابد من التثبت من الأحوال النفسية والمذهبية للراوي. وخاصة في اتهامه بالوضع، فلا يصح إلا بدليل قاطع، وفي حالة التردد فالتوقف تورعا أولى، ونسبة الخبر إلى راويه أسلم. قال ابن حجر: «وأما من جهل حاله ولم يعلم فيه سوى قول إمام من أئمة الحديث أنه ضعيف، أو متروك، أو ساقط، أو لا يحتج به، فإن القول قوله، ولا نطالبه بتفسير ذلك...»(10) وقوله هذا حكيم جدا، بل هو يزداد تحفظا حين قال: «وممن ينبغي أن يتوقف في قبول قوله في الجرح من كان بينه وبين من جرحه عداوة سببها الاختلاف في الاعتقاد»(11).

ويبالغ الحافظ في التحفظ من الجرح حتى في الخطأ والوهم، فالذي أخطأ في حديث أو وهم أو تفرد «لا يكون ذلك

) شرح نخبة الفكر : ص 19 وما بعدها ط 1352هـ ـ 1934م ـ مطبعة الحلبي بمصر.
) ـ 8) الدكتور صبحي الصالح : علوم الحديث ومصطلحه ص263 وما بعدها، وص273 وما بعدها ـ ط 4 دار العلم ـ بيروت.
) الدكتور هيكل : حياة محمد. ص 51 ـ ط 9 بالقاهرة.
1) ـ 11) ـ 12) لسان الميزان ج 1 ـ ص 15 و16 و17.

جرحا مستقرا ولا يرد به حديثه، ومثل هذا إذا ضعف الرجل في سماعه من بعض شيوخه، فلا ينبغي أن يرد حديثه لكونه ضعيفا في ذلك الشيخ... ـ وحتى في الشاذ يقول ـ لا يخرج الرجل عن العدالة، لأنه ليس بمعصوم من الخطإ والوهم، إلا إذا تبين له خطأه فأصر عليه»(12). فكم من عالم جرح لسبب من الأسباب المذكورة، وخاصة فيما يتعلق بالاختلاف في الاعتقاد والمذهب، كما حدث للعلامة القاضي عبد الكريم السمعاني المتوفى سنة 563، حيث جرحه معاصره العلامة الناقد أبو الفرج ابن الجوزي المتوفى سنة 597، إذ رماه بالكذب والتدليس، فتصدى العلامة المؤرخ عز الدين ابن الأثير ـ صاحب الكامل ـ لِرَدِّ فِرْيَة ابن الجوزي عن السمعاني ووثقه. وقال: إنما جرحه لاختلافهما في المذهب، فالسمعاني شافعي المذهب، وابن الجوزي حنبلي المذهب(13). وابن الجوزي مشهور بمصنفه في (الموضوعات) ولكن المحدثين اعتبروه متطرفا لِتَسَرُّعِهِ في الحكم بالوضع، حتى قيل لا عبرة بموضوعاته. فقد توهم رحمه الله أن بعض الأحاديث الصحيحة والحسنة موضوعة، فتعقبه ابن حجر، وبين سلامتها من الوضع في كتابه «القول المسدد في الذب عن المسند»، كما تعقبه السيوطي ووصفه بالتسرع، وصنف كتابه «اللآلي المصنوعة في الأحاديث الموضوعة». وقَبْلَ السمعاني قدح بعض العلماء في محمد بن إسحاق صاحب السيرة النبوية المتوفى سنة 151، قدحوا فيه بالكذب والتدليس والتشيُّع، فلم يقدح قولهم في عدالته بعد أن وثقه آخرون، منهم الإمام البخاري في تاريخه، واستشهد به مسلم في صحيحه، وروى له أصحاب السنن الأربعة، وذكره الخطيب البغدادي بسيد المحدثين، ووثقه ابن سيد الناس الأندلسي في عيون الأثر، كما وثقوا أبا عبد الله الواقدي المتوفى سنة 207، صاحب الطبقات. وقد قدح فيه كذلك بعض المحدثين بالكذب، واتهموه بوضع الحديث، وقالوا: هو متروك الحديث، ولكن ابن سيد الناس، فند كل هذه الأقوال، ثم قال: كثيرا ما يطعن في الراوي برواية من أنكر تلك الرواية عليه واستغربها منه، ثم يظهر له ولغيره بمتابعة، أو سبب من الأسباب، براءته من مقتضى الطعن. «عيون الأثر 1/20» وإنما قدمنا السمعاني لأنه أقرب.

ونستنتج مما قدمنا، أن قضية الجرح قضية شائكة وخطيرة، يجب التحفظ منها، وخاصة في الحكم بالوضع أو الاتهام به، إذ كيف يجوز ذلك بمجرد كلام قيل في شيخ لا ندري الأسباب الدافعة إليه، كما

13) د. صبحي : علوم الحديث ص 70 ـ 71.

وقع لابن النجار مع شيخه الذي سنتحدث عنه بعد قليل. فهل كان الشيخ رافضيا أو خارجيا أو زنديقا يستحق التجريح والحكم على حديثه بالوضع؟ أم كان مخالفا لمذهب تلميذه في عصر كانت فيه الخلافات المذهبية تؤدي إلى الطعن في عدالة الرجل وثقته كما وقع للإمام السمعاني فيما تقدم؟. أم كانت بين الشيخ وتلميذه منافرة وسوء تفاهم أدى بابن النجار إلى وصف شيخه بما وصف؟. إنها احتمالات تدعو إلى التأمل قبل إصدار الحكم. والاحتمال الأخير في نظرنا أقوى، لأنه من عادات بعض الطلاب مع بعض شيوخهم!... أما حديث ابن النجار، فنؤجل الكلام عنه إلى نهاية الكلام عن شيخه.

هذا الشيخ رحمه الله ــ قال الأستاذ ابن الصديق ـ هو : «عبد الله بن المبارك بن إبراهيم ابن مختار المعروف بابن السبي». وفيه تحريف بارز في اسم الشيخ، فهو «عبيد الله» بالتصغير لا «عبد الله»، ولو تركناه كما ورد في النقد، ربما وقع الإشكال بينه وبين شيخ الإسلام الحافظ عبد الله بن المبارك المروزي المتوفى سنة 181هـ. وخاصة لمن لا يبحث في أسماء الرجال، فيكتفي باسم عبد الله بن المبارك، وهذا تضليل ربما بعث على سوء الظن عن غير قصد بشيخ الإسلام المذكور، فوجب التنبيه عليه. أما شيخ ابن النجار فهو «عبيد الله» وقد ذكره ابن حجر في لسان الميزان في باب «من اسمه عبيد الله». وقال في ترجمته ما يلي:

«عبيد الله بن المبارك بن إبراهيم بن المختار بن السبي، توفي سنة 619. قال ابن النجار: طلب واجتهد مع قلة فهم، ثم ترك ذلك وزهد فيه، وباع أصوله، ثم سمع ورجع إلى سماع الحديث في علو سنه، وبذل مالا حتى قبل ابن الدامغاني عبد الله بن الحسن القاضي شهادته، وكان سيء الطريقة في الحديث»(14).

هذا ما نقله ابن حجر بنصه، ولم يتعقبه بشيء تورعا، وهو رحمه الله ناقد نزيه وملتزم، وهنا نلاحظ في كلام ابن النجار كما نقله ابن حجر، أنه لم يقل ما نسبه إليه الأستاذ ابن الصديق من أنه: «غير ثقة، واشتغل بما لا يليق بأهل الدين، وكان سيء الطريقة في شهادته، يشهد بالزور بحطام يسير، ولم يكن محمود الطريقة في الحديث ولا مامونا... وقد نقل ابن حجر في لسان الميزان 111/4 كلام ابن النجار هذا في شيخه». كلام الأستاذ ابن الصديق بنصه لم يذكره ابن حجر نقلا عن ابن النجار، وإنما ذكر ما نقلناه في النص السابق باللفظ والحرف من لسان الميزان (ج4 ـ ص 111 ـ ترجمة 266)، ولو

---

14) لسان الميزان : ج 4 ص 111 ترجمة 226.

شاء ابن النجار أن يقول صراحة: إن شيخه غير ثقة إلى آخر ما قاله سيدي عبد العزيز لقاله، ولو كان قاله، لنقله ابن حجر، فهل كان الناقد يفسر كلام ابن النجار، وهو تفسير مغرق في الغلو والتطرف؟! فلو كان نقل ما ذكره ابن حجر بنصه لكان أنسب، وتلك هي مهمة الناقد، وله أن يعلق بعد ذلك بما شاء. ولكننا إذا تفهمنا ما نقله ابن حجر عن ابن النجار في شيخه عبيد الله، لوجدناه كلاما قد ينطبق على كثير من الرجال المشهورين بالثقة، لأنها أحوال إنسانية ونفسانية معلومة، والمدار فيها على النية ﴿**وإنما الأعمال بالنيات**﴾. نعم قال: «كان سيء الطريقة في الحديث» ولكنه لم يقل «كان سيء الحفظ» فيجرح بسوء الحفظ كما في المصطلح، ويعد بذلك في الضعفاء، لأن الفرق بين الطريقة والحفظ واضح تربويا ونفسيا كما لا يخفى. ولو كان في المتروكين أو الكذابين والوضاعين لصرح بذلك، لأن المحدثين دأبوا على وصف علة القدح بكل وضوح وبدون التواء، فمن لم يوثق وضعف بقادح ـ كسوء الحفظ لا الطريقة ـ يقال فيه: متروك، أو متروك الحديث، أو واهي الحديث، أو ساقط، ومن اتهم بالكذب يقال فيه: متهم، ومتهم بالكذب. ومن وصف بالكذب والوضع يقال فيه: كذاب أو وضاع(15). وكبار النقاد من المحدثين يردون الجرح إذا لم يبين سببه بيانا شافيا، اعتقادا منهم بأن الناس يختلفون في إسقاط العدالة بأدنى سبب، وإن لم يكن موجبا لرد الحديث ولا مسقطا للعدالة(16).

ومما تقدم، نرى أن ابن النجار تجنب كل صيغة اصطلاحية في تجريح عبيد الله، مما دل على أنه لم يقصد تضعيف شيخه، فضلا عن تكذيبه، فضلا عن اتهامه بوضع الحديث. وإذن فالشيخ عبيد الله يعتبر بريئا علميا مما جرح به.

أما الحديث الذي روي عنه، فلا دليل فيه أيضا لفظا ولا معنى، على أنه وضع للتملق والاستجداء، وليس في ألفاظه ما ينكر أو لا يعرف. وقد نقل الإمام الشاطبي في الموافقات ما أخرجه الإمام الطحاوي المتوفى سنة 321، عن أبي هريرة عن النبيﷺ: «إذا حدثتم عني حديثا تعرفونه ولا تنكرونه، فصدقوا به، قلته أو لم أقله، فإني أقول ما يعرف ولا ينكر، وإذا حدثتم عني حديثا تنكرونه ولا تعرفونه، فكذبوا به، فإني لا أقول ما ينكر ولا يعرف(17). وبما أن حديث ابن النجار عن شيخه ليس فيه ماينكر ولا يعرف،

---

15) ـ 16) د. صبحي الصالح :علوم الحديث ص 137 وص 133.

17) الموافقات 4/ 233.

فهو إذن حديث وارد، ويزكي معناه ماورد في سورة النساء من قوله تعالى: ﴿**يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم...**﴾ الآية: 59.

وانظر تفسير الحافظ ابن كثير مثلا وغيره لهذه الآية، وما استشهدوا به فيها من أحاديث في أولى الأمر، مما لا يخالف معنى الحديث المتناقش فيه. قال ابن السبكي: «كل خبر عنهﷺ أو هم باطلا ولم يقبل التأويل، فمكذوب عليهﷺ لعصمته عن قول الباطل». والخبر المذكور في أول هذه الحاشية قابل للتأويل، ولا يوهم باطلا على الإطلاق.

ومما أشرنا إليه، نستنتج أن حديث ابن النجار المذكور هو حديث «حسن لغيره» لأن المحدثين قسموا «الحسن» إلى حسن لذاته، وحسن لغيره، والحسن لغيره «حسن» ولم يخطىء من رمز له بالحسن، لأن متنه معضد بروايات أخرى تتابع لفظه أو تشهد لمعناه، لا مجال لذكرها في هذه الحاشية.

هذا ويستفاد من المناوي في التيسير، والعلقمي في الكوكب المنير، أن مؤلف الجامع الصغير هو الذي وضع رموز كتابه لا غيره، وسبق أن ذكرنا أن العلقمي هو تلميذ السيوطي، فزال بما ذكر الإشكال في مسألة الرموز، كما انتفت أيضا شبهة الوضع في حديث ابن النجار.

وعلينا أن نلفت النظر إلى أن بعض المستشرقين، اتخذوا الأحكام المتسرعة بالوضع، لتشكيك الأمة الإسلامية في مقدساتها، وثقافتها. نذكر منهم:

دوزي DOZY (ت: 1884 م)، الذي عبر عن تشككه حتى في الروايات الصحيحية، زاعما أن نصف صحيح البخاري على الأقل تتخلله الموضوعات والمكذوبات(18).

وغولدزيهر GOLDZIHER (ت: 1921م) الذي وصم السنة كلها بالاختلاق والوضع على ألسنة الذين لم يجمعوا منها إلا ما يوافق أهواءهم، ويعبر عن آرائهم، ووجهات نظرهم في الحياة(19).

وتبعهما في ذلك أتباع من الملحدين والزنادقة، الذين لا يخلو منهم زمن ولا مكان.

فهل تعاد الكرة من جديد لتشكيك المسلمين في ثقافتهم وعقيدتهم على حساب الوضع والموضوعات وجرح السلف من المومنين، بعد أن فرغ من ذلك فطاحل العلماء وجهابذة المحدثين في القرن العاشر الهجري، ومنهم جلال الدين السيوطي، صاحب الجامع الصغير، الذي يعتبر مجدد عصره رحمه الله؟!.. ذلك ما لا ينبغي أن يكون!. فالقوم ــ كما قال ابن خلدون ــ أحق الناس بالظن الجميل بهم، والتماس

---

18 ــ 19) د. صبحي الصالح : علوم الحديث. ص 34 ــ 35.

المخارج الصحيحة لهم(20).

ووجهة نظرنا فيما تقدم من مناقشة حديث ابن النجار، هو ما قاله الإمام ابن عبد البر القرطبي المتوفى سنة 463، من أن قول العلماء بعضهم في بعض لا يوخذ به، في كلام طويل من كتابه: (جامع بيان العلم وفضله)(21) نقتطف منه ما يلي:

روى ابن عبد البر بسنده، عن الزبير بن العوام، أن رسول الله ﷺ قال: «دب إليكم داء الأمم قبلكم، الحسد والبغضاء، البغضاء هي الحالقة، لا أقول تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين. والذي نفس محمد بيده، لا تدخلوا الجنة حتى تومنوا، ولا تومنوا حتى تحَابُوا، ألا أنبئكم بما يثبت ذلك لكم، أفشوا السلام بينكم».

وبسنده عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: «استمعوا علم العلماء، ولا تصدقوا بعضهم في بعض، فوالذي نفسي بيده، لَـهُمْ أشد تغايرا من التيوس في زربها».

وبسنده عن مالك بن دينار: «يؤخذ بقول العلماء والقراء في كل شيء، إلا قول بعضهم في بعض، فإنهم أشد تحاسدا من التيوس...».

وبسنده عن عبد العزيز بن حازم قال: «سمعت أبي يقول: العلماء كانوا فيما مضى من الزمان، إذا لقي العالم من هو فوقه في العلم، كان ذلك يوم غنيمة، وإذا لقي من هو مثله، ذاكره، وإذا لقي من هو دونه، لم يَزْهُ عليه، حتى كان هذا الزمان. فصار الرجل يعيب من هو فوقه، ولا يذاكر من هو مثله، ويزهى على من هو دونه، فهلك الناس».

قال أبو عمر: «...أن السلف رضوان الله عليهم، قد سبق من بعضهم في بعض كلام كثير في حال الغضب، ومنه ما حمل عليه الحسدكما قال ابن عباس ومالك بن دينار وأبو حازم، ومنه على جهة التأويل، مما لا يلزم القول فيه ماقاله القائل فيه. وقد حمل بعضهم على بعض تأويلا واجتهادا، لايلزم تقليدهم في شيء منه دون برهان ولا حجة توجبه».

وفي نظرنا، أن ماوصف به عبيد الله بن المبارك من طرف تلميذه، ولم يشاركه فيه أحد إلا ما حكاه عنه ابن حجر بدون زيادة ولا تعقيب، فإن ذلك من باب قول العلماء بعضهم في بعض لا يوخذ به، كما أن القول بوضع الحديث المتناقش فيه قول متسرع لا يقوم على الأسس العلمية في نقد الحديث.

والله يقول الحق، وهو يهدي السبيل.

تطوان ـ محمد العربي الشاوش

---

20) عبد الرحمن بن خلدون : المقدمة. ص 421 ـ ط 3 / سنة 1320هـ المطبعة الأميرية ببولاق مصر.

21) يوسف بن عبد البر : جامع بيان العلم. 2/ 184 وما بعدها ـ دار الفكر ـ بيروت.

المادة والروح

للأستاذ محمد الحجوي الثعالبي
مدير التعليم الأصيل بوزارة التربية الوطنية
أمين المجلس الأعلى للمجالس العلمية بالمملكة

يتسم عصرنا الحاضر بطغيان المادة على الروح، ويتميز بالْبَوْنِ الشاسع لموجود بين تقدم الإنسانية في الميدانين: لمادي والروحي.

فبينما نرى الإنسان قد قطع أشواطا ـدهشة في محيط الاختراعات، واستطاع ما حصل عليه من مكنونات العلوم لرياضية والطبيعية أن يَسْبُرَ غور لبحار، ويحلق في أعلى طبقات الجو، يسيطر على الطاقة الكامنة في الذرة، يضع قدمه على القمر، ويطمع في احتلال لزهرة وغيرها من الكواكب السيارة، أقول: ينما نراه قد بلغ هذه الدرجة الممتازة في لحضارة المادية، وظفر بهذه النتائج لمدهشة، نجده لا يتقدم من الناحية لروحية، بل يسير القهقرى بسرعة مزعجة قلق كل ذي ضمير حي.

ذلك لأن الإنسان أهمل الجانب الروحي فيه، وأقبل على الجانب المادي بكل قواه، فحدث حتما عدم توازن بين الجانبينْ، يشكل خطرا عظيما على الإنسانية، ولا يمكن أن يؤدي إلا إلى كارثة!

فهذا المشكل العويص هو موضوع عرضنا الذي سيشمل ثلاثة أقسام:

ــ قسم يتناول بحثا مفصلا في المادة وأسرارها.

ـ وقسم يشتمل على تأملات في الروح وكنهه.

ــ وقسم يعالج مشكلة التعادل بين المادة والروح.

I) ـ المادة وأسرارها

إذا ألقينا نظرة على ما حولنا من المخلوقات بجميع أنواعها، وجدنا أنها تنقسم إلى قسمين كبيرين:

الكـائنات الحيـة، والكـائنات الجامـدة، وكلاهما مركب من المادة.

فما هي المادة ياترى؟

المادة هـي «التراب» الـذي خلقـت منـه الأرض وما فـوقها من كائنات حيـة، وما تشتمل عليه في باطنها مـن عناصر معدنية مختلفة الأشكال والألوان، قال تعالى:

﴿منهـا خلقنـاكم، وفيهـا نعيـدكـم، ومِنْهَا نخرجكم تارة أخرى﴾.

والضمير هنا يعود على الأرض: فكل ما خلق اللـه من بشر وحيوان ونبات مـركب من التراب، ويقتات مـن التراب، ويعود إلى التراب فالكل إذن تراب في تراب!

ويقـول علماء الطبيعة: إن الكميـة التي خلقت أول الأمـر مـن العنـاصر الماديـة لا تزيد ولا تنقص، فلا شيء يضيع منها، ولا شيء يـزاد عليهـا، وإنما هنـاك تحولات وتقلبات من هيئة إلى هيئـة، ومن حالة إلى حالة.

فهـذا الـذي أوجـده اللـه يـوم خلـق السماوات والأرض لا تـزيـد كميتـه ولا تنقص، وإنما يتحول تـارة إلى بخار وتارة إلى جليد، وتارة يسيل على وجه الأرض أو يجتمع تحت طبقـاتها ليتفجر منها ينـابيع وعيونـا، فهو في حركة دائبـة وتطور دائم من حالة الجمـود إلى حالة السيلان أو إلى حالـة البخار المتصـاعد في الفضـاء المكون للسحب والغمام منبع المطر والبرد والثلوج المتساقطة على سطح الكرة الأرضية.

على أن عنـاصر المادة قليلـة العـدد بالنسبة لتنوع الكائنات واختلاف أشكالها، ولنضرب لذلك مثلا بسيطا:

فهذا الهواء الذي يمـلا الفضاء يبدو في شكله وكنهـه بعيدا كل البعـد عن الماء من حيث خصـائصه ومميزاتـه، لكن الفحص العلمي أثبـت أنـه يشبه الماء في تـركيبـه، فبينما نجـد الماء مـركبـا مـن عنصر الأكسجين وعنصر الهيـدروجين، نجـد الهواء مـركبـا من نفـس عنصر الأكسجين مع عنصر الأزوط.

وما قيل عن الماء والهواء يمكن أن يقال عن باقي الكائنات، فالعناصر المادية قليلة، وأنواع الكـائنات كثيرة، والشيء الـذي يميز بينهـا هو نسبـة هـذه العناصر في الكـائن وامتزاج بعضها ببعض...

وسواء أكانت المخلوقات حية أم جامدة، سائلة أو غازيـة أو متجمدة، فإنها مركبة من المادة وعلى الشكـل الذي نتطـرق الآن لشرحه وتوضيحه:

1) ـ **الكائنات الحية :**

يتركـب جسم الكـائن الحي مـن عـدة أعضـاء، وتتركـب الأعضـاء مـن أنسجـة تختلف بـاختـلاف الأعضـاء وبـاختـلاف المهام التي تقوم بها في محيط الجسم.

وكل نسيـج يتركب مـن خلايـا دقيقـة متصلة بعضهـا ببعض، متنوعـة الأشكال

الأنواع والأحجام بحسب النسيج الذي
كونه. وهذه الخلايا متناهية في الصغر
حيث لا ترى بواسطة العين المجردة وإنما
واسطة المجهر الذي يكبرها اضعاف
ضعاف المرات، ويكفي لنتصور مقدار
صغرها أن نعلم أن الجسم البشري
يشتمل على أكثر من مائة مليون مليار
لية!

وقد يتبين من دراسة كل خلية على
حدة أنها ليست أصغر جزء في جسم
لكائن الحي، بل إنها بدورها تنقسم إلى
لاثة أقسام:

1 ـ نواة قاتمة اللون تقع وسط الخلية.

2 ـ مادة مائعة تدعى «بروطو بلا زما»
حيط بالنواة.

3 ـ غلاف دقيق جدا يكتنف الجميع
يفصل الخلية عن جاراتها.

فأصغر جزء معروف إلى حد الساعة في
ركيب الكائن الحي هو إذن النواة.

2) **الكائنات الجامدة :**

تتركب الجمادات من مواد كان يظن أن
صغر أجزائها هي الذّرة، وقد سماها
لماء العرب بالجوهر الفرد، غير أنه
كتشف خلال الحرب العالمية الأخيرة أن
ذرة ليست أصغر جزء في المادة، بل إنها
ورها متركبة من أجزاء مختلفة، وهذه
أجزاء تحاكي أجزاء الخلية التي وصفناها
لاه:

فالذرة تحتوي على نواة مركزية.

وحول النواة تدور أجسام دقيقة للغاية تدعى «إليكترونات» وهي محملة بشحنة كهربائية سلبية.

على أن النواة نفسها إنما هي مجموعة من أجسام محملة بشحنة كهربائية موجبة تدعى «بروطونات» وأخرى غير محملة بشحنة كهربائية تدعى «نوترونات».

فالاليكترونات تدور كما قلنا حول النواة بسرعة تزيد وتنقص، وهذه السرعة هي السبب في تماسك أجزاء المادة بعضها ببعض، ويقول العلماء: إنه كلما زادت هذه السرعة إلا وزادت المادة صلابة: فسرعة دوران اليكترونات الهواء مثلا أقل من سرعة دوران اليكترونات الماء التي هي بدورها أقل من سرعة دوران اليكترونات الحديد، وهكذا...

ويقول العلماء من جهة أخرى: إنه يمكن فصل أجزاء الذرة بعضها عن بعض، وإنه ينتج عن هذه العملية طاقة عظيمة هي ما يسمى بالطاقة الذرية أو الطاقة النووية.

ولا مجال هنا للتحدث بتفصيل عن تجزئة الذرة وعن الطاقة الكامنة فيها واستخدامها لصالح البشرية أو لطالحها، فهذا باب متشعب الجوانب نتركه لمن يعنيهم أمره، ولكن لا ينبغي أن يفوتنا أن

نذكر هنا أن معرفة كنه الذرة والخلية خليق بأن يحملنا على مقارنة عجيبة:

إن العوالم العليا مركبة من أجرام متناهية في الكِبر وهي النجوم والكواكب السيارة التي تدور كلها حول الشمس وتكوّنُ معها ما يسميه علماء الفَلك بالمجموعة الشمسية أو النظام الشمسي، وكلنا نعرف عظمة حجم هذه الكواكب والنجوم وعظمة المسافات الفاصلة بينها:

فالشمس التي هي أقرب نجم إلى الأرض تبعد عن هذه الأخيرة بمائة وخمسين مليون كيلومتر، أما النجوم التي تتلألأ في السماء، فهي كلها شموس تبعد عن الأرض بمسافات مدهشة لا تقدر بالكيلومترات ولكن بالسنين النورية، على أساس أن النور يسير بسرعة ثلاثمائة ألف كلم في الثانية!

كما أن أحجام هذه الاجرام الفضائية تبهر العقول بكبرها المتناهي. فإذا اتخذنا الأرض قاعدة للمقارنة ـ مع المعرفة أن دائرتها تقدر بأربعين ألف كلم ـ وجدنا أن الشمس مثلا أكبر من الأرض بمليون وربع مليون مرة.

ـ والمشتري بألف وأربعمائة مرة.

وزحل بثمانمائة وخمس وستين مرة الخ...

أما القمر فهو أصغر من الأرض بخمسين مرة، ويبعد عنها بثلاثمائة وثمانين ألف كلم فقط!

ولنرجع الآن إلى الأرض لنرى ما هو حجم الذرة، ولذا لا يسعنا إلا أن نستعمل المقارنة مرة أخرى حتى يسهل علينا ما نريد بيانه:

فلنفرض أن لدينا ذرة وبرتقالة، ولنفرض أننا استطعنا أن نكبر الذرة حتى أصبحت في حجم البرتقالة، فماذا سيصبح حجم البرتقالة إذا أردنا أن تبقى نسبة الكبر ثابتة بينهما؟

إن البرتقالة ستصبح إذذاك في حجم الكرة الأرضية!

من هذه المقارنة يتضح لنا صغر الذرة المتناهي، ولكن تركيب الذرة رغم صغره المدهش يحاكي تركيب المجموعة الشمسية:

فالنواة هي بمثابة الشمس.

والإليكترونات بمثابة الكواكب التي تدور حول الشمس...

فاللانهائي في الكبر يحاكي اللانهائي في الصغر!

والذرة مجموعة شمسية، والعالم كله مجموعة ضخمة من المجموعات الشميسة فيالَهُ مِن صُنْعٍ مُحكَم! ويا له من صانع بديع! وما أصدق قوله تعالى: **﴿وكأيِّنْ من آية في السماوات والأرض يمرون عليها وهم عنها مُعْرِضون!﴾.**

(1) ـ الروح وكنهه

إذا كنا قد عرفنا بعض الشيء عن المادة، فإننا نجهل كل شيء عن الروح، الأمر الذي إن دل على شيء فإنما يدل على جهل البشرية وضعفها أمام عظمة الله وعلمه الواسع، قال تعالى:

﴿ولا يحيطون بشيء من عِلْمِهِ إلا بما شاء﴾.

فكل ما نعرف عن الروح أنه منبع الحياة والحركة والنشاط والنمو. فالكائن الحي يتحرك ويحس وينمو، بينما الكائن الجامد لا يتحرك ولا يحس ولا ينمو.

ان الجسم والروح حقيقتان متميزتان تمام التميز، ففي حين أن الأول يشغل حيزا وله طول وعرض وعمق، فلا حيز للثاني مطلقا، وخاصيته الوحيدة هي التفكير، ومن أجل هذا كان شعورنا به وإدراكنا مباشرا، فإن الفكر لا يحتاج إلى واسطة في فهم ذاته، ومادام الروح يفكر فهو موجود لأن تفكيره يساوي وجوده تمام المساواة، وليس تحديد الروح من الأمور الهينة، فقد كان مثار اختلافات كثيرة بين الفلاسفة الأقدمين ومبعث أخذ ورد طويلين بين أفلاطون وأرسطو بوجه خاص، ولم يكن ابن سينا بعيدا عن هذه الآراء المتباينة...

وقد جاء في الجزء الأول من كتابه «الشفاء» ما معناه:

«ان اختلاف هؤلاء الفلاسفة راجع إلى أن للروح أثرين ظاهرين هما الحياة والحركة من جانب، والإدراك من جانب آخر. ففريق بهره الأول وحاول تجريد الروح بواسطته فقط، وفريق آخر لم يفهم في طبيعته إلا الإدراك، وفريق ثالث رأى أن يجمع بين هذين الجانبين، ويراد بالفريق الأول كل أولائك الذين عدوا الروح مصدر الحياة والحركة الذاتية، فخلطوا بينه وبين الدم الذي إن سفح كان الموت، وأما الفريق الثاني فيعتقد أن الشيء لا يدرك سواه إلا إذا كان مبدأ له ومتقدما عليه، ولذلك عدوا الروح واحدا أو جملة من المبادىء التي يختلف نوعها وعددها تبعا للفلاسفة، فظنوا أنه نار أو هواء... وأما الفريق الأخير فيرد الروح إلى العدد لأن الأعداد مبدأ الوجود والحركة والإدراك...».

وقد سئل النبيﷺ عن الروح فنزل قوله تعالى:

﴿ويسألونك عن الروح، قل الروح من أمر ربي، وما أوتيتم من العلم إلا قليلا!﴾.

فالروح إذن من أمر ربي!.. وأمر ربي شيء يتجاوز الطاقة البشرية ويتعدى نطاقها، فلا قدرة لها عليه ولا حول...

ومهما يكن من شيء فإننا نستطيع أن نجزم أن الروح ليس شيئا سوى نفخة من روح الله عز وجل، قال تعالى في الكلام عن

أبينا آدم عليه السلام يخاطب الملائكة ﴿**فإذا سويته ونَفَخْتُ فيه من روحي فقعوا له ساجدين**﴾.

وغير خاف أن الروح ينفصل عن الجسد إما موقتا وإما نهائيا: ينفصل عنه نهائيا في حالة الموت، وموقتا في حالة النوم، فحِيَن ينام المرء يغادر الروح جسده، ثم لا يلبث أن يعود في لمح البصر عندما يوقظ أو يستيقظ صاحبه، لذا فإن النائم يشبه الميت مع هذا الفرق أن النائم لا ينقطع تنفسه وإنما يعتريه بطء، وهذا البطء يتعدى تنفسه إلى جميع أجهزته الداخلية وخصوصا الجهاز الدموي فتنخفض درجة حرارته شيئا ما، وهذا ما يدعو النائم إلى أن يتغطى بغطاء يقيه البرد، والدليل على أن النوم نوع من الموت قوله تعالى: ﴿**وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى...**﴾.

وقوله في آية أخرى:

﴿**الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها، فيمسك التي قضى عليها الموت، ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون**﴾.

ولا احتاج أن أذكر أن الروح خالد لا يفنى، لأنه عن روح الله الخالد، وأن الإنسان إذا مات انقلب جسده ترابا، بينما ينتقل روحه إلى البرزخ حيث يمكث إلي يوم البعث والنشور.

ومجمل القول أننا لا نعرف عن الروح إلا علاماته وخصائصه، أما عن حقيقته وكنهه فلازلنا نتخبط في التأويلات والتخمينات، ومازلنا نتيه في ظلام دامس!

III) ـ التعادل بين المادة والروح

ركب الإنسان من شيئين: المادة والروح.

فالمادة متجسمة في هيكله المكون من اللحم والدم، والروح الذي لا يتجسم في شيء هو المحرك لهذا الهيكل، المضفي عليه حياة وحيوية ونشاطا.

فجسم الإنسان إنما هو وعاء يحمل الروح ويحفظه، وقد اندمج أحدهما في الآخر وارتبط وجود الأول بالثاني ارتباطا متينا كليا حتى أنه لا يتصور وجود الروح بدون جسم، ولا يبقى للجسم معنى بعد أن يغادره الروح نهائيا.

فهذا الزواج بين المادة والروح يجعلنا نتساءل عن مدى انسجامها وعن سر ترابطهما في شكل الحيوان الناطق: الإنسان.

خلق الإنسان من لحم ودم وركبت فيه شهوة الطعام والشراب لكي ينمو جسمه ويقدر على الحركة الملائمة لحياته، فكان مضطرا للبحث عن غذائه الذي لا مناص

ـه منه ولا مفر، وأصبح بحكم ذلك مقيدا بالمادة خاضعا لضرورتها، ملتجئا إليها في حياته أحب أم كره.

فمشيئة الله أرادت أن يخلق الإنسان ضعيفا مفتقرا إلى رزقه اليومي، مثله في ذلك مثل الحيوان الأعجم، لكنه تعالى وهبه قبسا من نوره ميزه به عن الحيوان، ألا وهو العقل. وما العقل إلا ميزان جعل رهن إشارة الإنسان ليزن به الأمور ويميز به بين الحق والباطل، والصواب والخطأ، والخير والشر. فأصبح من المنطق أن يحسن الإنسان استعمال هذا الميزان وأن يحسن التصرف في الأمور بفضل عقله حتى يتميز عن الحيوان الأعجم الذي لم يوهب عقلا والذي لا يفرق بين الشيء وضده.

نعم، وهب الله الإنسان شعاعا من نوره، ونفخ فيه من روحه، وركبه من المادة الطاغية، وطلب منه أن يجعل عقله حكما بين جسمه وروحه في صراعهما العنيف المتسلسل مدى الحياة...

فهذه الشهوات والملذات والحاجات الملحة التي يدعو إليها الجسم دوما تحاول أن تسيطر على المرء وتجعله ينصرف إليها وحدها ويخضع لسلطانها ويزج بنفسه في تيارها الصاخب، دون أن يعير أي اهتمام للجانب الروحي، كأنه لم يخلق إلا من المادة وللمادة، بينما هو مركب من المادة والروح معا، وقبل كل شيء من الروح الخالد الذي يستوجب أكثر عناية وأكثر اهتمام.

وبما أن الجانب المادي في الحياة براق، يخطف الأبصار ويستهوي القلوب والأفكار، فإنه يكاد يحجب الجانب الروحي ويغطيه لولا نور العقل الذي قد يقاومه ويطارده ويصارعه صراعا مستمرا، ويشق لصاحبه طريقه الأمثل وسط الظلمات والأشواك والعراقيل...

فالإنسان إنسان بروحه قبل كل شيء، لذا يجمل به – إن عمل بموجب العقل والمنطق السليم - أن يهتم بروحه أكثر من اهتمامه بجسده، وأن يبحث عن كل ما من شأنه أن يغذي هذا الروح ويهذبه ويرتفع به عن الماديات وحقارتها وَيَحلق به في جو المعنويات التي هو منها وإليها.

أما إذا كبته وسجنه في بؤرة الملذات والشهوات والماديات، فإنه يكون قد أساء إليه وعذبه وحرمه من النمو والحرية والمرح في جوه الطبيعي، بينما أطلق العنان لنصفه الآخر حتى ترعرع وطغى على النصف الأول، فيصبح الإنسان بمثابة الحيوان الأعجم، ولو كان ناطقا عاقلا، بل في بعض الأحيان يصبح أحط منه وأخس حيث يستعمل عقله وذكاءه في الشر والسوء، فينزل إلى الحضيض، إلى أسفل سافلين، إلى آخر درجة في سلم المخلوقات الحية!

ولا أريد أن يفهم من كلامي هذا أن الإنسان يجب أن يكون ملكا، فالملائكة لم يخلقوا من المادة وإنما هم أرواح لطيفة تسير بنور ربها وتهتدي بهديه «يسبحون الليل والنهار لا يفترون...»، «لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يومرون»، وهبهم الله عقلا، وجردهم من الشهوة، فلم يشتغلوا إلا بما يناسب كيانهم الروحي، إنهم إذن مخلوقات من نوع خاص يكونون طائفة على حدة.

ويجرنا الكلام عن الملائكة إلى أن نستنتج مما تقدم أن الله جلت قدرته جعل المخلوقات الحية على ثلاثة أنواع:

1 ـ الملائكة.

2 ـ الإنسان.

3 ـ الحيوان.

وقد وضع الإنسان وسط هذا الثالوث العجيب، بين الملائكة والحيوانات فالملائكة وهبت عقلا ولم تركب فيها شهوة.

والحيوانات ركبت فيها الشهوة ولم توهب عقلا.

أما الإنسان فقد جمع بين العقل والشهوة، وطلب منه أن يغلب عقله على شهوته:

فإذا فشل فغلب شهوته على عقله كان أحط من الحيوان.

وإذا وفق فغلب عقله على شهوته كان أفضل من الملائكة، وهذا هو السر في كون الله تعالى أمر ملائكته بالسجود لآدم عليه السلام يوم نفخ فيه من روحه فسجدوا:

﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا﴾.

وما أمرهم الله بالسجود لآدم إلا لكونه خلق لأمر عظيم ولكونه عرضت عليه الأمانة العظمى فحملها وتكفل بها، قال تعالى:

﴿إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها واشفقن منها، وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المومنين والمومنات وكان الله غفورا رحيما﴾.

لقد خُلِقْتَ إذن أيها الإنسان لأمر عظيم، خُلِقْتَ لتحارب نفسك الأمارة بالسوء وترغمها على اتباع الطريق المستقيم، وتردها عن غيها كلما جمحت بك نحو الشهوات والملذات... خُلِقْتَ لتلج سبيل الله وتعكف على كل ما من شأنه أن يقربك من الله... خُلِقْتَ لتبحث عن ربك بالاطلاع على آياته، وبالتأمل والتفكير في مخلوقاته التي تتجلى فيها عظمته ووحدانيته وربوبيته... خُلِقْتَ لتعبد الله وتتعلق به وتملأ بحبه قلبك، وبذكره وقتك، وبخوفه نفسك... وهذا معنى قوله تعالى: **﴿وما خلقت الجن والإنس إلا**

ليعبدون، ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون، إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين﴾.

وقوله في آية أخرى:

﴿وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك، قال إني أعلم ما لا تعلمون﴾.

فابن آدم بحسب نص هذه الآية خليفة الله في أرضه، أي خُلِق ليسعى أن يكون صورة كاملة للفضائل والمثل العليا والقيم الروحية التي أوجدها الله وأحب أن يتصف بها الإنسان والتي بعث أنبياءه ورسله مبشرين بها وداعين إليها حتى إن نبينا محمداﷺ حصر دعوته في تتميمها فقال: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»!

وقال لما رجع من إحدى الغزوات:

«رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر!» يعني جهاد النفس!! ولعمري إن جهاد النفس لهو الجهاد الأكبر الذي يتطلب منك اليقظة والحذر والكفاح المستمر، ففي كل لحظة أنت مضطر لمواجهة أعدائك الأبديين: الشيطان والنفس والشهوة، وفي كل حين أنت مطالب بإرغام النفس، وكبت الشهوة، والصراخ في وجه الشيطان اللعين الذي يوسوس في صدرك ويغريك ويغويك ويخدعك!

أليس هذا الجهاد يتطلب صبرا وجلدا وعزيمة فولاذية لا يطيق بها إلا ذوو الإيمان الراسخ الذين يلجؤون إلى ربهم في كفاحهم، ويستمدون منه العون والنجدة، ويطرقون بابه في كل لحظة؟

لهذا ينبغي أن يكون الإنسان على اتصال دائم بمولاه في حياته الدنيا حتى يتغلب على نفسه ويستخدمها في طاعة الله ومرضاته، وتلك هي حكمة مشروعية الصلاةلله والصيام في الإسلام.

فيا خسارة من قطع الصلة بينه وبين مولاه! فإنه فقد كل عون وكل نجدة، وصار لا يستند إلى ركن، مثله كمثل الريشة الملقاة في العاصفة تتناقلها الرياح وتتلاعب بها التيارات!

على أن الإسلام ليس دين الزهد ولا الغلو، فهو يراعي في الإنسان الجانب المادي كما يراعي فيه الجانب الروحي، ولا يطلب من أتباعه أن يكونوا ملائكة معصومين، كما لا يسمح لهم بأن ينزلوا إلى مستوى البهائم العجماء، إنما يريد أن يكون الفرد إنسانا بكل ما في هذه الكلمة من معان سامية، جديرا بأن ينتسب إلى الإنسانية الحقة لا أقل ولا أكثر.

فهذا الدين الحنيف أباح لنا أن نتمتع بجميع أنواع الطيبات وجميع أنواع الزينة والتسلية البريئة الطاهرة، وعاب على من يحرم منها نفسه، فقال تعالى:

﴿قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق؟﴾.

لكن حرم علينا الخبائث والفواحش وكل ما من شأنه أن يفسد عقلنا وصحتنا أو يؤذي سلامة مجتمعنا وكياننا، كما نهانا عن الانخداع بزخارف الدنيا والانسياق في الماديات الخلابة...

فهذه مظاهر الحضارة الغربية البراقة استولت على المشاعر، وبهرت الألباب، وتيهت العقول، وسحرت العيون حتى أصبح الإنسان أسيرا لها، لا يعنيه شيء سواها، ولا يحلم إلا بالوصول إليها والتمتع بها ولو أدى به ذلك إلى التنكر للإنسانية، وللفضيلة، وللأخلاق!

فنجاة البشرية منوطة بتمسكها بالمادة والروح معا، أو بتعبير آخر بالعلم والدين معا، يقول الدكتور أحمد أمين في المعنى:

«الدين يبدأ حين ينتهي العلم. فالإسلام يومن بالعلم ويترك له حريته في دائرته، ويدعو إلى الدين والإيمان بعقائده في دائرته أيضا، والاكتفاء بأحدهما تقصير ضار.

وكان المسلمون الأولون يومنون بهما معا، ثم كفروا بالعلم فضلوا، والغربيون يومنون بالعلم فنجحوا في حياتهم الدنيا، وكفروا بالدين فضلوا.

ولا منجى من الضلال إلا بالإيمان بهما معا:

ففي الإيمان بالعلم حياة العقل.

وفي الإيمان بالدين حياة القلب.

ولا خير للإنسانية إلا بحياة العقل والقلب معا».

فالإسلام دين يوفق بين الدنيا والآخرة، وبين المادة والروح، ويامرنا أن نعطي لكل منهما حقه ونصيبه، دون أن يضر أحدهما بالآخر، ودون أن يطغى هذا الجانب على ذلك، ففي هذا وحده نجاة البشرية وسعادتها وتقدمها الحقيقي، وبهذا وحده نكون نحن المسلمين قد طبقنا تعاليم الإسلام على الوجه الأكمل، واهتدينا بهديه السليم، وسرنا في طريقه المستقيم، وأدينا رسالتنا الإنسانية أحسن الأداء. ويا حبذا لو رجعنا إلى مبادىء هذا الدين الحنيف التي تحثنا على أن نعمل للدنيا وللآخرة معا:

«اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا، ولآخرتك كانت تموت غدا»!

هذه هي النتيجة التي كنت أود أن أخرج بها من هذا البحث المتواضع، وحسبي أن أكون قد نبهت من الغفلة، وأيقظت من الغفوة، وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت، وإليه أنيب.

الرباط ـ محمد الحجوي الثعالبي

الإمام ابن عبد البر

في بعض مواقفه وآرائه

للأستاذ عبد القادر العافية
أستاذ بدار الحديث الحسنية

2

لقد تعرفنا في الحلقة الأولى على ما يهدف إليه ابن عبد البر من كلامه عن لقياس، وكيف يرد على نفاته، مع يقينه لراسخ أنه ضروري في حل المعضلات لتي تنزل بالفقيه المجتهد المؤهل لاستعمال القياس... ونراه بعد ذلك عقد ابا لما يلزم الناظر في اختلاف العلماء، وهل حقيقة ما يقال: إن اختلافهم رحمة؟!

يقول : «هناك أقوال كثيرة تقول : إن ختلاف العلماء من الصحابة والتابعين حمة». ويروي بسنده عن ابن القاسم ـه قال: «أعجبني قول عمر بن عبد عزيز رضي الله عنه أنه قال: «ما أحب أن سحاب رسول الله ﷺ لم يختلفوا، لأنه . كانوا قولا واحدا، كان الناس في ضيق، وإنهم أئمة يقتدى بهم، فلو أخذ رجل بقول أحدهم كان في سعة».

ويعلق ابن عبد البر على هذا الكلام فيقول: «هذا إن كان طريقه الاجتهاد» ومعناه: أن ابن عبد البر لايقول بمضمون كلام عمر بن عبد العزيز ولا يقبله على إطلاقه، بل يقيده بأن الاختلاف يكون رحمة بالنسبة لمن عرف الدليل، واقتنع به، أي أن الذي ينتفع بالأقوال المختلفة هو المجتهد لا المقلد، ومعناه كذلك أن الخروج عن المذهب لا يجوز إلا للمجتهد؛ حتى لايفتح الباب على مصراعيه، وتصير الأمور فوضى، ويتبع كل من أراد ما أراد.

ثم يقول : والاتباع من غير معرفة الدليل يروى معناه عن عمر بن عبد العزيز، والقاسم بن محمد، وعن سفيان

الثوري ـــ إن صح ـ وقال به قوم، ومن حججهم: قول النبي ﷺ «أصحابي كالنجوم فبأيهم اقتديتم اهتديتم».(1)

ثم يؤكد ابن عبد البر بأن هذا مذهب ضعيف عند جماعة من أهل العلم، وقد رفضه أكثر الفقهاء، وأهل النظر... ثم استدرك قائلا: «إن جماعة من أهل الحديث متقدمين ومتأخرين يميلون إليه».(2)

وبعد ما أتى بأدلة الفريقين، قال: «وأما مالك والشافعي ومن سلك سبيلهما من أصحابهما: كالليث بن سعد، والأوزاعي، وأبي ثور، وجماعة أهل النظر: إن الاختلاف إن تدافع فهو خطأ وصواب، والواجب عند اختلاف العلماء طلب الدليل من الكتاب والسنة والإجماع والقياس على الأصول منها، وذلك لا يعدم، فإن استوت الأدلة وجب الميل مع الأشبه بما ذكرنا من الكتاب والسنة، فإذا لم يتضح ذلك وجب التوقف، ولم يجز القطع إلا بيقين، فإن اضطر أحد إلى استعمال شيء من ذلك في خاصة نفسه جاز له مايجوز للعامة من التقليد...».

ويرى ابن عبد البر أنه عند إفراط التشابه والتشاكل وقيام الأدلة على كل قول بما يعاضده، فهنا لابد من الالتجاء إلى قول النبي ﷺ: «البر ما اطمأنت إليه النفس، والإثم ما حاك في الصدر، فدع ما يريبك إلى مالا يريبك».

وبهذا يسد ابن عبد البر الباب في وجه من يريد اتباع الأقوال والمذاهب المختلفة من غير معرفة دليلها، ويرى ابن عبد البر بأن الفقيه المجتهد إن ترجح لديه شيء مما يخالف مذهب إمامه فله أن يستعمل ذلك في خاصة نفسه، ولا ينصب نفسه مفتيا لغيره ما دام لم يطمئن إلى الدليل اطمئنانا مبنيا على مقارنة النصوص بعضها ببعض، وعلى معرفة طريقة ترجيح النصوص بعضها على بعض... وهذا سد لباب الفوضى، ووقوف في وجه اتباع كل الأقوال من غير فهم أدلتها، وما تستند عليه... وهذه مصيبة نكتوي بها في عصرنا الحاضر، وياليت الناس اتبعوا نصيحة ابن عبد البر في هذا المجال.

ونستخلص مما سلف، أن ابن عبد البر يرى أنه لايجوز الخروج عن المذهب إلا للمجتهد الذي يتوفر على شروط الاجتهاد، لا لغيره.

ونقل ابن عبد البر كلاما طويلا للبزار عن حديث: «إنما مثل أصحابي كمثل النجوم فبأيها اقتدوا اهتدوا».

---

1) جامع بيان العلم : ج : 2 ، ص : 87.

2) المصدر نفسه : ج : 2 ، ص : 87.

يقول ابن عبد البر: إن هذا الحديث لايصح عن النبي ﷺ فالبزار يقول: «إن هذا الحديث ضعف من قبل عبد الرحيم بن زيد؛ لأن أهل العلم قد سكتوا عن الرواية لحديثه، والكلام أيضا منكر عن النبي ﷺ، والذي روي عنه بإسناد صحيح، قوله ﷺ: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي فعضوا عليها بالنواجذ». يقول البزار: «وهذا كلام يعارض حديث عبد الرحيم لو ثبت، فكيف ولم يثبت».

ونرى ابن عبد البر ينتقد فهم البزار لهذا الموضوع، أي نفي الاقتداء بسائر الصحابة. ويقول في تأويل هذا الإشكال: «كل واحد منهم نجم جائز أن يقتدي به العامي الجاهل فيما يحتاج إليه من أمر دينه، وكذلك الأمر بالنسبة للعامة مع سائر العلماء بعد الصحابة، ومعناه: أن العامة لايجوز لهم الاجتهاد في اختيار المذاهب، وإنما عليهم في عصر الصحابة أن يقتدوا بهم، وفي عصر الصحابة أن يقتدوا بالعلماء.

فابن عبد البر يقف موقفا معتدلا، فهو لايبطل نجمية سائر الصحابة كما يفهم من كلام البزار، ولا يقلل من قدرهم، وإنما يفسر الاقتداء متى يكون؟ ومتى لا يكون؟

وهو بذلك يفهم النصوص فهما يتلاءم مع اعتداليته ورجاحة فكره.

وبعد هذا ننتقل إلى معرفة موقف ابن عبد البر من الصفات: فإذا كنا أشرنا إلى موقفه من القياس، ومن بعض قضايا الاجتهاد، فإننا نشير الآن إلى قضية أخرى ذات أهمية في الفكر الإسلامي، حيث شغلت الناس وقتا طويلا وكتبوا عنها الكثير...

يروي ابن عبد البر بسنده إلى أبي هريرة «ض» أن رسول الله ﷺ قال: «لاتقوم الساعة حتى تكون خصومات الناس في ربهم».(3)

ويروي ابن عبد البر روايات كثيرة عن الأئمة الكبار مثل: مالك، وأبي حنيفة، والشافعي، والليث... وغيرهم: بأنهم لايحبون الكلام إلا فيما تحته عمل ـ أي الفقه ـ أما الكلام في صفات الله تعالى فيقول مالك: «فالسكوت أحب إلي» (4).
وعلق ابن عبد البر على أحد أقوال مالك في هذا الموضوع فقال: «بين مالك أن الكلام فيما تحته عمل هو المباح عنده، وعند أهل بلده من العلماء، وأخبر رحمه الله أن الكلام في الدين نحو القول في صفات الله

3) جامع بيان العلم : ج : 2 ـ ص : 24.
4) المصدر نفسه : ج : 2 ـ ص : 95.

تعـــالى وأسمائه كقـــول الجهميـــة(5) والقدرية(6) لا فائدة فيـه». يقول ابـن عبد البر: «وهذا هـو الذي عليه مالـك وجماعة الفقهاء والعلماء قـديما، وحديثـا، من أهـل الحديث والفتوى، وإنما خالف في ذلك أهل البدع كالمعتزلة وسائر الفرق، أما الجماعة، فعلى ما قال مالك رحمه الله، إلا أن يضطر أحـد إلى الكـلام، فلا يسعـه السكـوت إذا طمـع برد البـاطل، وصرف صـاحبه عـن مـذهبه، أو خشي ضـلال العـامة أو نحـو ذلك»(7). فابـن عبد البر يقف مـن الصفات موقف السلف، وينقـل على ذلك أدلة كثيرة في كتابه (جـامع بيان العلم) ومـن أطرف نقـوله في هـذا الموضـوع قـوله: «أخبرنـا اسماعيـل بن عبـد الـرحمن، قـال حدثنـا إبراهيم بـن بكر، قال: سمعت أبـا عبد الله محمـد بـن إسحـاق بن (خـويـز منـداد) المصري المالكي، قـال في كتاب (الإجـارات) من كتـابه في الخلاف، قال مـالك: لاتجوز الإجارات في شيء من كتـب الأهواء والبدع، والتنجيم، وذكـر كتبا، ثم قال: وكتـب أهل البـدع والأهواء عنـد أصحـابنـا هي كتـب أصحاب الكلام المعتزلـة وغيرهم، وتفسخ الإجارة في ذلك، قال: وكـذلك كتب القضـاء بالنجـوم، وعزايـم الجن، وما أشبـه ذلك. وزاد ابـن عبد البر قـائلا: وقال في كتـاب الشهادات ـ أي محمد بن خويز منداد ـ في تـأويل قـول مالـك: لاتجوز شهادة أهـل البدع وأهـل الأهواء، قال أهل الأهـواء عند مالك وسائر أصحابنا هم أهل الكلام، فكل متكلم فهو من أهل الأهواء والبدع، أشعريا كان أو غير أشعـري، ولا تقبل لـه شهادة في الإسلام أبدا، ويهجر، ويؤدب على بدعته، فإن تمادى عليها استتيب منها...»(8)

5) الجهمية : أتبـاع جهم بن صفـوان، قال عنه الذهبـي: «الضال المبتدع هلـك زمن صغار التـابعين، وقد زرع شرا عظيما.ويقول عنه عبد القاهر البغـدادي في كتابه (الفرق بين الفرق) ص: 199 «الجهمية: أتباع جهم بن صفوان الذي قـال بالإجبار، والاضطـرار، اي الأعمال، وأنكر الاستطاعـات كلها. إلى أن قـال: وزعم أن علم اللـه حادث وامتنع من وصفه بـأنه شيء، أوحي، أو عالم، ومريد... وقـال بحدوث كلام الله تعالى كالقـدرية، ولم يسم الله تعالى متكلما به، وأكفره أصحابنا في جميـع ضلالاته، وأكفرته القدرية لقوله: إن الله خـالق أعمال العباد، فاتفق أصناف العباد على تكفيره.

قتله نصر بن سيار سنة: 102هـ ومن أقواله: الجنة والناس تفنيان، والإيمان هو المعرفة فقط.

6) القدريـة: هم المعتزلة، قـال عنهم عبد القاهـر البغدادي: افترقت المعتـزلة إلى عشرين فرقـة، كل فرقة منهـا تكفر سائرهـا... يجمعها في بـدعتها أمور: منها نفيها عن الله تعـالى صفاته الأزلية، وبأن ليس للـه عز وجل علم، ولا قدرة، ولا حياة، ولا بصر، ولا صفة أزلية.

ومن أقوالهم : استحالة رؤية الله تعالى بالأبصـار، وزعموا أنه لا يرى نفسه، ولا يراه غيره، واختلفوا هل هو راء لغيره أم لا؟ وهم متفقون على القول بحدوث كلام الله، وحدوث أمره ونهيه، (الفرق بين الفرق): 93 ـ 94.

7) جامع بيان العلم : ج : 2 ـ ص : 95.

8) المصدر نفسه :ج : 2 ـ ص : 96.

ويعلق ابن عبد البر على هذا النقل الذي أورده فيقول: «ليس في الاعتقاد كله في صفات الله وأسمائه إلا ما جاء منصوصا في كتاب الله، أو صح عن رسول الله ﷺ، أو أجمعت عليه الأمة، أو ما جاء من أخبار الآحاد في ذلك كله، أو نحوه، يسلم ولا يناظر فيه...»(9)

وأشير هنا إلى أن كبار فقهاء الشافعية والمالكية كانوا على مذهب السلف في العقيدة، وظل عدد منهم على ذلك إلى نهاية القرن الخامس الهجري وما بعده، فالشرازي أبو إسحاق مثلا الذي تحدثنا عنه في المبحث السالف لم يكن أشعريا، وهو شافعي المذهب في الفقه، ومن الأساتذة الأوائل للمدرسة النظامية ببغداد...

وفي عهد ابن البر، كانت الأشعرية أخذت تشق طريقها، وتمذهب بها كبار علماء أهل السنة: كالباقلاني، والاسفراييني، وابن فورك، وعبد القاهر البغدادي، والجويني، والغزالي، وغيرهم...

ففي هذا العصر بالذات الذي ازدهرت فيه الأشعرية، نرى ابن عبد البر يتحفظ، ويظل متمسكا بما كان يقرره الإمام مالك في مسألة الصفات.

ويتابع ابن عبد البر كلامه عن الصفات فيقول:

«أما ما جاء من أخبار الآحاد في ذلك كله أو نحوه يسلم ولا يناظر فيه». ويروي بسنده عن الأوزاعي؛ أن مكحول، والزهري كانا يقولان: اروو هذه الأحاديث كما جاءت، نحو حديث التنزل، وحديث: إن الله خلق آدم على صورته، وأنه يدخل قدمه في جهنم، وما كان مثل هذه الأحاديث».(10)

ثم يقول ابن عبد البر، ـــ وقد شرحنا القول في هذا الباب من وجهة النظر، والأثر، وبسطناه في كتاب التمهيد الذي ألفه ابن عبد البر قبل كتابه جامع بيان العلم ـــ وهو يشير بهذا الكلام إلى شرحه لحديث: «ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا» الذي أورده الإمام مالك في الموطأ في كتاب القرآن الواقع بين كتاب القبلة، وكتاب الجنائز، أورده في باب ما جاء في الدعاء عن ابن شهاب الزهري، وهو الحديث الثامن عنه بترتب التمهيد».

والحديث المشار إليه أخرجه الإمام البخاري في كتاب التوحيد عن أبي هريرة، وهو آخر كتاب ختم به صحيحه، وأخرجه قبل ذلك في الدعاء والصلاة من آخر الليل،

---

9) المصدر نفسه.

10) جامع بيان العلم : ج : 2 ـ ص : 96.

وأخرجه الإمام مسلم في كتاب صلاة المسافر باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل عن يحيى بن يحيى، وهذه الروايات كلها عن مالك، وقال عنه ابن عبد البر في التمهيد: «هذا حديث ثابت من جهة النقل صحيح الإسناد، لا يختلف فيه أهل الحديث، رواه أكثر الرواة عن مالك، وهو حديث منقول من طرق متواترة، ووجوه كثيرة من أخبار العدول عن النبي ﷺ. ومضى ابن عبد البر في بيان طرقه المختلفة، ثم ذكر الأحاديث التي جاءت في معناه، ونقل الآراء المختلفة في تفسيره، واستوعب الكلام عنه، ونقل في ذلك نقولا هامة عن كبار علماء السلف، وقد شرح هذا الحديث بمنهجيته الفريدة ببسط وتوضيح العناصر المتعلقة بالحديث، وتناولها من جميع الجوانب، بنفس عال، واستيعاب وشمولية... إلى أن قال:

«أهل السنة مجمعون على الإقرار بالصفات الواردة كلها في القرآن والسنة، والإيمان بها، وحملها على الحقيقة لا على المجاز، إلا أنهم لايكيفون شيئا من ذلك، ولا يحدون فيه صفة محصورة، وأما أهل البدع والجهمية والمعتزلة كلها، والخوارج، فكلهم ينكرها ولا يحملون شيئا منها على الحقيقة، ويزعمون أن من أقربها مشبه! وهم عند إثباتها نافون للمعبود، والحق فيما قاله القائلون بما نطق به كتاب الله وسنة رسوله، وهم أئمة الجماعة والحمد لله...(11)

ثم أخذ يؤكد هذا الذي قاله بالنقول الموثقة إلى أن انتهى إلى هذا الاستنتاج: «الذي أقول: إنه من نظر إلى إسلام أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وطلحة، وسعد، وعبد الرحمن، وسائر المهاجرين والأنصار، وجميع الوفود الذين دخلوا في دين الله أفواجا...علم أن الله عز وجل لم يعرفه واحد منهم إلا بتصديق النبيئين بأعلام النبوة، ودلائل الرسالة، لا من قبل حركة، ولا من باب الكل والبعض، ولا من باب كان ويكون... ولو كان النظر في الحركة والسكون عليهم واجبا، وفي الجسم ونفيه، والتشبيه ونفيه لازما ما أضاعوه، ولو أضاعوا الواجب ما نطق القرآن بتزكيتهم، وتقديمهم، ولا أطنب في مدحهم، وتعظيمهم، ولو كان ذلك من عملهم مشهورا، ومن أخلاقهم معروفا، لاستفاض عنهم ولشهروا به، كما شهروا بالقرآن والروايات... وقول رسول الله ﷺ: «ينزل ربنا إلى السماء الدنيا» عندهم مثل

---

11) التمهيد : ط : وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية ـ ج: 7 / ص: 145.

ـول اللـه عـز وجل: ﴿فلما تجلى ربـه لجبل﴾(12) ومثل قـولـه: ﴿وجاء ربك والملك صفا صفا﴾.(13)

كلهم يقول: ينزل، ويتجلى، ويجيء بلا كيف، لايقـولـون كيف يجيء؟ وكيف تجلى؟ وكيف ينزل؟ ولا مـن أين جاء؟ ولا ن أين تجلى؟ ولا من أين ينزل؟ لأنه ليس كشيء من خلقـه، وتعـالى عن الأشيـاء ولا شريك له...».(14)

ونستخلص مـن هذا أن ابن عبـد البر، رى أن الواجب على المؤمن أن يؤمن إيمان صحـابـة رضـوان اللـه عليهم، دون أن تفلسف ويسأل كيف؟ ولماذا؟ ومن أين..؟ لابن عبد البر في هذا الموضوع كلام نفيس نظر في التمهيد.

وهـذا المنهج في الاعتقـاد هـو مـا درج ليـه جماعة كبيرة مـن علماء الأمة، ذكـر ماعة منهم ابن تيميـة عند شرحه لحديث نـزول، حيث نقـل عن الخطـابي قـولـه: ونقـول، إن القـول إنما وجـب بإثبـات صفـات، لأن التـوقيف ورد بها، ووجـب ي التشبيـه عنهـا، لأن اللـه ليس كمثلـه يء، وعلى هـذا جـرى قـول السلـف في أحاديث الصفات... يقـول ابن تيمية: «هذا الكلام الـذي ذكره الخطابي قـد نقل نحوا منه عـدد لايحصـى من العلماء، مثل: أبي بكـر الإسماعيلي، والإمام يحيـى بن عمار، وشيـخ الإسـلام أبي إسماعيـل الهروي، صاحب (منازل السـائرين) و«ذم الكلام» وهــو أشهـر مـن أن يـوصـف، وشيـخ الإسلام أبي عثمان الصابـوني، وأبي عمر بـن عبـد البر النمـري إمـام المغـرب، وغيرهم...».(15)

وهكـذا نجـد أن ابن عبـد البر يضعـه المتكلمون عـن الصفات والعقيدة مـع كبار أئمـة أهل السنـة والجماعة، وهـو جديـر بـذلك، لأنـه وكما عهـدنـاه دائما في الخط المعتدل الرصين، يلاحظ هذا في سائر آرائه ومواقفه.

ومعلـوم أن قضية صفـات الله تعـالى، من القضايا التي كثر فيها الكلام والجدال، وذهب النـاس فيهـا مـذاهب شتى مـابين متطرف، ومعتدل، ومـا بين ملتزم بما كان عليه السلف الصالح، وغير ملتزم...

ونهج ابـن عبـد البر في الصفـات نهج السلف، ولم يتأثر بما كان سائدا في عصره

---

(12) سورة الأعراف : 143.

(13) سورة الفجر : 22.

(14) التمهيد : ج : 7 ـ ص : 153.

(15) انظر : شرح حديث النـزول لابن تيمية ص : 194 ط : المكتب الإسـلامي : 1969، والجزء الخامس من فتاويه ص: 194 ـ 195 / ط الرباط ـ مكتبة المعارف.

من المذاهب الكلامية داخل الإطار السني في هذا المجال، وهذا موقف يسجل له بكثير من التقدير والاحترام.

وبعد هذه الجولة القصيرة مع ابن عبد البر في قضية الصفات، ننتقل معه إلى قضية أخرى، وهي لاتقل خطورة وأهمية عن القضايا السالفة.

موقف ابن عبد البر من أقوال العلماء بعضهم في بعض:

الباب الذي خصصه ابن عبد البر للحديث عن هذه القضية الشائكة، افتتحه بحديث رواه بسنده عن الزبير بن العوام «ض» أن رسول الله ﷺ قال: «دب إليكم داء الأمم قبلكم: الحسد والبغضاء، البغضاء هي الحالقة، لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين، والذي نفس محمد بيده لاتدخلون الجنة حتى تومنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، ألا أنبئكم بما يثبت ذلك لكم، افشوا السلام بينكم». ثم ذكر بعض طرق هذا الحديث، سنده عن شيوخه، وأورده في التمهيد، وصدر بسند غير الذي صدر به في جامع بيان العلم، وبلفظ فيه إرجاع الضمير في الحديث على الحسد والبغضاء معا، لا على البغضاء وحدها.(16)

والحديث أخرجه أحمد والترمذي، وذكره في الجامع الصغير...(17).

ثم بعد ذلك روى بسنده عن ابن عباس، رضي الله عنهما، أنه قال: «استمعوا علم العلماء، ولا تصدقوا بعضهم على بعض، فوالذي نفسي بيده، لهم أشد تغايرا من التيوس في زربها» ثم قال ابن عبد البر: «وروى مقاتل بن حيان، وعطاء الخرساني عن سعيد بن المسيب، عن ابن عباس قال: «خذوا العلم حيث وجدتم، ولا تقبلوا قول الفقهاء بعضهم على بعضهم، فإنهم يتغايرون تغاير التيوس في الزريبة»(18) ثم أتى بعدة آثار في الموضوع، وعقب على هذه الآثار بقوله: «هذا باب قد غلط فيه كثير من الناس، وضلت به نابتة جاهلة، لاتدري ما عليها في ذلك...» وكأنه بهذا الكلام يوجه اللوم لأناس مخصوصين، وإذا كان ابن عبد قد عاش في فترة حالكة من تاريخ الأندلس، فهو يعني ما يقول.

ثم نرى ابن عبد البر يقعر قواعد هامة في هذا الموضوع فيقول: «والصحيح في هذا الباب أن من صحت عدالته، وثبتت في العلم أمانته، وبانت ثقته، وعنايته بالعلم،

---

16) انظر التمهيد : ج : 6 ـ ص : 120 ـ 121.

17) يرجع في مراجع هذا الحديث إلى: (موسوعة أطراف الحديث) لمحمد السعيد زغلول، ولهامش التمهيد : ص: 120 من : ج: 6. ط: وزارة الأوقاف بالمغرب.

18) جامع بيان العلم : ج 2 ـ ص : 151.

لم يلتفت فيه إلى قول أحد، إلا أن يؤتى في تجريحه ببينة عادلة، ويكون العمل فيها على المشاهدة والمعاينة، بما يوجبه قوله من جهة الفقه والنظر».

وهو هنا يقرر ما اتفق عليه كبار أئمة علماء الجرح والتعديل، ثم يقول بعد ذلك:

«على أنه - أي التجريح - لا يقبل فيمن تخذه جمهور من جماهير المسلمين إماما في الدين قول أحد من الطاعنين...».

ثم نرى بعد ذلك ابن عبد البر يعتذر عما وقع من السلف في هذا الباب فيقول: ومنه ما حمل عليه الغضب، ومنه ما حمل عليه الحسد، ومنهم من كان له تأويل واجتهاد، ولا يلزم تقليدهم في شيء منه دون برهان ولا حجة...»(19)

وأتى بحكايات طريفة عن كلام بعض التابعين في بعض، وكذا من بعدهم، مثل ما كان بين سعيد بن المسيب وعكرمة، وبين الإمام مالك، ومحمد بن إسحاق، وبعد ما أتى بنبذة من ذلك قال: «لكن أهل الفهم، والعلم والميز، لايلتفتون إلى ذلك، لأنهم بشر، يغضبون ويرضون، والقول في الرضا غير القول في الغضب...» وأرجع ذلك إلى ما جبل عليه الإنسان من البغض والحسد، والجهل، وجحود الحق في بعض الأحيان، ومثل لذلك بقوله: «ألا ترى إلى قول الكوفي في سعد بن أبي وقاص: «إنه لا يعدل في الرعية، ولا يغزو في السرية، ولا يقسم بالسوية». يقول: «وسعد بدري، وأحد العشرة المبشرين بالجنة، وأحد الستة الذين جعل عمر الشورى فيهم، وقال في حقهم: «توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راض...»(20) ثم قال بعد ذلك: «وروي عن موسى عليه السلام، قال: يارب إقطع عني ألسن بني إسرائيل، فأوحى الله إليه: ياموسى لم أقطعها عن نفسي، فكيف أقطعها عنك!؟

ثم يقول بحسرة ومرارة : والله لقد تجاوز الناس الحد في الغيبة، والذم، فلم يقنعوا بذم العامة دون الخاصة، ولا بذم الجهال دون العلماء، كل هذا بسبب الجهل والحسد.(21)

فابن عبد البر لم يطلق لنفسه العنان ليتكلم في الناس، أو في بعض مخالفيه في الرأي أو المذهب. بل نراه يحث طلبة العلم، والعلماء على كف ألسنتهم عن الكلام في الأئمة الأعلام، من فقهاء الأمصار، وعلماء الإسلام، ويعد لمز النابهين من الأئمة أمرا فظيعا يدل على خسة النفس وسفالتها...

(19) المصدر نفسه : ج : 2 - ص : 152.
(20) جامع بيان العلم : ج : 2 - ص : 161.
(21) المصدر نفسه.

وفي آخر هذا الباب يقول: «ومن صحبه التوفيق أغناه من الحكمة يسيرها، ومن المواعظ قليلها، إذا فهم استعمل ما علم...».

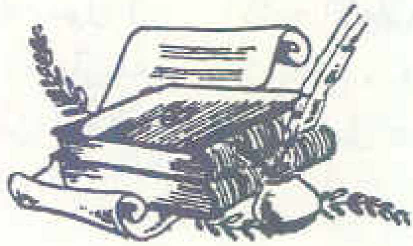
ويختم كلامه في هذا الموضوع بقوله: «حدثنا عبد الله بن محمد بن يوسف، قال: حدثنا ابن دحمون، قال: سمعت محمد بن بكر بن داسة يقول: سمعت أبا داود سليمان بن الأشعث السجستاني يقول: «رحم الله مالكا، كان إماما، ورحم الله أبا حنيفة، كان إماما...».

والختم بكلام أبي داود السجستاني - وهو من هو - له مغزاه، وبخاصة في هذه الفترة التي ظهر فيها الحزبية بالأندلس، وظهر فيها التطاحن بين المذاهب السنية ببغداد، وغير من البلاد الإسلامية، وإلى ذلك، كان هذا العصر عصر الصراع العنيف بين أهل السنة والباطنية.. فكلام ابن عبد البر في هذا الموضوع، وفي هذه الفترة بالذات، يعد في غاية الحكمة والسداد.

وينهي كلامه في هذا الفصل بقوله: «وما توفيقي إلا بالله، وهو حسبي ونعم الوكيل».

ويلذ لقارىء (جامع بيان العلم) أن يتابع ابن عبد البر في مواقفه وآرائه، وفي توجيهاته وإراشاداته، وحججه واستدلالاته... والكتاب غني بذلك، ويعد بحق من أنفس ما ألفه حافظ المغرب، وإلى فرصة أخرى بحول الله.

سلا - عبد القادر العافية



سد الذرائع في الفقه المالكي

للأستاذ عبد السلام فيغو
رئيس شعبة الدراسات الإسلامية
بكلية الآداب والعلوم الإنسانية
بمراكش

من المتفق عليه، أن الشريعة الإسلامية منهج حياة للناس في كل زمان ومكان، فكان لزاما على كل باحث أن ينظر في نصوص الكتاب والسنة، ليتوصل عن طريق الأدلة والقواعد والمقاصد إلى الأحكام الشرعية، وينبغي أن نستفيد من مصادر أخرى في البحث عن أحكام ومقاصد الشرع، ولا سيما في التطبيقات في الحياة العملية، مع مراعاة الضوابط والمناهج التي سلكها الأئمة في ذلك.

وسيتركز منهج البحث في هذا الموضوع عن المقصود بسد الذرائع، ثم أقسام الذرائع عند الفقهاء المالكية، وأخيرا سنتناول شواهد من الفقه المالكي على العمل بسد الذرائع.

أولا ـ المقصود بسد الذرائع :

الذريعة عند الأصوليين هي: الوسيلة أو الطريقة الموصلة إلى الشيء المراد أو المقصد، وهي جمع ذريعة، ومعنى سدها: حسم مادة وسائل الفساد دفعا لها، فمتى كان الفعل السالم عن المفسدة وسيلة للمفسدة منع من ذلك الفعل، وهو مذهب مالك.(1)

ويعرف الإمام القرطبي الذريعة بقوله بأنها: عبارة عن أمر غير ممنوع لنفسه يخاف من ارتكابه الوقوع في ممنوع.(2)

والمشهور أن الإمام مالك يقول بسد الذرائع، بل أنه أكثر من العمل به، يقول الشاطبي في ذلك: «وهذا الأصل ينبني عليه

1) القرافي : الفروق ج 2 ص 32.
2) الجامع لأحكام القرآن ج 2 ص 51.

قواعد، منها: قاعدة الذرائع، التي حكمها مالك في أكثر أبواب الفقه». (3)

ويقول بعد ذكر الفعل الذي يكون أداؤه إلى المفسدة كثيرا ـ لا غالبا ولا نادرا ـ فهو موضع النظر والالتباس، والأصل فيه الحمل على الأصل من صحة الإذن، ثم يقول: إلا أن مالكا اعتبره في سد الذرائع بناء على كثرة القصد ووقوعه. (4)

وقال في تبصرة الحكام : فمتى كان الفعل السالم عن المفسدة وسيلة إلى المفسدة منعنا من ذلك الفعل، وهو مذهب مالك. (5)

هذا ماذكره فقهاء المذهب المالكي بخصوص سد الذرائع، ويؤكده كثرة ذكرهم للذريعة في كثير من أبواب الفقه والمسائل الفرعية، كما تذكر كتب الأصول المالكية أن أصل الذرائع متفق عليه، وإنما الخلاف في التسمية ومجال التطبيق في الجزئيات، أي أن الخلاف في تحقيق مناط هذه القاعدة في بعض الجزئيات.

ثانيا ـ أقسام الذرائع في الفقه المالكي:

فيما يتعلق بأقسام الذرائع عند الفقهاء المالكية، سأتوقف عند نموذجين فقط لتقسيمات سد الذرائع: تقسيم الفقيه القرافي، والشاطبي.

أ) تقسيم القرافي(6) للذرائع :

قسم القرافي الذرائع في كتاب: شرح تنقيح الفصول إلى ثلاثة أقسام:

الأول : وهو الذي أجمعت الأمة على سده ومنعه وحسمه، أي أنه معتبر إجماعا، كحفر الآبار في طريق المسلمين، فإنه وسيلة إلى إهلاكهم فيها، وإلقاء السم في أطعمتهم، وسب الأصنام عند من يعلم أنه يسب الله عز وجل.

الثاني : أجمعت الأمة على عدم منعه، وأنه ذريعة لا تسد، ووسيلة لا تحسم، كالمنع من زراعة العنب خشية الخمر، فإنه لم يقل به أحد، أي أن هذا القسم ملغى إجماعا، لأن الفساد بعيد جدا، فلم يمنع شيء من ذلك لبعد المفسدة من المصلحة، ويدل على ذلك مانشاهده في مشارق الأرض ومغاربها من دوالي العنب المغروسة، ولم يمنع أحد من غرسها خوف شرب الخمر التي تكون من عنبها.

---

3) الشاطبي : الموافقات ج 4 ص 198 دار المعرفة.
4) الشاطبي : المصدر السابق ج 2 ص 361.
5) تبصرة الحكام ج 2 ص 376.
6) هو شهاب الدين أبو العباس أحمد بن ادريس بن عبد الرحمان الصنهاجي البهنسي المصري المشهور بالقرافي، أحد العلماء الأعلام المشهورين، والأئمة المذكورين، جد في طلب العلم فبرع في الفقه وأصوله، والعلوم العقلية وفروعها، انتهت إليه رئاسة المالكية في عصره، توفي سنة 684هـ، ودفن بالقرافة، من مؤلفاته «أنوار البروق في أنواء الفروق» و «الذخيرة».
(انظر الديباج المذهب ص 62 ـ 67، الفكر السامي ج 4 ص 64، الأبحاث السامية ص 319 ـ 320).

أما إذا رجحت المصلحة على المفسدة، فقد تكون في هذه الحالة وسيلة المحرم غير محرمة إذا أفضت إلى مصلحة راجحة، كالتوسل إلى فداء الأسرى بدفع المال إلى العدو، والذي هو محرم عليهم الانتفاع به، لكونهم مخاطبين بفروع الشريعة، وكدفع مال الرجل ليأكله حراما حتى لايزني بامرأة إذا عجز عن ذلك إلا به، وكدفع المال للمحارب حتى لايقع القتل بينه وبين صاحب المال، واشترط مالك فيه السارة.(7)

ومما يزيد في توضيح ذلك، ماذهب إليه حلولو في شرحه للتنقيح قوله: «وقد تكون الوسيلة المحرم غير محرمة الخ... عبارة غير محررة، فإن الحكم بأن القصد حرام، والوسيلة جائزة خلاف المعقول، نعم، إن الشيء عند تجرده مشتملا على مفسدة فيمنع، ثم إذا أفضى إلى مصلحة راجحة أو اشتمل عليها اضمحلت تلك المفسدة في نظر الشارع، وصارت مصلحة مأمورا بها».(8)

الثالث : اختلف فيه العلماء هل يسد أم لا؟ كبيوع الآجال، اعتبرنا نحن ـ يقول القرافي ـ الذريعة فيها، وخالفنا غيرنا، لأنها خاصة بنا.(9)

ولقد ذكر القرافي الخلاف موضحا هذا القسم بقوله: وقسم اختلف فيه العلماء أيسلم أم لا، كبيوع الآجال عندنا، كمن باع سلعة بعشرة دراهم إلى شهر، ثم اشتراها بخمسة قبل الشهر، فمالك يقول: إنه خرج من يده خمسة الآن، ثم اشتراها بخمسة الآن، وأخذ عشرة آخر الشهر، فهذه وسيلة لسلف خمسة بعشرة إلى أجل بإظهار صورة البيع، لذلك يكون باطلا».(10)

ب) تقسيم الذرائع عند الإمام الشاطبي*:

لقد أورد الإمام الشاطبي في كتابه الموافقات تقسيما رائعا للذرائع، فلقد قسم الفعل المأذون فيه لما فيه من مصلحة للفاعل بالنسبة إلى ما يسببه من أضرار ومفاسد لغير الفاعل أقساما أربعة.

1) فعل مأذون فيه يؤدي إلى المفسدة قطعا، ويعني بذلك القطع العادي، كحفر البئر خلف باب الدار في طريق مظلم، بحيث يقع الداخل فيه لا محالة وشبه ذلك.

---

7) القرافي : تنقيح الفصول ص 442.
8) حلولو : شرح تنقيح الفصول ص 404 ـ 405.
9) للقرافي المصدر السابق ص 200.
10) القرافي : المصدر السابق ص 200.
*) هو أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي، الإمام الحافظ المجتهد المحقق، كان متفننا في الأصول والتفسير والفقه والحديث واللغة، وكان شديدا على أهل البدع توفي سنة 790هـ من مؤلفاته: «الموافقات» و«الاعتصام».
(نيل الابتهاج) ص 46 ـ 50 ـ (الفكر السامي) ج 4 ص 82، (الأبحاث السامية) ص 287.

وهذا القسم هو عبارة عن ذريعة أو فعل أداؤه إلى المفسدة قطعي، يقول الشاطبي: وهذا النوع من الذرائع ممنوع بإجماع فقهاء المسلمين، وإن كان أصل الفعل مأذونا فيه، كمن يحفر بالوعة في بيته يترتب عليها هدم جدار جاره، ولأن توخي الفاعل لهذا الفعل لابد فيه من أحد أمرين: إما تقصير في النظر المأمور به وذلك ممنوع، وإما قصد إلى نفس الإضرار وهو ممنوع أيضا، فيلزم أن يكون ممنوعا ذلك الفعل، لكن إذا فعله يعد متعديا بفعله، ويضمن ضمان المتعدي على الجملة، وينظر في الضمان بحسب النفوس والأموال على ما يليق بكل نازلة، ولا يعد قاصدا البتة، إذا لم يتحقق قصد التعدي.(11)

2) فعل مأذون فيه يكون أداؤه إلى المفسدة والإضرار نادرا، كحفر البئر بموضع لايؤدي غالبا إلى وقوع أحد فيه، وبيع الأغذية التي من شأنها أن لاتضر أحدا غالبا، وما أشبه ذلك، كزراعة العنب، ولو اتخذ العنب بعد ذلك للخمر.

ويرى الشاطبي أن هذا النوع من الذرائع حلال لاشك فيه، فهو باق على أصل الإذن العام والمشروعية، ما دام الفعل مأذونا فيه، لأن المصلحة إذا كانت غالبة فلا اعتبار بالنذور في انخرامها، إذ لا توجد مصلحة — في العادة ـ عارية عن المفسدة جملة، إلا أن الشارع قد اعتبر في مجاري الشرع غيبة المصلحة، ولم يعتبر نذور المفسدة، إجراء للشرعيات مجرى العاديات في الوجود. ولا يعد هنا قصد القاصد إلى جلب المصلحة أو دفع المفسدة — مع معرفته بنذور المضرة عن ذلك ـ تقصيرا في النظر، ولا قصدا إلى وقوع الضرر، فالعمل إذن باق على أصل المشروعية.

والدليل على ذلك أن ضوابط المشروعات هكذا وجدناها كالقضاء بالشهادة في الدماء والأموال والفروج، مع إمكان الكذب والوهم والغلط. وإباحة القصر في المسافة المحدودة مع إمكان عدم المشقة كالملك المترف، ومنعه في الحضر بالنسبة إلى ذوي الصنائع الشاقة، وكذلك أعمال خبر الواحد والأقيسة الجزئية في التكاليف، مع إمكان إخلافها والخطأ فيها من وجوه، لكن ذلك نادر فلم يعتبر، واعتبرت المصلحة الغالبة.(12)

3) فعل مأذون فيه، لما فيه من مصلحة، ولكنه يؤدي إلى المفسدة غالبا، أي من باب غلبة الظن لا من باب العم القطعي، كبيع السلاح في وقت الفتن أو من أهل الحرب، وبيع العنب للخمار، وما يغش به من

---

11) الشاطبي الموافقات ج 2 ص 357 ـ 358، دار المعرفة.
12) الشاطبي المصدر السابق ص 358 ـ 359.

شأنه الغش، ونحو ذلك مما يقع في غالب الظن أداؤه لا على سبيل القطع.

ويرى الشاطبي أن هذا النوع ممنوع أيضا، لأن الاحتياط يوجب الأخذ بغلبة الظن، ولأن الظن في الأحكام العملية يجري مجرى العلم، فيجري هنا مجراه، ولأن إجازة هذا القسم من الذرائع نوع من التعاون على الإثم والعدوان المنهى عنه.

الحاصل من هذا القسم، أن الظن بالمفسدة والضرر لا يقوم مقام القصد إليه، فالأصل الجواز من الجلب أو الدفع، وقطع النظر عن اللوازم الخارجية؛ إلا أنه لما كانت المصلحة تسبب مفسدة من باب الحيل أو من باب التعاون، منع من هذه الجهة لامن جهة الأصل، فإن المتسبب لم يقصد إلا مصلحة نفسه. فإن حمل محمل التعدي فمن جهة أنه مظنة للتقصير، وإن كان المنع هنا أخفض رتبة من القسم الأول.

ولذلك وقع الخلاف فيه، هل تقوم مظنة الشيء مقام نفس القصد إلى ذلك الشيء أم لا ؟ هذا نظر إثبات الحظوظ، أما نظر إسقاطها فإنه لا قدرة للإنسان على الانفكاك عنه عادة.(13)

4) فعل مأذون فيه، لما فيه من مصلحة، لكنه يؤدي إلى المفسدة كثيرا لا غالبا، بحيث أن هذه الكثرة لا تبلغ مبلغا يحمل العقل عن ظن المفسدة فيه دائما، وذلك كمسائل بيوع الآجال، والبيوع الربوية، كعقد سلم يقصد به عاقده ربا قد استتر في بيع، كأنه يدفع ثمنا قليلا لا يتناسب مع ثمن البيع وقت الأداء، قاصدا بذلك الربا، فإن هذا تأديته إلى الفساد كثيرة، وإن لم تبلغ الظن الراجح ولا العلم.

ويرى الإمام الشاطبي أن هذا النوع من الذرائع موضع نظر والتباس، والأصل فيه الحمل على الأصل من صحة الإذن كمذهب الشافعي وغيره، ولأن العلم والظن بوقوع المفسدة منتفيان، إذ ليس هنا الاحتمال مجرد بين الوقوع وعدمه، ولا قرينة ترجح أحد الجانبين على الآخر، واحتمال القصد للمفسدة والإضرار لايقوم مقام نفس القصد، ولا يقتضيه لوجود العوارض من الغفلة وغيرها عن كونها موجودة أو غير موجودة. وأيضا فإنه لايصح أن يعد الجالب أو الدافع هنا مقصرا ولا قاصدا كما في العلم والظن، لأنه ليس حمله على القصد إليهما أولى من حمله على عدم القصد لواحد منهما. وإن كان كذلك، فالتسبب المأذون فيه قوي جدا، إلا أن مالكا اعتبره في سد الذرائع بناء على كثرة القصد وقوعا، وذلك أن القصد لاينضبط في نفسه، لأنه من الأمور الباطنة، لكن له مجال هنا وهو كثرة

(13) الشاطبي : المصدر السالف ص 359 وما بعدها.

الوقوع في الوجود أو هو مظنة ذلك، فكما اعتبرت المظنة وإن صح التخلف، كذلك تعتبر الكثرة لأنها مجال القصد.

وأيضا، فقد يشرع الحكم لعلة مع كون فواتها كثيرا كحد الخمر، فإنه مشروع للزجر، والإزدجار به كثير لا غالب، فاعتبرنا الكثرة في الحكم بما هو على خلاف الأصل، فالأصل عصمة الإنسان عن الإضرار به وإيلامه، كما أن الأصل في مسألتنا الإذن، فخرج عن الأصل هنا في الإباحة لحكمة الزجر، وخرج عن الأصل هنا من الإباحة لحكمة سد الذريعة إلى الممنوع.(14)

ثالثا : شواهد من فقه المالكية على العمل بسد الذرائع:

من أبرز تطبيقات سد الذرائع عند المالكية منعهم للعقود التي تتخذ إلى أكل الربا، ومن ذلك:

أ ـ بيوع الآجال : وأصل ما بني عليه بيوع الآجال الحكم بالذرائع، ومذهب مالك القضاء بها والمنع منها، وهي الأشياء التي ظاهرها الإباحة، ويتوصل بها إلى فعل المحظور، ومن ذلك البيوع التي ظاهرها الصحة ويتوصل بها إلى استباحة الربا، وذلك مثل أن يبيع الرجل سلعة من رجل بمائة دينار إلى أجل ثم يبتاعها بخمسين نقدا، فيكونان قد توصلا بما أظهراه من البيع الصحيح إلى سلف خمسين دينارا في مائة إلى أجل، وذلك حرام لايجوز.(15)

وقد عقد صاحب الشرح الكبير فصلا خاصا تحت هذا العنوان فقال : فصل في بيوع الآجال وهي بيوع ظاهرها الجواز، ولكنها تؤدي إلى ممنوع، ثم قال: ومنع عند مالك ومن تبعه للتهمة، أي لأجل ظن قصد ما منع شرعا سدا للذريعة.(16)

ب ـ البيوع : ما يؤدى إلى انظرني أزدك، جاء في الموطأ، قال مالك في الرجل يكون له على الرجل مائة دينار إلى أجل، فإذا حلت قال له الذي عليه الدين، يعني سلعة يكون ثمنها مائة دينار نقدا بمائة وخمسين إلى أجل، هذا بيع لا يصح ولم يزل أهل العلم ينهون عنه.

قال مالك : وإنما كره ذلك، لأنه إنما يعطيه ثمن ما باعه بعينه، ويؤخر عنه المائة الأولى إلى الأجل الذي ذكره له آخر مرة، ويزداد عليه خمسين دينارا في تأخيره عنه، فهذا مكروه ولا يصح.

وهو أيضا يشبه حديث زيد بن أسلم في بيوع أهل الجاهلية، وحديث زيد هو أنه قال: كان الربا في الجاهلية أن يكون

---

14) الشاطبي : المصدر السابق ص 361 وما بعدها.

15) ابن رشد (الجد) : المقدمات الممهدات ج 2 ص 39، الطبعة الأولى دار الغرب الإسلامي 1408/ 1988.

16) الدردير : الشرح الكبير ج 3 ص 76، وانظر أيضا بداية المجتهد ج 2 ص 122، الشوكاني: نيل الأوطار ج 5 ص232.

لرجل على الرجل دين إلى أجل، فإذا حل
لأجل قال: أتقضي أم تربى؟ فإن قضى
خذ، وإلا زاد في حقه وأخر عنه في الأجل،
بهذه الصورة يعتبرها مالك في الذرائع في
هذه البيوع، هي أن يتذرع منها إلى
نظرني أزدك، أو إلى بيع مالا يجوز
متفاضلة الخ...(17)

ج ـ في الشركة والتولية : جاء في
لموطأ قال مالك: في الرجل يقول للرجل:
شتر هذه السلعة بيني وبينك، وانقد عني
أنا أبيعها لك، إن ذلك لا يصلح حين قال:
نقد عني وأنا أبيعها لك، وإنما ذلك سلف
سلفه إياه على أن يبيعها له، ولو أن تلك
سلعة هلكت أو فاتت، أخذ ذلك الرجل
ذي نقد الثمن من شريكه ما نقد عنه،
هذا من السلف الذي يجر منفعة.(18)

د ـ القراض بالدين : فقد جاء في
وطأ قال مالك: إذا كان لرجل على رجل
ين، فسأله أن يقره عنده قراضا، إن ذلك
كره حتى يقبض ماله، ثم يقارضه بعد أو
سك، وإنما ذلك مخافة أن يكون أعسر
اله، فهو يريد أن يؤخر ذلك على أن
يد فيه.

هـ ـ ما يؤدى إلى بيع المال الربوي متفاضلة:

ومثاله أن يبيع الإنسان صنفا وسطا في الجودة بصنفين أحدهما أجود والآخر أردأ، فقد جاء في الموطأ قال مالك: لايصح مد زبد ومد لبن بمدي زبد، وهو مثل الذي وصفنا من التمر الذي يباع صاعين من كبيس، وصاعا من حشف بثلاثة أصوع من عجوة، حين قال لصاحبه: إن صاعين من كبيس بثلاثة أصوع من العجوة لا يصلح، ففعل ذلك ليجيز بيعه، وإنما جعل صاحب اللبن اللبن مع زبده ليأخذ فضل زبده على زبد صاحبه حين أدخل معه اللبن.(20)

قال ابن رشد : فإن مالكا يرد هذا، لأنه يتهمه أن يكون إنما قصد أن يدفع مدين من الوسط في مد من الطيب، فجعل معه الرديء، ذريعة إلى تحليل مالا يجب من ذلك.(21)

وبهذا يَتَبَيَّنُ لنا أن الذرائع أصل من الأصول في الفقه المالكي، فالذريعة كما يجب سدها، يجب فتحها، ويكره، ويندب، ويباح، فإن الذريعة هي الوسيلة، فكما أن

) بداية المجتهد ج 2 ص 124.
) الموطأ ص 420 صححه ورقمه وخرج أحاديثه وعلق عليه محمد فؤاد عبد الباقي ـ مطبعة الشعب / مصر.
) الموطأ : ص 428.
) الموطأ ص 402.
) بداية المجتهد ج 9.

وسيلة المحرم محرمة، فوسيلة الواجب واجبة كالسعي للجمعة والحج.

غير أن الوسائل أخفض رتبة من المقاصد في حكمها، فالوسيلة إلى أفضل المقاصد أفضل الوسائل، وإلى أقبح المقاصد أقبح الوسائل، وإلى ما هو متوسط متوسطة.(22)

فالفقه المالكي يوازن بين ما ينتج عن الفعل المأذون فيه من مصلحة، وما ينتج عنه من مفسدة، فإذا رجحت كفة المفسدة منع الفعل، وأصبح غير مشروع بقطع النظر عن قصد الفاعل ونيته.

مراكش ـ عبد السلام أحمد فيغو

22) تنقيه الفصول ص 200، الفروق ج 2 ص 32.

التصوف المغربي وتاريخه (2)

للأستاذ محمد علي بن الصديق

3) **ذكر بعض المراحل التاريخية للتصوف المغربي :**

يمكن تقسيم المراحل التاريخية التي مر بها التصوف قبل وصوله إلى المغرب، إلى عدة أطوار وحقب.

ففي الطور الأول ويمتد إلى أواخر القرن الثاني، لم يكن التصوف متميزا بمميزات تخصه، إذ كان ــ كما سبق ــ عبارة عن التقيد بالكتاب والسنة واتباع طريقة الرسول ﷺ، ولم يكن لأصحابه تميز عن غيرهم، ولا أمكنة خاصة بهم، ولا اصطلاحات ولا مقامات.

ولكن ابتداء من منتصف هذا الطور، أخذ الزهد وحب الله يتفلسف(1) مع الحسن البصري (تـ110هـ) ورابعة العدوية (تـ135هـ). وكان من أعلامهم في هذا الطور بعد الصحابة وبعد الحسن البصري ورابعة العدوية، إبراهيم ابن الأدهم (تـ161هـ) والفضل بن عياض (تـ187هـ) وشقيق البلخي (تـ194هـ) ومعروف الكرخي (تـ200هـ) وغيرهم..

ثم جنح بعد إلى الفكر والتأمل، وظهرت المقامات والاصطلاحات الصوفية، وأخذ في تدوين الكتب التي تعنى بشرحه وبيان حقائقه. ومن رجالاته في هذا الطور، ذو النون المصري المتوفى سنة 245هـ، وهو أول من تكلم في المقامات الصوفية بمصر، والحارث المحاسبي (تـ243هـ)، صاحب

1) بمعنى أنهما صارا يأخذان مفهوما واتجاها خاصين.

الرعاية، وبشر الحافي (تـ227هـ)، وأبو يزيد البسطامي (تـ261هـ)، وقيل: هو أول من تكلّم في مقام الفناء، والحسين بن منصور الحلاج (تـ309هـ)، والجنيد (تـ297هـ)، وهو أول من صاغ المعاني الصوفية وهذبها، حتى نسب التصوف إليه. فقيل فيه طريق الجنيد. يقول صاحب المرشد المعين: «وفي طريقة الجنيد السالك»(2)، ومثله قول ابن السبكي في جمع الجوامع: «ونعتقد أن طريق الجنيد وصحبه طريق مقوم» ويصف الجنيد طريق القوم فيقول: «طريقنا مضبوط بالكتاب والسنة، من لم يحفظ القرآن، ولم يكتب الحديث، ولم يتفقه، لايقتدى به».(3)

ثم أخذ التصوف ينتشر بعد على نطاق واسع، وأخذت تبدو من منتحليه أقوال موهمة الظاهر، غامضة المعاني، وهي ما اصطلح على تسميتها «شطحات»، فأنكرها علماء الظاهر وحاربوا أصحابها، وحذروا منهم، ولم يتوقفوا في الحكم عليهم بالإلحاد والزندقة، لأنهم لم يدركوا مقاصد القوم بها، ولم يشاؤوا أن يتناولوها خوفا على العامة من ظاهرها. ومن ثم أفتوا بكفر الحلاج والسهروردي (تـ563هـ)، وقتلهما، وقتلا فعلا.

وسعوا بذي النون إلى المتوكل، فأشخص إلى بغداد، وسجن بها مدة تم أطلق سراحه. وهكذا بدأ النزاع بينهم وغيرهم من علماء الرسوم والظواهر، كما يسميهم الصوفية، أو رجال الفقه والحديث.

إلى أن جاء الغزالي المتوفى سنة 505هـ، فعني بالتصوف وهذبه، وبين حقيقته ومراميه، وشرح كثيرا من مقاماته وحقائقه في أسلوب مؤثر، مدعم بالنصوص والأدلة. فأبان بذلك فضل التصوف على علم الفقه الذي يقتصر على ظواهر الأحكام، دون النفوذ إلى بواطنها، والحكمة منها، والعمل على تحقيق غايتها وثمرتها، وهي خوف الله ومراقبته والإنابة إليه.

وجعل الاشتغال بالباطن وتهذيبه من العيوب والنقائص الباطنية: كالكبر والحسد والرياء الذي هو موضوع علم التصوف، أهم من معرفة كثير من الأحكام النادرة التي تمتلىء بها كتب الفروع. وقلما تقع أو تدعو الحاجة إليها... بينما كل واحد يحتاج إلى تطهير نفسه وتزكيتها. فكان لذلك

---

2) ص 1 من نظم (المرشد المعين على الضروري من علوم الدين) لعبد الواحد بن عاشر. ط. دار الكتاب — الدار البيضاء.

3) الرسالة القشيرية، ص 60. الأدبية بمصر.

الاشتغال به فرضا عينيا. وأقر القول بالكرامات والكشف، واعتبره أفضل طريق إلى معرفة الله.

وهو إنما يكون نتيجة مجاهدة وإقبال بالكلية على الله سبحانه. كما حمل على أدعياء التصوف وشنع عليهم. وجعل التصوف قوامه العمل والاقتداء برسول الله ﷺ. وبذلك أرضى كلا من الفريقين الصوفية والفقهاء على الآخر.

وشرح في كتابه (المنقذ من الضلال) كيف اهتدى إلى التصوف، وأنه العلم الوحيد الموصل إلى الله، ومن أجل ذلك هجر ما كان مشتغلا به من تدريس العلوم، وأقبل بكليته عليه، وألف فيه الكتب العديدة، وأعظمها وأكبرها كتاب (الإحياء) الذائع الصيت.

وظهر بعد الغزالي، الشيخ محيي الدين بن العربي الحاتمي المتوفى سنة 638هـ، وكان معاصرا للشيخ عمر بن الفارض المصري المتوفى سنة 632هـ، الشاعر الصوفي الكبير. والإثنان أو غلا في الشطح والقول بوحدة الوجود التي لايدركها على حقيقتها إلا أصحابها، وتبعهما في ذلك عبد الحق بن سبعين المرسي المتوفى سنة 669هـ، وتلميذه الشيخ أبو الحسن علي الششتري الأندلسي أيضا المتوفي سنة 663هـ، فكثر فيهم الطعن والقيل والقال، واختلف الناس فيهم من الكفر والزندقة إلى القطبانية أكبر درجات المعرفة في اصطلاح الصوفية.

وسلك التصوف معهم مسلكا فلسفيا غامضا قل من يفهمه على وجهه وحقيقته، وهو في الواقع تصوف الخواص والعارفين، لا تصوف العوام والمريدين.

وفهمه يحتاج إلى استعداد خاص، ولذلك نهى كثير من المشايخ عن مطالعة كتب هؤلاء، إلا لمن كان ذا أهلية واستعداد لذلك، خوفا من أن تفهم على غير وجهها وحقيقتها، فيضل القاصر عن القصد، ويتيه في متاهات ربما أدت به إلى الكفر والانحلال من الدين بالمرة، كما وقع لكثير من القاصرين الذين تطاولوا على غير مقامهم، فضلوا وأضلوا.

وهكذا أخذ التصوف وجهة فلسفية مع هؤلاء وأضرابهم، في الوقت الذي كان فيه أبو الحسن الشاذلي الغماري المتوفى سنة 656هـ ينشر طريقته ومدرسته الصوفية القائمة على مشرب التصوف العملي، والتقيد بطريقة السلف في الزهد والعبادة والاشتغال بذكر الله، ولذلك ناصر طريقته جماعة من العلماء من أمثال: عز الدين بن عبد السلام (تـ660هـ) وغيره.

وألف الحافظ السيوطي في تأييدها كتاب (تأييد الحقيقة العلمية، وتشييد الطريقة الشاذلية) وهو مطبوع بمصر.

وأبو الحسن الشاذلي هو تلميذ المولى عبد السلام بن مشيش(4) المتوفى سنة 622هـ، أخذ عنه ثم انتقل بعد ذلك إلى تونس، واستقر بشاذلة فنسب إليها. ثم انتقل منها إلى مصر واستوطن الإسكندرية حوالي سنة 642هـ، فحصل عليه إقبال كبير، وأخذ عنه خلق كثير، منهم: عز الدين بن عبد السلام الملقب بسلطان العلماء، والشيخ أبو العباس المرسي (ت686هـ)، الذي صحبه من تونس، وهو أجل تلامذته، ووارث سره وخلفه من بعده، وهو صاحب المشهد الكبير بالإسكندرية، وشيخ البوصيري صاحب البردة والهمزية، وابن عطاء الله صاحب الحكم.

ولم يزل أبو الحسن مستوطنا بمصر إلى أن مات بها وهو في طريقه إلى الحج (بخميثرا) قرب أسوان، وتبعد عن القاهرة بنحو ألف كيلومتر، وعلى قبره قبة ومسجد، رغم أن الموضع صحراء وقفار.

وهو صاحب الطريقة التي تعتبر من أكبر الطرق الصوفية وأكثرها انتشارا في المعمور. وعنها تفرعت سائر الطرق الصوفية بالمغرب. بل وتكون هي والمذهب المالكي في الفقه وعقيدة الأشعري في التوحيد الشخصية المسلمة في المغرب وتعتبر المذاهب الرسمية فيه.

4) تأسيس الزوايا بالمغرب :

إن الكلام عن التصوف بالمغرب، يجرنا حتما إلى الكلام عن المعاهد والمدارس، التي تخرج منها وترعرع فيها أقطاب الصوفية بهذا البلد.

والتصوف بالمغرب مقرون بذكر الزوايا، فلا يمكن بأي حال من الأحوال الكلام على أي صوفي مغربي، دون الكلام عن المدرسة التي نشأ فيها وترعرع فيها هذا الصوفي، وهي الزاوية.

ولفظ الزاوية أو الزوايا، هو اصطلاح خاص بالمغاربة، أما في المشرق، فتعرف بـ«خانقاه» أو «تكية» وكلاهما لفظ أعجمي.

ومع أن الزوايا تأسست أول ما تأسست بقصد تلقين المريدين القيام بشعائر الصوفية، فإنها لم تلبث أن تحولت إلى مدارس دينية، لم تقتصر على تلقين الأوراد، والتفرغ للخلوة والعبادة. بل تعدت ذلك إلى تلقين العلوم الإسلامية بكامل فروعها.

وأقيمت حولها المدارس والأبنية لسكنى الطلبة، فأصبحت الزاوية تقصد لأخذ

---

4) يضبط ابن مشيش بالميم ـ وهو المشهور عندنا بالمغرب ـ وبالباء فيقال : ابن بشيش.

التصـــوف والعلـم معـــا. كما أصبحـت مقصـودة للضيـــافـة وإيـواء الغـــربـاء والمسافـرين، حتى قيل في تعـريفها: «إنها مدرسة دينية ودار مجانية للضيافة».

ولا زال هـذا المعنـى مفهـومـا عنـدنـا بالمغـرب، حيث يفهم من دار الـزاوية أنها الدار المقصودة للضيافـة، وإطعام الطعام، فيقال مثلا: «دَارْهُمْ دَارْ الزَّاوْيَة».

ومن أقـدم الزوايا التـي اشتهرت بهذا الاسم في المغرب، زوايـا الشيخ أبي محمد صالـح الآسفي المتوفى سنـة 631هـ، وقد تعـددت زواياه حتـى بلغت ستـا وأربعين زاوية.

وانتشرت في كـل مـن المغـــرب ومصر والشـــام، إذ كـان هـــذا الشيـخ يشجـع أصحـابـه على الحج إلى بيت اللـه الحرام، وأسس عدة زوايا ينزل بها الحاج المغربي في ذهابـه وإيابـه، من آسفي إلى الحجـاز. ويعد ركبه الذي كـان يقوم من آسفي أول ركب للحاج المغربي.(5) واستقر غير واحد من أبنائه بهذه الزوايا للقيام على شؤونها والوافدين إليها. وظلـت زاوية الإسكندرية قائمة إلى القـرن الحـادي عشر، حيث زارها الشيـخ أبـو سـالم العيـاشي المتـوفى عـام 107هـ، وقـال إنها من مـزارات الإسكندريـة، ينزل بها الحجـاج المغاربَـة، ولهم أوقاف عليها.

وابتداء من القرن الثامن للهجرة، الموافق للـرابع عشر الميـلادي، تكـاثـرت الـزوايـا بالمغرب. وانتشرت في كل جهاته، وتأسست حول أمهاتها مدارس لطلبة العلم.

ويرى بعض الباحثين المعاصرين(6) أن أهـل الـزوايـا كـان لهم فضل السبـق إلى تأسيس هـذه المدارس، مما دعـا المرينيين إلى العنايـة بها وإقامتهـا، بجانـب المراكز العلمية بالمغرب، وخاصة القرويين.

وإذا كنـا نعلـم مـا كـان لمدارس بنـي مـرين التـي أسسـوهـا في كل مـن فـاس ومكناس ومراكش وعـواصم العلم ـ آنذاك ـ من أثـر على ازدهـار الحركـة العلميـة، وتشجيعهـا، فضـلا عن نـاحيتهـا الفنيـة والمعمارية التي لا تـزال مفخرة المغرب إلى الآن، وعلمنا ما كـان لعملهم هذا من حمل من جـاء بعـدهـم من ملـوك المغـرب على الاقتـداء بهم في هذا الميـدان، وكـانّ فضل السبق إلى تـأسيسها يـرجع إلى الزوايـا ـ علمنا أي فضل أسدتـه الزوايا إلى النهضة العلمية بالمغرب، سواء من هذا الطريق غير المباشر، أو مـن طريقهـا المباشر، وهـو ما قامت به مـدارسها الخاصة من دور مهم

(5) محمد المنوني في كتابه (ركب الحاج المغربي) ص 7 وما بعدها ـ مطبعة المخزن بتطوان ـ ط 1953.

(6) د. محمد حجي في بحثه القيم عن الزاوية الدلائية الذي نال به درجة الدبلوم ـ ص 25 ط 1384هـ / 1964م.

في ميدان العلم والثقافة، لا يقل في بعضها عن دور القرويين المعروف، إن لم يفقه في بعض الأحيان كما سيأتي.

بالإضافة إلى ما قامت به في ميدانها الرئيسي، ميدان الوعظ والإرشاد، والدعوة إلى الله، وترويض النفوس وتهذيبها، وتحبيب العباد إلى ربهم. وجعل ذلك غايتهم الأولى التي يبذلون من أجلها كل جهودهم، فيضحون بأوقاتهم من أجلها، ويطوفون البلاد في سبيلها، طولها وعرضها، سهولها وجبالها، قاصيها ودانيها. فكانوا يتخذون من أنفسهم دعاة ومبشرين - في اصطلاح الوقت - للإسلام وفضائله، يعلمون الجاهل، ويعطون من أنفسهم القدوة الصالحة والمثال الحسن، مما يجعل الإقبال عليهم والتأثر بكلامهم سهلا ومقبولا. فما إن يستقر مريد من مريديهم بين أهله وذويه حتى يكون موضع تقدير وإكبار. ثم لا يزال بهم إلى أن يحملهم على سلوك طريقته والاقتداء به في أعمال الخير والإنابة إلى الله.

5) دور الزوايا في الحفاظ على المقومات الإسلامية بين عموم قبائل المغرب :

ولن يقدر أعمال التصوف حق قدرها، وما كان لزواياه من أثر على أخلاق الناس وتهذيبهم، وحملهم على التمسك بجادة الدين، والتعلق بأحكامه وتعاليمه، إلا من درس تاريخ المغرب في العصور التي اجتاحت البلاد فيها فتن داخلية وخارجية، وتقلص نفوذ السلطة المركزية إلى حظيرة المدن وحدها، ولم تبق هناك سلطة قادرة على حفظ النظام، وكف عادية الظالم عن المظلوم، فضلا عن تعهد الرعية من الناحية الدينية والعلمية والأخلاقية، وإمدادها بما يلزم من الوعاظ والعلماء، ولا سيما في النواحي النائية من مركز سلطتهم. فعمت الفوضى، وانتشر الجهل، وخلت جهات كثيرة من أهل العلم، وعاد أهلها إلى جاهليتهم الأولى، فحكموا الأعراف والتقاليد، وصار ينهب بعضهم البعض، ويغير عليه.

ثم جاء الغزو الأجنبي، فزاد في حيرة الناس واضطرابهم، وساءت الأحوال عموما، وأصيب الناس في دينهم ودنياهم، وخاصة في الجهات النائية التي لم تستضىء بنور العلم، ولم يكن بها علماء يثبتون الناس ويعظونهم. فكان من عناية الله بهذه البلاد وفضله على أهلها، أن صادفت هذه الأحوال المذهلة التي تردى فيها المغرب ابتداء من العصر الوطاسي، وما رافقه وتبعه من أحداث، وجود هذه الزوايا وانتشار أتباعها في طول البلاد وعرضها، فأخذت على عاتقها مهمة التذكير، وتثبيت الناس على دينهم

عقائدهم، فكانت بمثابة منارات إشعار
إرشاد في وسط ليل بهيم، يشع منها
ور الإيمان والعلم والإسلام، ويهتدي
لناس في ضوئها إلى الطريق المستقيم.

وبالرجوع إلى تاريخ قبائل المغرب،
إستقراء أحوالها الماضية والحاضرة، نجد
ن أغلب القبائل التي عرفت التصوف
الصوفية ـ وكانت ميدانا لرجالاتها ـ
ظلت في الغالب محافظة على دينها في
تقاليدها وأحكامها، ولم تستبدل به عرفا،
ظل أهلها محافظين على تعليم أبنائهم
لقرآن، وتوظيف الفقهاء والطلبة
بمساجدهم، على عكس القبائل الأخرى، التي ترددت إلى أعراف جاهلية وإباحية، تجعل الواحد منهم يتزوج بلا عدد ويطلق بلا عدد. ويقدم الرجل زوجته إكراما لضيفه، ويغضب إذا تعفف فردها عليه.

وقل مثل هذا في معاملاتهم الأخرى، مما أطمع الفرنسيين أخيرا، في فصلهم عن الأمة تمهيدا لتنصيرهم، وفصلهم عن بقية المغاربة، واستصدروا له الظهير البربري المعروف، الذي كان له فضل بعث الحركة الوطنية في المغرب.

«يتبع»

طنجة ـ محمد علي بن الصديق



القراءات
الآلة الأولى للمفسر

للدكتور الراجي التهامي الهاشمي

مـا أعتقد أننـي في حاجـة إلى تعريـف القراءات إذ سبـق أن حددتها في كثير مـن المناسبـات كتابـة وشفويـا. وما أظـن أن عـدم التذكير بهذا التعـريف يحول بيننـا وبين المضي في عرض ما نقصد إليه اليوم؛ وهو أن نبين أن القراءات القرآنية المتواترة وغير المتواترة هي بحق وحقيق، الآلة التي يجب أن تعطـى لها الصـدارة في تفسير كتاب الله العزيز.

الناس يقولون : «**القرآن يفسر بعضه بعضا**» ذا صحيـح ثـابت لاغبـار عليـه، القرآن يفسر بعضه بعضا. لكـن كيف؟ ما هـو هـذا البعـض المفسر. ومـا هـو هـذا البعض المفسر؟

القرآن تطرق لنفس الأمـر تارة بإيجاز وتارة بـإطناب، وعـرض لنفس الشيء على وجه العمـوم تارة وعلى وجـه الخصوص أخرى. ووضح الشيء إجمالا ثم بين الشيء ذاتـه تبيينـا، وأطلـق الكـلام على شيء في موضوع ثم قيد هذا الشيء عينه في موضع آخر.

ذلك الكلام الذي جاء موجزا، مختصرا، حول موضوع مـا في مكان، يفسره ما جاء مسهبا، مطنبا، في نفس الموضوع في مكان آخر. نجد ذلك في قصص كثير من قصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وهذا شيء معروف عنـد الجميع لاحاجة إلى الـوقوف عنده.

ونقـول إن الآيـات التـي تعـرضت لموضوع ما على وجه العموم، تفسرها آيات وردت حـول نفـس المعنـى على وجـه الخصـوص، ممـا يجعلنا نحمـل، ونحـن

طمئنـون، العـام في آيـات على الخاص في
يات أخـرى. إننا مثـلا نستثني بـواسطة لآيـة المخصصـة الواردة مثـلا في قـولـه تعالى: ﴿**الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين**﴾(1) نستثنـي المتقين مـن غي الخلة في يوم القيامة الواردة على وجه لعموم في الآيـة الكريمـة: ﴿**يـأيها الذين امنوا أنفقوا مما رزقنـكم من قبل أن ياتي يوم لابيع فيه ولا خلة ولا شفـعة والكـفرون هم الظلمون**﴾.(2)

عموم آيـة فسر بخصوص آيـة أخرى. ـال عمـومـا: ﴿**والمطلقـت يتربصـن بأنفسهـن ثلاثـة قروء**﴾،(3) تـأتي آيـة خـرى أو آيـات أخـر، على الخاص، تفسر ذا العموم وتحدد مـداه، (أي تحدد مدى لعموم) مستثنيـة من حكمـه المطلقة قبـل لدخـول بها. قال: ﴿**يـأيها الذين ءامنوا ذا نكحتم المومنـت ثم طلقتموهـن من بل أن تمسوهن فما لكم عليهن من عدة تعتدونها فمتعوهن وسرحـوهن سراحا جميلا**﴾.(4)

ولم يكـن هذا الخصـوص لتمديـد ذاك لعموم، فقـال مخصصـا أكثـر: ﴿**وأولـت الاحمال أجلهن أن يضعن حملهن...**﴾.(5)

أما الذي جاء مجمـلا في القرآن الكريم، وهو كثير، فـإن الذي يفسره ويشرحـه هو ما جاء في معناه، لكن مبينا.

أجمل الحق سبحانه وتعـالى الكلام عن العهـدين؛ عهـد اللـه وعهـد عباده. فقـال: ﴿**وأوفوا بعهدي أوف بعـهدكم**﴾.(6)

وبما أن الكـلام جـاء في هـذه الآيـة **مجملا**، فلا نستطيـع أن نعرف بـالضبط المقصـود بعهـدي والمقصـود بعهـدكم؛ لانستطيع إلا إذا عدنـا إلى آية **مبينة** لهذا الأمر؛ والآية **المبينة** لهذا، هـي آيـة المائدة التـي ستتطـرق، ببيان شـاف، إلى العهـد الأول، فتبينه بما يشفي الغليل، وإلى العهد الثاني، فتـوضحه بما يـزيل كـل غموض. يقول عن العهد الأول؛ أي وفاء العبد بعهد الله: ﴿**لئن أقمتم الصلاة وآتيتـم الزكاة وآمنتم بـرسلي وعزرتموهـم وأقرضتـم الله قرضا حسنا...**﴾(7) هذا بيان لـوفاء العبد لربه، وهـو تفسير لما أجمل في قوله: ﴿**وأوفوا بعهدي**﴾ ويقول عن وفـاء الله بعهـد عبـاده ﴿**لأكفرن عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنـت تجري من تحتها**

(1) الزخرف، الآية 67.
(2) البقرة، الآية 254.
(3) البقرة، الآية 228.
(4) الأحزاب، الآية 49.
(5) الطلاق جزء من الآية 4.
(6) البقرة، جزء من الآية 40.
(7) المائدة، جزء من الآية 12.

الانهار...﴾. بهذا البيان اتضح لنا ذلك الكلام المجمل ﴿**أوف بعهدكم**﴾.

وهو حين يقول لنا في سورة المائدة بشكل مجمل: ﴿**أحلت لكم بهيمة الانعٰم إلا ما يتلى عليكم**﴾،(8) لنفهم ذلك، لابد أن نقرأ **مبينه** الذي يفسره. يقول في الآية التي **فصلت** هذا الإجمال المتعلق ببهيمة الأنعام: ﴿**حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير...**﴾.(9)

ونجد ما يؤيد هذه المقولة: القرآن يفسر بعضه بعضا في الآيات **المطلقة**، إذ أن هذه تفسرها الآيات **المقيدة** إن وجد دليل على تقييدها طبعا كما يقال، وإلا أبقينا المطلق على إطلاقه، والمقيد على تقييده كما هو معلوم.

فحينما ننظر إلى آية الظهار، مثلا، نرى أن الكفارة فيها بتحرير رقبة مطلقة. هذا على الأقل ما تنص عليه الآية: ﴿**والذين يظهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا...**﴾.(10)

ولا يغير التباين الموجود في قراءة «تظهرون» من هذا الإطلاق شيئا. إذ لايعدو الخلاف القائم بينهم من أن يكون لغويا صرفا. فحين يقرأ عاصم (يظـٰهرون) يحتج بقولهم: «الظهار» الشائع على الألسنة، وحين يقرأ السامي والأخوان «يظـٰهرون» فإنما هو من «تظاهر» دخل عليه حرف المضارعة كما وقع في حرف الباقين «تظهر» ثم وقع لتاء المطاوعة مالا يخفى أمره على أحد.

لكن عندما ننظر إلى آية القتل الخطإ نرى أن الرقبة مقيدة بمومنة تنص على ذلك الآية: ﴿**ومن قتل مومنا خطأ فتحرير رقبة مومنة...**﴾.(11)

لقد أصبحت هذه الآية مقيدة لآية الظهار، وإذن فإن كفارة الظهار هي رقبة مومنة حملا للمطلق على المقيد.

وحينما نقرأ آية الوضوء، نلاحظ أننا أمرنا بغسل أيدينا إلى المرافق:

﴿**يـٰأيها الذين ءآمنوا إذا قمتم إلى الصلوٰة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق...**﴾(12) فماذا نفعل حين نتيمم؟. الآية الخاصة بالتيمم لم تقيد الأيدي بشيء. تقول: ﴿**...فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه...**﴾.(13) نقول إذن مع أكثر الفقهاء الذين يحملون المطلق على المقيد في صورة

---

8) المائدة جزء من الآية 1.

9) المائدة، جزء من الآية 3.

10) المجادلة جزء من الآية 3.

11) النساء، جزء من الآية 92.

12) المائدة، جزء من الآية 5.

13) نفس السورة ونفس الآية أعلاه.

ختلاف الحكمين عند اتحاد السبب: نقيد
لأيدي في التيمم بالمرافق أيضا حملا
مطلق على المقيد.

ثم إنه لا يمكن للمفسر أن يخرج
طمئنا من تلكم الآيات التي يتوهم أن
ينها اختلافا إلا بالاعتماد على هذه القولة:
قرآن يفسر بعضه بعضا. وفعلا سيومن
ن آدم خلق من طين لما يقرأ، في سورة ص
وله تعالى: ﴿**إذ قال ربك للملائكة إني
لق بشرا من طين**﴾،(14) لكنه سيغير
تقاده حين يقرأ في الحجر: ﴿**ولقد خلقنا
لانسن من صلصل من حمإ
سنون**﴾،(15) ويومن أنه خلق من
لصال من حمإ مسنون، ولا شك أنه
يغير ثالثا اعتقاده حين يسمع الحق
بحانه وتعالى يقول في سورة آل عمران:
**إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم،
لقه من تراب ثم قال له كن
يكون**﴾،(16) ويومن أنه خلق من تراب.
لا يستبعد أن يغير رأيه حين يقرأ في
ورة الرحمن قوله تعالى: ﴿**خلق
لانسن من صلصل كالفخار**﴾(17)
سيرى أنه خلق أيضا من طين لازب حين
لو في سورة الصافات قوله تعالى:
﴿**فاستفتهم أهم أشد خلقا أم من خلقنا
إنا خلقنهم من طين لازب**﴾.(18)

لكنه حتما سيلاحظ، إن كان يعرف استغلال الضابط المشار إليه أعلاه، أن من الجمع بين هذه الآيات يتضح أن ليس بينها تعارض البتة. سيتفطن إلى أن هذه الآيات لاتتحدث عن المادة التي خلق منها آدم فحسب، وإنما تتحدث عن المراحل المتعددة التي مرت بها. فالمادة الأساسية هي التراب، والتراب يسمى كذلك ما لم يخلط بماء، فإن مزج بماء سمي طينا، فإن أصبح هذا التراب الذي مزج بماء لاصقا سمي طينا لازبا. فإن اسود هذا الطين اللازب وتغير، انقلب إلى حمإ مسنون. فإن ترك حتى يبس أصبح له صوت يسمى صلصلة. ولذا أطلق الحق سبحانه وتعالى على هذه المرحلة اسم الصلصال. فإن طال أمد هذا الصلصال جف أكثر، حتى خيل للناس أنه طبخ بنار. لذا سمى القرآن الكريم هذه المرحلة صلصالا كالفخار.

هذا المنهج الذي اعتمدنا عليه لفهم هذه الآيات يعرف بتفسير القرآن بالقرآن. والناس يعتقدون أن هذه القولة قيلت

) ص، الآية 71.
) الحجر، الآية 26.
) آل عمران، الآية 59.
) الرحمن، الآية 14.
) الصافات، الآية 11.

للقرآن خاصة. والحق أن الأمر ليس كذلك. إذ تفسير ما جاء موجزا بما جاء مسهبا، وتفسير المطلق بما جاء مقيدا، وتفسير المجمل بما جاء مبينا، آلات تستعمل في كل فنون القول؛ في النص الأدبي، شعرا ونثرا، وفي ميدان الفقه وفي غيرهما على السواء.

القرآن يفسر بعضه بعضا، مقولة تتجلى أهميتها حين يفسر القرآن نفسه عين ذلك القرآن، أي حين نأخذ الآية التي غاب عنا معناها وهي على صيغة ما، فنفسرها بنفس الآية حين نوردها بصيغة غير الصيغة الأولى.

نقرأ الآية بقراءة فلا يتضح لنا معناها، لكن حين نقرأها بقراءة متواترة أخرى يتضح الأمر ويبين. وكثيرا ما تساعدنا القراءة غير المتواترة في فهم ما غاب عنا من كتاب الله.

ولا يمكن بحال من الأحوال أن يقوم تفسير للقرآن الكريم على رواية واحدة يعتمدها المفسر غاضا الطرف عن الروايات الأخرى التي قد يجهلها.

التفسير الذي هذا هو شأنه، تفسير لبعض مراد الله، ومراد الله لا يتجزأ بحال من الأحوال.

التفاسير المتداولة بيننا اليوم تفاسير روايات القرآن لا تفاسير للقرآن الكريم، لاسيما وأن الناشرين لهذه التفاسير يحرصون كل الحرص أن يكتبوا القرآن بالرواية التي يعرفونها ولا يعرفون إلا رواية واحدة، فإن سمعوا روايات أخرى تتلى عليهم رفضوها، واعتقدوا أن ما يسمعونه لحن لا يقبل.

لهذا أحب أن أوضح أنه لا يمكن أن يكون بعض القرآن مفسرا للبعض الآخر إلا إذا اعتمدنا تباين القراءات في الآية الواحدة.

فعندما نقرأ قوله تعالى: ﴿**فأزلهما الشيطٰن عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الارض مستقر ومتـٰع إلى حين**﴾.[19]

العالم الإسلامي لا يقرأ الآن من أقصاه إلى أقصاه إلا فأزلهما بدون ألف بعد الزاي وبالتضعيف، مع أن الحق سبحانه وتعالى لم يقل فقط «فأزلهما» وإنما قال أيضا «فأزٰلهما». وأسمع جبريل محمدا عليهما الصلاة والسلام ذلك، وسمع الصحابة رضوان الله عليهم من رسول الله ذلك ورووه عنه. فهو إذن قرآن يتعبد به ولا يجوز بحال من الأحوال إهماله وتجاوزه.

هذا التباين في القراءات هو الذي يمكن أن نقول عنه، القرآن يفسر بعضه بعضا. كيف يمكن أن نطبق ذٰلك هنا؟

«فأزالهما» التي يقرأ بها حمزة رحمه الله من الزوال والتنحية. مماذا فهمنا ذٰلك؟

19) البقرة، الآية 36

من صدر الآية قبل، إن الله أمر آدم بالثبات في الجنة حيث قال له: **﴿أسكن أنت وزوجك الجنة﴾** أمره بالثبات والاستقرار فيها. لكن الشيطان اللعين أزالهما عنها. لأن ضد الثبات الزوال. ففسر لنا قوله: **﴿اسكن أنت وزوجك الجنة﴾** بـ**﴿فأزالهما الشيطان عنها﴾**. لاسيما وأن **﴿فأزالهما﴾** بالمعنى الذي بينته مناسب لما بعده وهو **﴿فأخرجهما مما كانا فيه﴾** وليس الخروج من المكان إلا الزوال عنه.

وقرأ غير حمزة بغير ألف وبالتضعيف، وحسنت أيضا قراءتهم لما جاء في سورة آل عمران التي يمكن أن تكون مبينة لآية البقرة قال **﴿إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعن إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم إن الله غفور حليم﴾**.(20)

ونحن من جهة أخرى إن قرأنا قوله تعالى: **﴿فتلقى آدم من ربه كلمت فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم﴾**.(21) قد نفهم، بل يجب أن نفهم أن آدم هو الفاعل الذي يتلقى الكلمات التي هي، في هذا التقدير، مفعول به. لكن ما معنى أن يتلقى آدم الكلمات؟ ربما أدركنا أن معنى تلقى «فهم» و«فطن» وربما نذهب أن معناه «أخذ»؛ أي أخذ آدم من ربه كلمات ونقدر أنها الكلمات التي ألهمها فانتفع بها. وممكن أن نفهم أن تلقي آدم للكلمات، هو قبولها، وتعلمه لها وعمله بها.

لكن هذه الآية لم توح لرسول الله ﷺ بهذه الصيغة فقط. لقد أوحيت له على شكل آخر لو قرأنا به الآن كما قرأ به رسول الله ﷺ، والصحابة رضوان الله عليهم من بعده، والتابعون الآخذون عنهم، والسلف الصالح كذلك، ومن بينهم ابن كثير المكي رحمه الله، لأدركنا مراد الله من كلامه، ولتحققنا أن صيغة من هذه الآية تساعد على فهم الصيغة الأخرى. أي أن قرآنا يفسر بعضه بعضا. قال رب العالمين: **﴿فتلقى آدم من ربه كلمت فتاب عليه، إنه هو التواب الرحيم﴾**، تغير الوضع الآن على ما كان عليه في الصيغة الأولى؛ فأصبح ما كان قبل فاعلا مفعولا به، وما كان مفعولا فاعلا. قد يرد علي راد فيقول: إذا أصبحت الكلمات فاعلة، فعليه أن يقول: **﴿فتلقت آدم من ربه كلمت﴾** قلت: حذف علامة التأنيث حين يبعد ما بين المؤنث وفعله أصل يجري في كل القرآن ولا تكاد تخلو منه سورة طويلة أو متوسطة.

هذه الكلمات الفاعلة هي التي أنقذته ويسرت له التوبة من الله. **فهي المستنقذة**

(20) آل عمران، الآية 155.
(21) البقرة، الآية 37.

له وهو **المستنقذ بها**، فتاب الله عليه بدعائه بها إنه هو التواب الرحيم.

ولو قرأنا هذه الآية **﴿وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظلمون﴾**(22) هنا في البقرة، وقرأنا هناك في الأعراف **﴿وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممنها بعشر فتم ميقت ربه أربعين ليلة، وقال موسى لأخيه هرون اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين﴾**(23) وقرأنا هنالك في طه: **﴿يبني إسرائيل قد انجينكم من عدوكم وواعدنكم جانب الطور الايمن ونزلنا عليكم المن والسلوى﴾**(24) لو قرأنا هذه الآيات بهذا الشكل فقط، كما يفعل الآن المسلمون إلا نزر قليل من قراء السودان والتشاد، لبقي غموض عالق بالأذهان ولما حصل عندنا المراد كاملا كما يحبه الله.

حين نقرأ واعدنا بالألف وواعدناكم بالألف أيضا، نومن أن المواعدة كانت من الله ومن موسى ومن الله ومن بني إسرائيل، نفهم أن الله واعد موسى لقاءه على الطور ليصطفيه بكلامه، ويكرمه بمناجاته، وأن موسى واعد ربه المصير إلى الطور. نقول ذلك، لأن المواعدة أصلها من اثنين. وهذا ديدن القرآن. ألم نقرأ التواعد من الخاطب ومن المخطوبة في قوله تعالى: **﴿ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء أو أكننتم في أنفسكم، علم الله أنكم ستذكرونهن ولكن لاتواعدون سرا إلا أن تقولوا قولا معروفا﴾**.(25)

ولنتنبه إلى الخبر المروي عن تلك المواعدة التي كانت بين حزب الله وحزب الشيطان يوم بدر، حين يقول الحق سبحانه وتعالى: **﴿إذ أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى والركب أسفل منكم، ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعاد ولكن ليقضي الله أمرا كان مفعولا ليهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حيي عن بينة، وإن الله لسميع عليم﴾**.(26)

لكن لو نقرأ كما قرأ أبو عمرو والبصري، وقراءته متواترة ملزمة للجميع، لتغير فهمنا لهذه الآيات ولأوضحت لنا قراءة أبي العلاء. ما يمكن أن يكون بقي غامضا في قراءة الجماعة. إذن قراءة تفسر قراءة.

البصري يقول: المواعدة تكون بين الآدميين؛ أي من اثنين من البشر. فالوعد

22) البقرة، الآية 51.

23) الأعراف الآية 142.

24) طه، الآية 80.

25) البقرة، آية رقم 234 في العد البصري فقط.

26) الأنفال، الآية 42.

لم يكـن إلا من اللـه وحـده لموسى؛ فهـو سبحانه منفرد بالـوعد والوعيد. وعلى ذلك جاء القرآن الكريم: قال الله تعالى: ﴿**وقال الشيطـٰن لما قضي الامـر إن الله وعـدكم وعد الحق ووعدتكـم فأخلفتكم...**﴾.(27) لم يقـل واعـدكم ولا واعـدتكـم. وقـال في الأنفـال: ﴿**وإذ يعـدكـم اللـه إحـدى الطائفتين**﴾(28) لم يقـل يواعـدكم. وقـال: ﴿**فرجع موسى إلى قـومه غضبـٰن أسفا، قـال يقـوم ألم يعـدكـم ربكـم وعـدا حسنا**﴾.(29)

نفهم مـن كل هذا، أن الـوعد كـان من الله لموسـى وليس فيه وعـد من مـوسى. ويعزز هذا الاتجاه عندنا أن الفعل مضاف لى اللـه وحـده لهذا آمنـا بالأمـريـن معـا لمكونين لمراد الله عز وجل.

ونقـرأ قـولـه تعـالى: ﴿**وإن يأتـوكم سـٰرى تفـدوهم وهـو محرم عليكـم خراجهم...**﴾(29) فإن قـرأنا الآيـة بقراءة ـزة ـ ولا يقـرأ الناس بها الآن بكـل أسف ـ فإن ـعنى عظيما يحصل عندنا، معنى مقصودا ـن كلام اللـه، لايظهـر ونحن نقـرأ بغير ـراءته. قـال تعالى: ﴿**وإن يأتوكم أسرىٰ فدوهـم وهو محرم عليكم إخـراجهم**﴾. ـير الله بهذا الكلام بني قينقاع التي كانت ـدوة لقـريظة وحليفة لـلأوس، وعير بني قريظة التي كانت حليفة للخزرج. ومعلوم أن الأوس والخزرج أخـوان، وأن قـريظـة والنضير أيضا أخوان، ثـم افترقوا وصاروا يقتتلـون. وحين تضـع الحرب أوزارهـا يفدون أسراهم، فعيروا بسبب ذلك.

إن هـذه الصيغة التـي يقـرأ بها حمزة صيغة تدل على العجز، وعـدم الاستطاعة، وتنبيء بـالعلة مثـل ما يـدل عليه الـوزن فعلى في مرضى وصرعـى وقتلى وجرحى. فأسرى هـم السجناء الذيـن شد وثـاقهم. ومما يعزز هـذا المعنى الـذي أذهب إليـه وأرتضيـه قـولـه تعـالى قبلـه: ﴿**وإن ياتوكم**﴾ ولا يمكن أن يوتـى بالأسير من دار الحرب إلى دار السلـم دون أن يشـد وثـاقـه بشكـل مـا... وأن قـراءة حمزة لتساعـدنا على تفسير قولـه تعالى: ﴿**وهو محرم عليكم إخراجهم أفتومنون ببعض الكتـٰب وتكفرون ببعض**﴾. لقد أخذ الله على بني إسرائيل أربعة عهود:

1) ترك القتل.
2) ترك الإخراج.
3) ترك المظاهرة.
4) فداء أسراهم.

فـأعرضـوا عن كـل مـا أمروا بـه إلا الفداء، فوبخهم اللـه على ذلك توبيخا يتلى إلى أبـد الآبديـن. ﴿**أفتـومنـون ببعـض**

) إبراهيم، جزء من الآية 22.
) الأنفال، الآية 7.
) طه، الآية 84 في العد المدني الثاني.

الكتٰب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى اشد العذاب وما الله بغٰفل عما يعملون﴾.

وأما قراءة الجماعة وهي أسارى، فتعني ما صار في أيديهم من المغلوبين دون أن يشد وثاقهم.

وقرأ نافع وعاصم والكسائي تفادوهم بضم التاء وبالألف بعد الفاء بناء على أصل المفاعلة من اثنين، لأن كل فريق يدفع من عنده من الأسارى، ويأخذ من الآخر ما عنده من الأسارى. فتبقى الآية بهذه الصيغة التي قرأ بها هؤلاء الأئمة صالحة لكل حالة، سواء كان الفريق الأول غالبا، والفريق الثاني مغلوبا، والعكس، إذ قد يتقاتل الفريقان فيغلب أحدهما الآخر، ويأسر الغالب، ثم يتقابلان من جديد، فيغلب المغلوب ويأسر، ثم يتفادون.

وأما تفدوهم فقراءة المكي والبصري والسامي والأخوين، وهي تدل على أن أحد الفريقين يفدي أصحابه من الفريق الآخر بمال أو غيره، وهو معنى صالح أيضا مثل الأول. يطبقان على السواء في كل زمان ومكان.

ولولا وجود قراءة أخرى غير قراءة الجماعة للحرف «ولا تسأل» في قوله تعالى: **﴿إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا ولا تسأل عن أصحٰب الجحيم﴾**(30) لما أدركنا مراد الله كاملا.

الجماعة تقرأ بضم التاء واللام كما قرأ بها رسول اللهﷺ. ونحن حين تعبدنا بهذا الكتاب، متلوا بهذه القراءة، نومن أن الحق سبحانه وتعالى يخبر رسوله أنه غير مسؤول عن أصحاب الجحيم، مؤكدا له أن على الرسول البلاغ، وعلى الله الحساب. يقول له ذلك تسلية له لأنه كان، ولا شك، يغتم ويضيق صدره لإصرار قومه على الكفر وتصميمهم عليه، فهو إذن، إن أردنا أن نستعين بالدرس اللغوي، في موضع الحال بعطفه على قوله: «بشيرا».

بعض اللغويين الذين يحكمون اللغة أكثر من اللازم في التفسير، يستغربون من هذا التركيب. ذلك أنهم لا يستسيغون أن يعطف فعل، وهو «تسأل» على مفرد، وهو «بشيرا». وينسون أن هذا ديدن القرآن الكريم الذي يجب أن يكون المثل الأعلى للعربية لا العكس. لقد عطف القرآن الكريم الفعل على الإسم مثلا في قوله: **﴿إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه، اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيها في الدنيا والآخرة ومن المقربين، ويكلم الناس في المهد وكهلا ومن الصالحين﴾**.(31) فـ«يكلم» معطوف على «وجيها» وهو حال، وصح انتصابها رغم

30) سورة البقرة، الآية 119.

31) آل عمران الآيتان 45 ـ 46.

أنها نكرة لكونها موصوفة، كما أن قوله «من المقربين»، و«من الصالحين» معطوفان على «وجيها» أيضا. أي أن المسيح ابن مريم وجيها ومن المقربين، ويكلم الناس في المهد ومن الصالحين. أي يبشرك الله به يامريم موصوفا بهذه الصفات. أما أهل الجحيم الذين تتحدث عنهم آيتنا فيصفهم الله في الكتاب العزيز بعشرة أوصاف مذكورة في القرآن الكريم.

وما دمنا نركن إلى اللغة لمحاولة إدراك كلام الله؛ وليس ثمة من عيب أن نركن إليها طبعا، إن لجأنا إليها لوجدنا لهذه القراءة وجها آخر مقبولا، يحمل نفس المعنى المشار إليه أعلاه؛ معنى نستنبطه بواسطة شكل لغوي آخر.

نقول: الجمهور يقرأ «ولا تسأل» بضم التاء واللام معتبرينه منقطعا من الأول مستأنفا به.

أما الحجة التي أعتمدها لأقول هذا فثلاثة.

1 — **وجوب حصول المطابقة الكاملة بين أجزاء الكلام الإلهي.** هذا عام يسري في كل القرآن. وبما أن «و لا تسأل» خبر مستأنف به كما قلت كان قبله خبر هو: **﴿إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا﴾** وبعده خبر كذلك هو: **﴿ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم﴾**

2 — **قراءة أخرى لهذا الحرف** أحكم عليها بالشذوذ، لأن ضابط «مطابقة القراءة للرسم العثماني غير متوفر فيها، هذه القراءة التي يقرأ بها أبي رضي الله عنه هي «وما تسأل». إنها تقوم حجة قاطعة على أن الكلام مستأنف أو على أكثر تقدير في محل الحال.

3 — **قراءة ثانية لهذه اللفظة** هي قراءة ابن مسعود رضي الله عنه «ولن تسأل» قراءة شاذة أيضا لا محالة، بسبب عدم مطابقتها للرسم العثماني لكنها تساعدنا على تفسير القراءة المتواترة.

بعض الخائضين في التفسير يظنون حرف ابن مسعود في هذه الآية حالا، وهو غير ذلك؛ لأن جملة الحال لا تقترن عند العرب بالأداة «لن» وهي علامة الاستقبال.

لكن هذا الفهم للقرآن الكريم سيبقى ناقصا ما لم ننتبه إلى القراءة الأخرى لهذه اللفظة. فلم يقل سبحانه وتعالى: **﴿ولا تسأل﴾** بضم التاء واللام فقط وإنما قال أيضا **﴿ولا تسأل﴾** بفتح التاء وسكون اللام وهي قراءة إمام دار الهجرة انفرد بها دون سواه. وهذا الانفراد لا يقلل أبدا من شأنها، ولا يجعل القراءات الأخرى تفضلها بشيء البتة. إنها قرآن منزل على رسول الله، ملزم لنا بنفس الدرجة، نتعبد به مثل ما نتعبد بالباقي.

هذه القراءة - قراءة الإمام نافع رضي الله عنه كونت مع قراءة الجماعة المشار إليها سابقا المراد الشامل الكامل لكلام الحق سبحانه وتعالى، وهو مراد ملزم كله للجميع.

ماذا نفهم من قراءة الإمام نافع؟

نفهم منها ثلاثة أمور:

الأمر الأول : إن الحق سبحانه وتعالى نهى رسولهﷺ أن يسأل عمن عصى وكفر من الأحياء. ومن يدري؟ لعل حال الضال تتغير فينقلب عن الكفر إلى الإيمان، ويتحول عن المعصية إلى الطاعة.

لكن الشيخ القيسي يرى أن النهي بعيد الاحتمال ويقول: «لو كان نهيا لكان بالفاء كما تقول أعطيتك مالا فلا تسأل غيره».(32)

لكن هذا مردود عليه. فما جاء هذا في مثاله الذي مثل به إلا لأن إعطاء المال علة لئلا يسأل غيره. أما هنا في الآية التي بين أيدينا فلم تكن الرسالة بالبشارة علة لئلا يسأل عن أصحاب الجحيم.

يقول له ربه : لا تسأل عن الكفار، مالهم لم يومنوا، لأن ذلك ليس إليك.

قراءة نافع فسرت إذن قراءة الجماعة، أو على الأصح تممت مراد الله الذي يجب أن نومن به.

هذه القراءة البينة معززة من طرف آيات أخرى، يقول له الحق سبحانه وتعالى: ﴿**فإن اعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظا إن عليك إلا البلاغ**﴾.(33)

بقراءة نافع وبالآيات المؤكدة لها المشار إليها في الهامش 32 يخفف رب العالمين عن رسوله الأمين ما كان يجده من عناد الكفار. فكأنه قيل له: لست مسؤولا عنهم. فلا يحزنك كفرهم. نستنبط نحن الآن من هذا دليلا هو: «لا يسأل أحد عن ذنب أحد».

الأمر الثاني : نفهم من قراءة نافع وإن كانت فريدة ما دامت متواترة النهي عن السؤال عمن مات على كفره ومعصيته، يروى أن رسول الله ﷺ سأل ذات يوم قائلا، «ليت شعري ما فعل أبواي. فنزل النهي عن السؤال عنهما. هذا النهي هو الدليل على صحة جزم الفعل «ولا تسأل».

الأمر الثالث : جزمها (أي جزم اللفظة ولا تسأل) على تعظيم الأمر أي لا تسأل يا محمد فقد بلغوا - جزاء ما اقترفوا - غاية العذاب التي ليس بعدها مستزاد.

---

32) الكشف عن وجوه القراءات وعللها وحججها. ج 1/262.

33) جزء من الآية 48 من سورة الشورى وتمامها: ﴿**...وإنا إذا أذقنا الإنسان منا رحمة فرح بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم فإن الإنسان كفور**﴾، والآية موضحة أشد ما يكون التوضيح ما يجب أن يفعله الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه مع المعارضين. وهو ما تؤكده أيضا الآية 82 من سورة النمل والآية 54 من سورة النور ولآية 18 من سورة العنكبوت والآية 12 من سورة التغابن.

وأحب أن أقف قليلا هنا في الأمر الثالث؛ أمر يحتاج ليتضح جيدا إلى بيان إضافي نستقيه من علم الاتصال أو مما أسميه بدلائلية الاتصال.

نعلم أن في كل عملية الخطاب ستة عناصر هي كما يلي:

1 - **باث يبث الخطاب**، وأسميه أيضا المرسل أو المخاطب (بكسر السين والطاء).

2 - **متلق يتلقى الخطاب** من الباث، وأسميه أيضا المرسل إليه أو المخاطب (بفتح الطاء). وهما يتناوبان عادة في الدور. فالباث حينما ينتهي من بحثه يصبح متلقيا ممن صار باثا بعد أن كان متلقيا، وهذه هي عملية الخطاب.

3 - **قناة تصل الباث بالمتلقي**، ويجب أن تكون متصلة غير متقطعة، تنقل الكلام كله بوضوح لا يخالطه تشويش من شأنه أن يفسد محتواه.

أنا لا أسمي القناة بهذا الاسم حينما أكون أدرس موضوعا قرآنيا أو حديثيا، وإنما أطلق عليه اسم «مراتب».

وعليه فإن مراتب الوحي عند رسول الله ﷺ خمس:

أ - الرؤيا الصادقة.

ب - صلصلة الجرس.

ج - النفث في الروع.

د - إرسال ملك.

وهذا الإرسال من نوعين:

1 - حين يرسل على صورة رجل.

2 - حين يرسل على الصورة التي خلقه الله عليها.

هـ - الخطاب من وراء حجاب.

4 - **مرجع يرجع إليه كل من الباث والمتلقي**. ولابد أن يكون قابلا أن يتحقق منه عند الاقتضاء. فلا يمكن أن يكون مرجعا، الشيء الذي لايومن بوجوده أحد أو على الأصح لايصدق أحد بوجوده. مرجعنا الذي يدور حوله الكلام هو بم ولم أرسل محمد ﷺ.

5 - **بلاغ وهو الكلام الذي يستعمل للحديث عن ذلك المرجع**؛ والكلام هنا هو كلام الله المعجز بلفظه ومعناه.

6 - **القانون الذي يتحكم في البلاغ والذي يجب أن يكون معروفا من طرف الجميع: الباث والمتلقي على السواء**. القانون هنا هو أساليب اللغة العربية وناموسها المتحكم فيها، أضيف إليها الإعجاز الإلهي الذي لم يستطع أحد من الخلق الإتيان بمثله.

ونعود الآن إلى الأمر الثالث الذي كنا وقفنا عنده، كنا قلنا هناك: إن «ولا تسأل» مجزومة عند نافع على التعظيم. الآن وقد قدمت ملاحظة حول عملية الكلام؛ ملاحظة أرجو أن تكون مهدت الطريق لشرح هذا الأمر الثالث الذي لايدرك كنه جميعه في نظري إلا بهذا التنبيه؛ أقول:

الآن نستطيــــــع أن نشرح لماذا الجزم ولا «تسأل»:

إما أن يكون وجه التعظيم بسبب الباث (المرسل، المخاطب) وهو هنا، كما لا يخفى، الحق سبحانه وتعالى الذي لايريد - بفضله وكرمه - أن يجري في كلامه ما فيه قساوة وغلظة شديدتان على مسامع حبيبه محمد ﷺ، رغم أن الأمر يتعلق بأهل النار.

وإما أن يكون بسبب المتلقي (المرسل إليه، المخاطب) وهو هنا الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه الذي لايقدر - لما جبل عليه من خلق حسن تصديقا لقوله تعالى في سورة الفتح: **﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾**، ولقوله تبارك وتعالى: **﴿ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك، فاعف عنهم، واستغفر لهم، وشاورهم في الأمر، فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله، يحب المتوكلين﴾**.(34)

أقول: الرسول الكريم الذي لايقدر أن يسمع خبر أهل الجحيم لما فيه من إيحاش للسمع، وإضجار له، والله أعلم بالمراد.

يقول أبو حيان الغرناطي:(35) «فيكون معنى التعظيم إما بالنسبة إلى المجيب وإما بالنسبة إلى المجاب، ولا يراد بذلك حقيقة النهي».

الرباط - الدكتور التهامي الراجي الهاشمي

34) آل عمران جزء من الآية 159 في العد الكوفي والمكي والمدني الأول و158 في المدني الثاني والدمشقي والحمصي.
35) البحر المحيط ج 1 ص 3068 السطر 14.

أضواء على تفسير إمام دار الهجرة للقرآن الكريم

للأستاذ محمد عز الدين المعيار الادريسي
كلية اللغة العربية بمراكش

توطئة :

انصب الاهتمام بشخصية مالك العلمية ـ بالدرجة الأولى ـ على جانبين اثنين هما: الحديث والفقه، ولا ريب أنهما من أخصب مجالات ثقافة هذا الإمام الفذ، لكن ذلك لا ينفي تبريزه وإمامته في مجالات أخرى، لم تنل حظها من العناية والاهتمام، ويأتي في مقدمتها تفسيره لكتاب الله، مما يطمح هذا المقال إلى التعريف به.

ولم يتم الإقدام على تناول هذا الموضوع إلا بعد النظر في عدد من المصادر والمراجع: كالموطأ، والمدونة، وعدد من كتب تفسير القرآن وعلومه، مما كانت حصيلته، جمع عدد هام من النصوص الدالة على إمكان جمع تفسير للإمام مالك، يضاف إلى آثاره في الحديث والفقه.

وتجدر الإشارة، إلى أنه قد مهد الطريق لهذا العمل الطموح، الإمام مكي بن أبي طالب القيسي (ت: 437هـ) بكتابه «المأثور عن مالك في أحكام القرآن وتفسيره»، مما يشجع على المضي قدما في هذا السبيل، مع تعزيزه بدراسة علمية أكاديمية، تبرز منهج الإمام مالك في التفسير، ووسائله في ذلك، بعد ترتيبه وفق ترتيب المصحف، وتحقيقه والتعليق عليه.

وبعد، فهذه بعض الأضواء على تفسير الإمام مالك، نقدمها من خلال ثلاثة محاور هي:

أولا : مدخل إلى علم التفسير حتى عصر مالك

نزل القرآن الكريم بلغة العرب ﴿**إنا أنزلناه قرآنا عربيا**﴾(1) وكان النبيﷺ هو المرجع في فهمه وبيانه كما قال الحق سبحانه: ﴿**وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون**﴾.(2)

ولم يكن الصحابة رضي الله عنهم في مستوى واحد، بالنسبة لفهم معاني القرآن ومراميه، بل تفاوتوا في ذلك، وفق ما سمعوه من رسول اللهﷺ، وما شاهدوه من أسباب النزول، وما فتح الله به عليهم من طريق الاجتهاد، وقوة الاستنباط.

وقد اشتهر منهم بالتفسير، الخلفاء الأربعة وغيرهم من كبار الصحابة، غير أن أكثر من روي عنهم التفسير من أصحاب رسول اللهﷺ، أربعة هم على التوالي:

عبد الله بن عباس، ثم عبد الله بن مسعود، ثم علي بن أبي طالب، ثم أبي بن كعب، رضي الله عنهم جميعا.

وفي عصر التابعين، ومع انتشار الإسلام واتساع رقعته، وما رافق ذلك من فتن واختلاف في الآراء، أصبح مدار علم التفسير على ثلاث مدارس.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية:

«وأما التفسير، فإن أعلم الناس به أهل مكة، لأنهم أصحاب ابن عباس: كمجاهد، وعطاء بن أبي رباح، وعكرمة مولى ابن عباس، وغيرهم من أصحاب ابن عباس: كطاووس، وأبي الشعثاء، وسعيد بن جبير، وأمثالهم وكذلك أهل الكوفة من أصحاب ابن مسعود ومن ذلك ما تميزوا به على غيرهم، وعلماء أهل المدينة في التفسير، مثل: زيد بن أسلم، الذي أخذ عنه مالك التفسير، وأخذه عنه أيضا ابنه عبد الرحمن، وأخذه عن عبد الرحمن عبد الله بن وهب».(3)

ثانيا : مالك بن أنس(4)

هو أبو عبد الله مالك بن أنس بن مالك، بن أبي عامر الأصبحي المدني إمام دار الهجرة، وأحد الأئمة الأربعة المتبوعين إلى اليوم.

---

1) يوسف : 2.
2) النحل : 44.
3) مجموع فتاوي شيخ الإسلام ابن تيمية : 13/ 347 ـ طبعة مكتبة المعارف الرباط.
4) اقتصرنا هنا على ماله صلة بالموضوع من ترجمة الإمام مالك، وللتوسع انظر المصادر والمراجع الآتية مرتبة ترتيبا زمنيا:
طبقات ابن سعد: 5/ 45 ـ الجرح والتعديل لأبي حاتم الرازي: 1/ 11 ـ طبقات الفقهاء للشيرازي: 67 ـ ترتيب المدارك للقاضي عياض: الجزء الأول والثاني، طبعة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية ـ الديباج المذهب لابن فرحون: 17 ـ غاية النهاية في طبقات القراء لابن الجزري: 2/ 35 ـ تهذيب التهذيب لابن حجر: 10/ 5 ـ طبقات المفسرين للداودي: 2/ 293 وغيرها.

ولـد على المشهـور سنـة 93هـ بوادي المروة قرب المدينة المنورة، في أسرة اشتغلت بعلـم الأثر، فقـد قيـل إن جـد أبيه (أبـو عامر) كان صحابيا.

أما جده مالك بـن أبي عامر، فكان من كبـار التابعين وعلمائهـم، روى عن عمـر وعثمان وطلحـة وعـائشـة وأبي هـريـرة وحسان بـن ثابـت رضي الله عنهـم، وهو أحد الأربعة الذين حملوا عثمان (ض) ليلا إلى مـرقـده الأخير، وكـان ممـن يكتـب المصـاحف حين جمع عثمان لها كما ذكـر ابن أبي داود،(5) وقد روى عنه بنوه أنس وأبو سهـل نافع والربيـع، وروى عن أبي سهل مالك وشيخه ابن شهاب.

وكان النضر بن أنس أخو مالك ملازما للعلماء، حتى عرف مالك، لما لازمهم بأخي النضر لشهرة أخيه قبله.

بدأ مـالك بحفـظ كتاب اللـه تعالى، ثـم انكب على حفـظ الحديث النبـوي الشريف، وقد تلقى العلم عـن عدد كبير من الشيوخ من التابعين وتابعيهم، نـذكر منهم: ربيعة بـن أبي عبـد الرحمن المعـروف بـربيعـة الرأي، وعبـد الرحمن بـن هرمـز، ونافـع مـولى عبـد اللـه بـن عمـر، وابـن شهـاب الزهري، وجعفـر الصـادق، ويحيى بـن سعيد الأنصاري وغيرهم.

روى القـراءة عـرضـا وسماعـا، عـن قارىء المدينة الإمام نافـع بن عبد الرحمن ابن أبي نعيم، كما روى الحروف عـن ابن شهاب الزهري، وأخذ التفسير عن زيد بن أسلم مولى عبد الله بن عمر.

أمـا مـن روى عنـه، فخلـق كثير مـن العلماء، جمع الحافـظ أبـو بكـر الخطيـب البغدادي أخبـارهم، فبلغوا حـوالي ألف أو نحوها.

قال ابـن تيمية: «وهؤلاء الذيـن اتصل إلى الخطيـب حـديثهـم بعـد قـريـب مـن ثـلاثمائة سنــة، فكيـف بمــن انقطعـت أخبارهم، أو لم يصل إليه خبرهم..؟».(6)

وقد أخذ عنـه شيوخه: كربيعـة الرأي، وابن شهاب، كما أخذ عنه أقرانه: كسفيان الثوري، والليـث، والأوزاعي، وسفيـان بن عيينة، وأبي يوسف صاحب أبي حنيفة.

وروى عنـه مــن تـلامـذتــه: الإمـام الشافعـي، ومحمد بن الحسـن الشيباني، وعبد الله بن المبارك، وعبـد الله بن وهب، وغيرهم.

وقد اثنى عليـه العلماء بمالم ينله عالم قبله، وكلهم على أنه كان غزير العلم نزيها فيه، إمـاما في الحديـث والفقه معـا، وكفاه شرفا أن يقـول غير واحد مـن العلماء: إنه المعني بقولهﷺ: «يوشك أن يضرب الناس

(5) كتاب المصاحف: لعبد الله بن أبي داود السجستاني: 21 تحقيق: د.آرثر جفري ط. 1، المطبعة الرحمانية بمصر. 1355هـ / 1936م.

(6) مجموع فتاوي شيخ الإسلام ابن تيمية 320/20.

أكباد الإبل في طلب العلم، فلا يجدون عالما أعلم من عالم المدينة».

قال ابن تيمية: «ما دل عليه الحديث، وأنه مالك أمر متقرر لمن كان موجودا، وبالتواتر لمن كان غائبا، فإنه لا ريب أنه لم يكن في عصر مالك أحد ضرب إليه الناس أكباد الإبل أكثر من مالك»(7) توفي مالك رضي الله عنه سنة 179هـ بالمدينة المنورة، ودفن بالبقيع، وخلف عدة تآليف أشهرها: الموطأ، ومنها كتابان في التفسير هما:

1) «**التفسير المسند**» على طريقة الموطأ، قال الحافظ السيوطي: «وقد رأيت له تفسيرا لطيفا، مسندا، فيحتمل أن يكون من تأليفه، وأن يكون تعليقا منه».(8)

2) «**التفسير لغريب القرآن**» يرويه عنه خالد بن عبد الرحمن المخزومي.(9)

ثالثا : تفسير مالك

في عصر مالك، ابتدأ دور التدوين، فكان التفسير بالمأثور، أول مادون من ذلك، مما سجل لأهل الحديث والرواية فضل السبق والريادة في هذا المجال، وقد ذهب غير واحد إلى أن مالكا رضي الله عنه، أول من ألف في التفسير بهذا المعنى.(10)

ولم يكن التفسير في هذا العصر يتجاوز - في الغالب - جمع أقوال رسول الله ﷺ في التفسير، ثم أقوال الصحابة والتابعين، مع ذكر الأسانيد.

ومالك، تخرج من مدرسة المدينة في التفسير، التي كان على رأسها من الصحابة، أبي بن كعب رضي الله عنه، ثم تخرج على يديه مباشرة أو بواسطة، عدد من التابعين، اشتهر من بينهم: أبو العالية رفيع بن مهران، ومحمد بن كعب القرظي، ثم زيد بن أسلم العدوي المدني، وعنه أخذ مالك التفسير.

ومن تدبر أصول الإسلام وقواعد الشريعة، وجد أصول مالك وأهل المدينة أصح الأصول والقواعد، الشيء الذي جعل محمد بن الحسن الشيباني يعترف أمام الشافعي أن مالكا أعلم بكتاب الله وسنة رسوله من أبي حنيفة،(11) ومن ثم لم يكن غريبا أن يقوم مالك بدور المحافظة على كتاب الله، وتفسيره على الوجه الذي لا يصطدم مع ظاهره ونصه، في عصر كثر فيه الجدل، وتجرأ على كتاب الله من يجهل لسان العرب.

---

7) مجموع فتاوي شيخ الإسلام ابن تيمية: 20/323.

8) تزيين الممالك للسيوطي : 1/40 / وانظر: طبقات المفسرين للداودي: 2/300.

9) ترتيب المدارك للقاضي عياض: 2/3 - الديباج لابن فرحون: 27 - طبقات المفسرين للداودي: 2/301.

10) انظر : التفسير والمفسرون للذهبي: 1/153.

11) مجموع فتاوي شيخ الإسلام ابن تيمية : 20/328.

روى البيهقـي في «شعـب الإيمان» أن
الكا كان يقول: «لا أوتى برجل غير عالم
غـات العرب يفسر كتـاب الله إلا جعلتـه
كالا».

وروي أن رجلا دخل على مـالك فقال:
ا تقـول فيمن قـال: القرآن مخلـوق. قال
الك: زنديق اقتلوه،(12) وجاءه آخر فقال:
ـا أبا عبد اللـه ﴿**الرحمن على العـرش
ستوى**﴾ كيـف استوى؟ فقـال: «الكيـف
ير معقـول، والاستـواء غير مجهـول،
الإيمان به واجـب، والسؤال عنـه بدعـة»
أمر به فأخرج.(13)

ولم يكن مالك يقبل إدخال الإسرائيليات
التفسير، ولا يثق برواية مـن يفعل ذلك،
قوله في عبـد الملك بـن عبد العـزيز بـن
ريج: إنـه «حاطب ليل» لا يبـالي من أين
أخذ.(14)

وباختصـار ـــ يمكن مبدئيا ـــ تسجيل
لاحظات التالية حول أهم مميزات تفسير
لإمام مالك:

1 ـــ أنـه لا يشمل القـرآن كلـه، وإنما اقتصر على ما دعت الحاجة إلى تفسيره.

2 ـ أنـه تناول عـددا من علـوم القرآن: كـأسبـاب نـزولـه وغـريبـه ونـاسخـه ومنسوخه.

3 ـــ أن بعضـه جـاء ردا على مسـائل كانت ترد عليه.

4 ـــ أنـه يفسر في كثير مـن الأحيـان القرآن بالقرآن.

5 ـ أنه يفسر القرآن على ظاهره.

6 ـــ أنه لا يخوض فيما استـأثر اللـه بعلمـه: كالمتشـابه، وكـل ما استـأثر اللـه بعلمه....

نماذج من تفسير مالك

البسملة :(15)

قال مـالك : «إنما تـرك من مضـى أن يكتبـوا في أول بـراءة (بسم اللـه الـرحمن الرحيم) لأنها سقط أولها».(16)

وقال : «الشـأن ترك قراءة (بســم الله الرحمن الرحيم) في الفـريضة، لا يقرأ سرا

1) تزيين الممالك بمناقب سيدنا الإمام مالك، للسيوطي 14. (بهامش المدونة الكبرى).
1) نفسه 14.
1) التفسير والمفسرون للذهبي : 1/200.
1) قال مكي بن طالب في البسملة: «ليست بآية من «الحمد» ولا من غيرها من السور عند مالك وغيره من العلماء» كتاب (الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها) تحقيق: د.محي الدين رمضان: 1/25.
وقال أبو بكر بن العربي: قال مالك وأبو حنيفة: «ليست البسملة في أوائل السور بآية، وإنما هي استفتاح ليعلم بها مبتدؤها» (أحكام القرآن)، تحقيق: علي محمد البجاوي 1/2، وانظر تفسير القرطبي: 1/81.
1) كتاب الكشف عن وجوه القراءات السبع: 1/19: «يعني نسخ».

ولا علانية، لا إمام ولا غير إمام، وفي النافلة إن أحب فعل، وإن أحب ترك، ذلك واسع».(17)

وسئل عن الاسم أهو المسمى؟ فقال: «ليس به ولا هو غيره».(18)

قال الله تعالى : **﴿ومن يوت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا﴾**.(19)

قال مالك: «الحكمة: المعرفة في الدين والفقه فيه، والاتباع له»، وروى عنه ابن القاسم أنه قال: «الحكمة: التفكر في أمر الله والاتباع له».

وقال أيضا : «الحكمة: طاعة الله والفقه في الدين والعمل به».(20)

قال الله تعالى : **﴿إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة﴾**.(21)

قال مالك من سماع ابن القاسم من (العتبية): «بكة: موضع البيت، ومكة: غيره من المواضع». قال ابن القاسم: يريد القرية.(22)

قال تعالى : **﴿لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه﴾**.(23)

قال ابن وهب عن مالك، وأشهب عنه، قال مالك: «المسجد الذي ذكر الله أنه أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه، هو مسجد رسول الله ﷺ، إذ كان يقوم رسول الله، ويأتيه أولئك من هنالك.

قال الله تعالى: **﴿وإذا رأوا تجارة أولهوا انفضوا إليها وتركوك قائما﴾**(24) هو مسجد رسول الله ﷺ.(25)

أمثلة من الموطأ

1) قال مالك في كتاب الجمعة، ما جاء في السعي يوم الجمعة:(26) «إنما السعي في كتاب الله، العمل والفعل، يقول الله تبارك

---

17) المدونة الكبرى : 1/68.

18) عبد الحق ابن عطية الأندلسي: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 1/57، تحقيق المجلس العلمي بفاس.

19) البقرة : 269.

20) ابن عطية الأندلسي: المحرر الوجيز: 2/330.

21) آل عمران : 96.

22) المحرر الوجيز 3/154.

23) التوبة : 108.

24) الجمعة : 11.

25) ابن العربي : أحكام القرآن : 2/104.

26) يعني قوله تعالى: **﴿يأيها الذين ءامنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون﴾** الجمعة: 9.

تعالى: ﴿وإذا تولى سعى في الأرض﴾.(27) وقال تعالى: ﴿وأما من جاءك يسعى وهو يخشى﴾.(28) وقال: ﴿ثم أدبر يسعى﴾.(29) وقال: ﴿إن سعيكم لشتى﴾.(30)

فليس السعي الذي ذكر الله في كتابه السعي على الأقدام، ولا الاشتداد، وإنما عنى العمل والفعل.(31)

2) قال مالك في كتاب الحج «باب الوقوف بعرفة والمزدلفة» قال الله تبارك وتعالى: ﴿فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج﴾.(32) قال: فالرفث: إصابة النساء، والله أعلم. قال الله تبارك وتعالى: ﴿أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم﴾.(33)

قال: «والفسوق»: الذبح للأنصاب، والله أعلم. قال الله تبارك وتعالى: ﴿أو فسقا أهل لغير الله به﴾.(34)

قال: و«الجدال في الحج» أن قريشا كانت تقف عند المشعر الحرام بالمزدلفة بقزح، وكانت العرب وغيرهم يقفون بعرفة، فكانوا يتجادلون، يقول هؤلاء: نحن أصوب، ويقول هؤلاء: نحن أصوب. فقال الله تعالى: ﴿ولكل أمة جعلنا منسكا هم ناسكوه، فلا ينازعنك في الأمر، وادع إلى ربك، إنك لعلى هدى مستقيم﴾.(35) فهذا الجدال فيما نرى، والله أعلم.(36)

3) قال مالك في كتاب الصيد «باب ما يكره من أكل الدواب»: «أحسن ما [سمعت] في الخيل والبغال والحمير أنها لا تؤكل، لأن الله تبارك وتعالى قال: ﴿والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة﴾.(37) وقال تبارك وتعالى في

---

(27) البقرة : 205.
(28) عبس : 8 ـ 9.
(29) النازعات : 22.
(30) الليل : 4.
(31) الموطأ بشرح الزرقاني : 1/ 219.
وفي المدونة الكبرى: 1/ 144: «قال مالك: بلغني أن بعض أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يكرهون أن يترك الرجل العمل يوم الجمعة كما تركت اليهود والنصارى العمل في السبت والأحد».
(32) البقرة : 197.
(33) البقرة : 187.
(34) الأنعام : 145.
(35) الحج : 67.
(36) الموطأ بشرح الزرقاني: 2/ 337.
(37) النحل : 8.

الأنعــــام: ﴿**لتركبــوا منهــا ومنهــا تاكلون**﴾.(38) وقــال تبــارك وتعــالى: ﴿**ليذكـروا اسم اللـه على ما رزقهـم من بهيمـة الأنعـام، فكلـوا منهـا وأطعمـوا القانع والمعتر**﴾.(39)

قال مـالك: وسمعـت أن «البائس» هـو الفقير، وأن «المعتر» هو الزائر. قـال: فذكر اللـه الخيـل والبغـال والحمير للـركـوب والزينة، وذكر الأنعام للركوب والأكل. قال مالك: والقانع هو الفقير أيضا.(40)

وبعد، فهذه إشارات، نامل أن تكون من البواعث على جمع تفسير إمـام دار الهجرة، سائلين اللـه تعالى التـوفيق والسـداد، وأن يدخلنا بهذا العمل - بفضله وكرمه - تحت قـول النبيﷺ: «إن للـه أهلين من النـاس» قالـوا: من هـم يارسـول الله؟ قـال: «أهل القرآن هم أهل الله وخاصته»

والحمد أولا وآخرا.

مراكش - محمد عز الدين المعيار الإدريسي

38) غافر : 79.

39) هكذا في الموطأ والتلاوة (ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على مارزقهم من بهيمة الأنعام، فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير) الحج: 28.

ثم قال تعالى: ﴿**والبدن جعلناها لكـم من شعائر الله لكم فيهـا خير، فاذكروا اسم الله عليهـا صواف فإذا وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر**﴾. الحج: 36.

40) الموطأ بشرح الزرقاني: 3/91.

اختيارات وآراء المغاربة في علوم الحديث النبوي ومصطلحه

للأستاذ محمد بن عبد الله التليدي

نظر في ذخائر تراث المشارقة في الحديث و"رجال والنقد والتخريج... وهالني ما رأيت! وتساءلت في مرارة: أين تراث المغاربة؟ أين العباقرة الذين طاولوا قمم المشرق؟ وأين نتاج قرطبة واشبيلية وغرناطة ومراكش وسبتة وفاس؟!

ووجدتني أقف طويلا أمام نماذج فذة لنبوغ المغاربة: عطية بن سعيد القفصي (تـ408) الذي قرىء عليه بمكة صحيح البخاري - روايته عن اسماعيل بن محمد الحاجي عن الفربري — وكان الحافظ أبو العباس أحمد بن الحسن الرازي هو القارىء، وربما توقف أبو العباس، فيبادره عطية: هذا فلان بن فلان، روى عنه فلان بن فلان... ويذكر مولده وبلده... والحاضرون يتابعون في شغف، وكلهم إعجاب بحفظ وغزارة معارفه.(1)

وأيضا... أحمد بن فرح اللخمي الإشبيلي (تـ699) شيخ المحدثين، الذي يعقد له المشارقة حلقة إقراء في جامع دمشق، يقرأ فيها فنون الحديث، ويحضر مجالسه حافظ الشرق: الذهبي.(2)

وفضل المغاربة في الحديث لا ينكر!!

فقد كانوا من أوائل المصنفين لدواوين وكتب الحديث والآثار، و«المسند المصنف»، لبقي بن مخلد (تـ276) و«مصنف» قاسم بن أصبغ (تـ340) و«مستخرجه على مسلم»، و«المستخرج على أبي داود»، الذي

(1) بغية الملتمس، للضبي، 434. تذكرة الحفاظ، للذهبي، 3/ 1088.
(2) تذكرة الحفاظ، 4/ 1486. طبقات الشافعية، للتاج السبكي، 8/ 26.

اختصره بكتابه «المجتبى» وجعله على أبواب وترتيب «المنتقى»، لابن الجارود... وكذلك «المستخرج على أبي داود»، لمحمد بن عبد الملك بن أيمن (تـ330) والمسمى بـ«السنن»، وكثير غيرها: نماذج لعبقرية المغاربة ونبوغهم المبكر. وفي أصول الحديث وقوانين وآداب الرواية لم تزل كتبهم المصدر لكل من جاء بعد ابن الصلاح، ممن صنف في علوم الحديث...

ولهم في هذا المجال: «الإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع»، للقاضي عياض السبتي (تـ 544) و«الكفاية في مراتب الرواية»، ليوسف بن عبد الله بن عياد الريى (تـ 575) و«بغية النقاد»، و«شرح مقدمه مسلم»، لأبي عبد ابن المواق (تـ 642) و«علوم الحديث» لمحمد بن اسماعيل بن خلفون الأزدي (تـ636).

وصنفوا في الرجال والجرح والتعديل: «التعديل والتجريح لمن روى عنه البخاري في الصحيح»، لأبي الوليد الباجي (تـ 474)، «والجرح والتعديل»، لأحمد بن سعيد بن حزم الصدفي (تـ350)، و«الحافل في تذييل الكامل ـ لابن عدي»، لأبي العباس ابن الرومية (تـ637)، و«المنتقى في رجال الحديث»، لمحمد بن اسماعيل بن خلفون...

وفي بيان المشتبه والمؤتلف والمختلف، لهم أيضا: «المؤتلف والمختلف ومشتبه النسبة»، لأبي الوليد ابن الفرضي (تـ403)، و«هداية المتعسف في المؤتلف والمختلف»، لابن الأبار (تـ658)، و«البيان عما في كتاب أبي نصر الكلاباذي ـ في رجال الصحيحين ـ من النقصان»، لعبد الله بن أحمد بن أحمد ابن يربوع (تـ522)، و«الإعلام لما في المؤتلف والمختلف للدارقطني من الأوهام»، لعبد الله بن علي الرشاطي (تـ542)، و«تقييد المهمل وتمييز المشكل»، لأبي علي الجياني (تـ498)، و«الغوامض والمبهمات»، لابن بشكوال (تـ578).

وصنفوا في العلل: «المعتل من الحديث»، لعبد الحق الإشبيلي (تـ581)، و«بيان الوهم والإيهام الواقعين في كتاب الأحكام ـ لعبد الحق»، تأليف: أبي الحسن ابن القطان (تـ628)، و«المآخذ الحفال في شرح ما تضمنه «بيان الوهم والإيهام» من الإخلال والإغفال وما انضاف إليه من تتميم وإكمال»، لأبي عبد الله ابن المواق، و«المستقصية لعلل الموطأ»، لمحمد بن يحيى بن ابراهيم ابن مزين (تـ259).

وفي النقد لهم: «السنن الأبين في المحاكمة بين الإمامين ـ البخاري ومسلم ـ في السند المعنعن»، لابن رشيد السبتي (تـ721)، و«بيان غلط عثمان بن سعيد الأعور في المسند والمرسل»، لابن حزم (تـ456)، و«الرد على ابن حزم في «المحلى»

ـما يتعلق به من علم الحديث»، لأبي
لحسن ابن القطان.

ولذلك كان المغاربة ـ وأقصد دائما
عدوتين ـ إحدى الروافد الغنية لمصنفات
لشارقة، وابن الصلاح في كتابه «علوم
حديث» والذي كل من جاء بعده فهو
الة عليه، نراه يعتمد القاضي عياض بن
وسى السبتي كثيرا(3) كما ينقل آراء أبي
لي الجياني ــ الغساني ـ وابن عبد البر
غيرهما...

والعراقي في «التقييد والإيضاح» يرجع
ى كثير من مباحثه إلى «بغية النقاد»
«بيان الوهم»...(4)

كما نجد ابن حجر العسقلاني في
النكت على كتاب ابن الصلاح» يرد نفس
وارد، ويحكي آراء وأقوال المغاربة، كابن
قطان وابن المواق...(5)

ويذكر النقاد المشارقة ابن القطان
كثير من الإكبار... وقد اعتمدوه في الردّ
لى ابن الصّلاح القائل بمنع «الاستقلال
التصحيح...» فقد صحح ابن القطان
حاديث ليس للمتقدمين فيها تصحيح.(6)

وإذا كان ابن القطان وجد طريقه إلى الشرق... وعرفه الناس، فقد أنجب المغرب حفاظا كبارا دونهم ابن القطان بمراحل!

وأراني أطلت الاستطراد في هذا المدخل، ولم أكن لأفعل لولا هذا الضيم الذي لحق حفاظ المغرب وتراثهم، وهو في هذا المجال ليس دون بغداد ودمشق ونيسابور...!!

1) اختيارات المغاربة في أصول الحديث:

ــ ابن القطان يقول : «لا يعرف له حال»، «لايعرف»، «لم تثبت عدالته»: في كل من لم يقل فيه إمام عاصره أو أخذ عمن عاصره؛ ما يدل على عدالته.(7)

ــ محمد بن عثمان ابن المرابط الغرناطي (تـ752) يرى أنه قد دونت الأخبار، وما بقي للتجريح فائدة، بل انقطعت على رأس أربعمائة...

وتأسيسا على هذا المبدأ، ينقد ابن المرابط شمس الدين الذهبي في كتابيه «التاريخ» و«ميزان الاعتدال»، وينعي عليه التعصب الذي يختفي وراء تحامله على كثير من الناس...(8)

انظر : 116 / 118 / 142 / 173 / 176 / 177 / 178 / 196 / 214 / 321، ونقل عنه ولم يسمه في مواضع...

انظر : 23 / 24 / 53 / 86 / 90 / 139.

انظر : 1 / 261 / 282 / 286 / 295 / 300 / 345 / 352 / 356 / 386 / 402 / 405 / 433 / 436 / 476 / 484 / 486 / 488 / 506 / 507 / 2 / 549 / 552 / 557 / 567 / 544 / 625 / 790 / 852.

التقييد والإيضاح، 23 / 24.

ميزان الاعتدال، للذهبي، 2/556/3/426.

ذيول تذكرة الحفاظ، 35 ـ 359 / هامش. ووافق الذهبي ابن المرابط في هذا الرأي (انظر: ميزان الاعتدال، 1/ 4)، وقد أثبت التاج السبكي هذا الذي نعي على الذهبي ـ رحمه الله ـ انظر: الطبقات 9/ 103

ـ «العدل» عند ابن عبد البر هو: كل حامل علم معروف العناية به، وهو محمول في أمره أبدا على العدالة، حتى يتبين جرحه في حاله أو في كثرة غلطه، لقوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله...»(9)

ـ «المسند عند ابن عبر البر : هو ما رفع إلى النبي ﷺ خاصة، وقد يكون متصلا، وقد يكون منقطعا.(10)

ـ يرى أبو علي الجياني أن الحديث المبهم: منقطع.(11)

ـ الحديث «الحسن» عند ابن القطان : هو الحديث الذي اختلف في ثبوته، فبعضهم صححه، وبعضهم يضعفه لعلة تظهر له، إما أن يكون خفيت العلة على من صححه، وإما أن يكون لا يراها معتبرة قادحة.(12)

ـ ويرى ـ أيضا ـ أن «الحديث الحسن» ـ حسب اصطلاح الترمذي ـ لا يحتج به كله، بل يعمل به في فضائل الأعمال، ويتوقف عن العمل به في الأحكام، إلا إذا كثرت طرقه أو عضده اتصال عمل أو موافقة شاهد صحيح أو ظاهر القرآن.(13)

ـ ابن رشيد السبتي تعقب ابن الصلاح فقال: ليس يلزم أن يستفاد من كون الحديث لم ينص عليه أبو داود بضعف، ولا نص عليه غيره بصحة؛ أن الحديث عند أبي داود حسن، إذ قد يكون عنده صحيحا، وإن لم يكن عند غيره كذلك.(14)

ـ قال ابن القطان الفاسي : إن البخاري فيما «يعلق» من الأحاديث في الأبواب، غير مبال بضعف رواتها، فإنها غير معدودة فيما انتخب، وإنما يعد من ذلك: ما وصل الأسانيد به.(15)

ب) آراؤهم وأقوالهم في الرواية :

ـ قال أبو الوليد الباجي : الإجازة إما أن تكون للعمل، فيجب على المجاز له أن يكون من أهل العلم بذلك والفهم باللسان، وإلا لم يحل له الأخذ بها... وإما أن تكون للرواية خاصة، فيجب أن يكون عارفا بالنقل والوقوف على ألفاظ ما أجيز له، ليسلم من التصحيف والتحريف، فمن لم

9) التمهيد، لابن عبد البر، 1/ 28. مقدمة ابن الصلاح، 95.
10) التمهيد،1/ 21 ـ 22. انظر : النكت على كتاب ابن الصلاح، لابن حجر، 1/ 506.
11) النكت، 1/ 353.
12) أيضا، 1/ 386.
13) أيضا، 1/ 402.
14) التبصرة والتذكرة، للعراقي، 1/ 96.
15) التقييد والإيضاح، للعراقي، 90. انظر النكت : 1/ 324 ـ 343.

يكن عالما بشيء من ذلك، وإنما يريد علو الإسناد بها، ففي نقله بها ضعف.(16)

- أبو الربيع سليمان بن عبد الرحمن البرياني (تـ550): لا يرى التحديث بالإجازة، والرواية عنده: السماع أو المناولة.(17)

- أبو محمد الشنتجالي (تـ436) وأبو عبد الله ابن عتاب (تـ462) والقاضي أبو الأصبغ (القرن4): يذهبون إلى صحة الإجازة للعموم، من غير تعيين المجاز له.(18)

- أبو الوليد يونس بن مغيث (تـ429) وأبو مروان الطبني، والقاضي عياض: لايرون الإجازة لما لم يروه المجيز بعد.(19)

- قال أبو عبد الله ابن عتاب: لاغنى في السماع عن الإجازة، لأنه قد يغلط القارىء، ويغفل السامع، فينجبر له ما فاته بالإجازة.(20)

- أبو العباس الغمري المالكي (تـ392) في كتابه «الوجازة في تجويز الإجازة»، يسمي الإجازة لكتب معينة وأحاديث مخصوصة: مناولة، وقال: إن هذا الضرب يحل محل السماع والقراءة.(21)

— ابن القطان : يرى أن الرواية المجردة من الإجازة : منقطعة.(22)

ج) أقوالهم في الصحيحين وكتب أخرى :

- ابن حزم يفضل «صحيح مسلم» على «البخاري»، إذ ليس في مسلم بعد الخطبة إلا الحديث السرد.(23)

- حكى أبو مروان الطبني عن بعض شيوخه : أنه كان يفضل «صحيح مسلم» على «صحيح البخاري».(24)

- قال أبو عبد الله الحميدي (تـ488): ثلاث كتب من علوم الحديث يجب الاهتمام بها: كتاب العلل، وأحسن ما وضع فيه، «العلل»، للدارقطني. والثاني: كتاب «المؤتلف والمختلف»، وأحسن ما وضع فيه: «الإكمال» للأمير ابن ماكولا. وكتاب «وفيات المشايخ» : وليس فيه كتاب.(25)

16) فتح المغيث، للسخاوي، 2/ 96.
17) الذيل والتكملة، لابن عبد الملك - بقية السفر الرابع، ص 72. المعجم، لابن الأبار، ص316.
18) الإلماع، لعياض، ص 99 - 100. ترتيب المدارك، له 2/ 753.
19) الإلماع، 105 - 106.
20) أيضا، 92. مقدمة ابن الصلاح، 103.
21) الإلماع، 88 - 89.
22) فتح المغيث، 2/ 125.
23) النكت على كتاب ابن الصلاح، 1/ 282.
24) أيضا.
25) سير أعلام النبلاء، للذهبي، 19/ 124.

ـ رزين بن معاوية العبدري (تـ535) أول من عد الموطأ سادس الستة، وتبعه ابن الأثير في «جامع الأصول».(26)

والحديث يطول... وإنما أوردت شذرات ونماذج... وأرجو أن تنهض الهمم في الشرق والغرب لدراسة الحديث النبوي في المغرب، والتنقيب عما تبقى من آثار المغاربة في هذا المجال، مواكبة «للصحوة» التي تعرفها كتب المشارقة.

وأنا جاد ـ بمعونة الله وفضله ـ في دراسة شاملة عن الحديث والمحدثين المغاربة، أرجو أن أوفي بها هذا الجزء من العالم الإسلامي بعض حقوقه. والله ولي التوفيق.

طنجة ـ محمد التليدي



---

26) انظر : النكت على كتاب ابن الصلاح، 1/486. وذكرت هذا كل الكتب المصنفة في مصطلح الحديث... واعتمد رزين بن معاوية هذا الترتيب في كتابه: «تجريد الصحاح الستة».

شاعر علماء مكناس

محمد بن إدريس الشبيهي

رمز النبوغ المبكر للشباب

نحو 1280 ـ 1362هـ

للأستاذ محمد المنوني
كلية الآداب . الرباط

في مسلسل الحياة الأدبية بمكناس، عرفت المدينة ـ من أواسط ق19 ـ ثلة من لشعراء المجيدين، فيهم محمد بن المعطي لسطاري(1)، والطاهر بو حدو. الآتي لذكر، والتهامي المزوار(2)، وسواهم، امتدادا لهذا النشاط، لمع ـ بالجهة ذاتها ـ طبقة ثانية كان في طليعتها شاعر شاب، في الوقت نفسه ينكب على تحصيل علوم، ومع مر الزمن يتفوق في مادتي الأدب والمعارف الأصيلة، مما جعله ـ في بلدته ـ شاعر علمائها، وعالم أدبائها.

والقصد إلى سليل بيت من أشرف أسر مكناس(3): محمد بن إدريس بن إدريس (إثنين في نسق)(4) بن محمد بن الطيب الحسني الإدريسي الشبيهي، من فريق النقيب الشهير السيد عبد القادر بن عبد الله، عميد الأشراف في العهد الإسماعيلي(5).

والملاحظة الأولى في ترجمته غموض

ترجمته في «إتحاف أعلام الناس» المطبعة الوطنية بالرباط: 4/ 268 ـ 271.

المصدر : 2/ 94 ـ 106.

القصد إلى الأشراف الشبيهيين، فيقول عنهم محمد الطالب ابن الحاج: «وبيت هولاء الشرفاء ـ بمكناسة وزرهون ـ كبير، ونسبهم شهير، ومجدهم غزير، وهم الولاة لضريح جدهم الإمام إدريس الأكبر، وفيهم النقابة من لدن السلطان الرشيد إلى الآن»، حسب «الإشراف على من بفاس من مشاهير الأشراف»، مخطوط خ.ع.د 653.

كرر الفضيلي اسم إدريس ثلاث مرات، «الدرر البهية» ط. ف: 2/ 18.

ينوه به أبو الربيع الحوات قائلا: «..وفي هذه السنة: (حدود 1080هـ) ولاهـ النقابة السلطان أبو الفضل الرشيد بن الشريف... بالحضرتين فأحكم نظامها، وأجرى ـ على مقتضى الشريعة ـ أحكامها، وخطاباته فيما وقع بيده من الرسوم، تؤذن بعراقته فيما تعلق بها من العلوم، وبقي متوليا إلى أن توفي شهر ربيع الأول، سنة تسع وتسعين ـ بتقديم المثناة فيهما ـ وألف». «السر الظاهر» ط.ف: الملزمة 10 ص 6.

تاريخ ولادته، على أنه يمكن تقديره بحوالي عام 1280هـ، استنادا إلى قصيدة من أولياته نظمها خلال عشرة 1290هـ(6).

وإذا كان لا يعرف ــ الآن ـ أستاذه في مبادىء تعلمه بالكتاب، فمن حسن الحظ احتفاظ بعض المصادر(7) بأسماء ثمانية من شيوخه، ومعظمهم من أعلام مكناس، حيث سيأتي ذكرهم على تسلسل وفياتهم:

1 ـ الطاهر بن الحاج الهادي بن العناية المشتهر بلقب بوحدو، ت 1306 / «1889»(8).

2 ـ محمد بن العربي المنوني، ت1316 / «1898»(9).

3 ــ المفضل بن الهادي بن أحمد ابن عزوز، ت 1319 / «1901»(10).

4 ـ المفضل بن الحاج المكي بن أحمد السوسي، ت1320 / «1902»(11).

5 ـ عبد السلام بن الحاج محمد بن عُمَرو الصنهاجي، ت1320 / «1903»(12).

6 ـ القاضي بمكناس أحمد بن الطالب ابن سودة المري الفاسي، ت 1321/ «1903»(13).

7 ــ محمد القصري، ت 1324/ «1906»(14).

8 ـ المعطي بن محمد الكبير بن الهادي ابن عبود، ت1330 / «1912»(15).

فهم ثمانية من أشياخ المترجم، وأولهم (بوحدو) كان يشارك في الأدب كشاعر مجيد، فيكون أحد موجهي تلميذه المترجم إلى الإسهام في حقل الأدب، على أن شعره يحمل في بعض مقاطعه تأثرا بالأديب السابق الذكر: محمد بن المعطي المسطاري، وكانت تربطه بالمترجم علاقة مصاهرة، فيكون قد أفاد من هذا ـ ومعه بوحدو ـ في تكوينه الأدبي.

ومن هنا فإن الفقيه الشبيهي ــ كما كان يعرف به في بلدته ــ قد تميز بين زملائه من شيوخ مكناس، بالمشاركة في

---

6) انظر التعليق 20.

7) ابن زيدان في كتابه : «إتحاف أعلام الناس» مع «إعلام الحاضر والباد»، وغيرهما.

8) ترجمته في «إتحاف أعلام الناس» مصدر سابق: 3/ 103 ـ 116.

9) ترجمته في نفس المصدر : 4/ 275 ـ 276.

10) ترجمته في نفس المصدر : 4/ 318 ـ 327.

11) ترجمته في نفس المصدر : 4/ 327 ـ 333.

12) ترجمته في نفس المصدر : 5/ 362 ـ 363.

13) ترجمته في نفس المصدر : 1/ 456 ـ 463.

14) ترجمته في نفس المصدر : 4/ 283.

15) ترجمته في نفس المصدر : 4/ 316 ـ 317.

لأدب إلى براعته في العلوم، وهي الرؤية لتي تبرزها الارتسامات التالية، فيصفه لميذه إبراهيم بن محمد بن أبي القاسم لسطاسي(16)، بالحائز من الأدب الطريف والتالد، العلامة الغطريف، من صار بواردات المعارف أهلا، وأعطي الباع لطويل في التدريس.

ثم يخططه القاضي أحمد سكيرج(17) بالعلامة الفاضل، الأديب الغطريف، أحد لعلماء المدرسين بمكناسة.

وفي وصف المؤرخ ابن زَيْدَان:(18) لعلامة الأديب، المنمق الأريب، الناظم لناثر، الخطيب المصقع، الذي إذا قال شنف الأسماع، المدرس النفاع.

وإن هذا التنوع في ثقافة المترجم، يطرح توزيع التعريف به بين توجهه الأدبي، ثم توجهه المعرفي التقليدي.

* * *

ففي الاتجاه الأول يعتبر المنوه به من لشعراء المرموقين على مستوى أدب عصره، على أنه لم يدون شعره، والمعروف منه لايزال قليلا، وهو ما احتفظت به بعض المؤلفات والمقيدات، وفيه المديح النبوي، والرثاء، والمطارحات، والتقريظ في قصيدة واحدة، وأخرى من صنف أدب الختمات الدراسية، فضلا عن بعض التهاني الحسنية والاستعطاف.

ومن هذه البقية يمكن - على العموم - تقييم شعر الأديب، الذي يتميز بنصاعة الديباجة، ومتانة التركيب، إلى معنى بديع، وخيال يزين نسيب الشاعر، مع اهتمام بالصنعة البديعية، وقد لمح لبعض هذه السمات أديب ناقد: أحمد سكيرج(19)، في ارتسامة يقول فيها عن أديبنا: «...وكم لصاحب الترجمة من شعر رقيق، ومعنى دقيق، في لفظ رشيق شريق».

ومن الجدير بالملاحظة نبوغ المترجم مبكرا في قول الشعر، فنجد المؤرخ أحمد ابن الحاج(20) يحتفظ له بثلاث تهاني للسلطان الحسن الأول، بينها قصيدتان قالهما خلال عشرة 1290هـ، مع التذكير بأن مولد الشاعر يقدر بحوالي 1280هـ.

والآن ينتهي بنا المطاف إلى تقديم نماذج من أشعار أديب مكناس، وننطلق

---

(16) عند تقديم قصيدة المترجم بمناسبة ختم «الشمائل الترمذية» بتدريس شيخه المفضل ابن عزوز، حيث يوجد مؤلف الختم وقصائده في مخطوط خ.ع.د 515/2: ص53.

(17) «غاية المقصود...» إسم رحلة من تأليفه: خ.ع 1029 «فيلم»: لوحة 120.

(18) «إعلام الحاضر والباد...» لابن زيدان: عند تقديم القصيدة النبوية الأولى للمترجم: السفر الأول، خ.س 12430.

(19) «غاية المقصود...» مصدر سابق: لوحة 122.

(20) «الدرر الجوهرية...» : سفران، مخطوطة خ.س 512، وقد بدأ تأليف السفر الأول عام 1290هـ، وأكمله عند متم 1299هـ.

من مطالع قصيدة نظمها عام 1311هـ، ليقرظ بها «تحرير المقال...» و«ذيله»، من تأليف القاضي أحمد ابن سودة السابق الذكر في عداد أشياخه:

صَفتْ المناهل فارتشف إمدادها
ترو الصدا برحيقها السِّلسال
فاضت بسر مواهب وبدائع
ونفائس أزرت بعقد لَئَال
ما سامها أو شامها - أبدا - ردى
بل هي أحلى من عتيق مَصال(21)
تلك المعاني أفرغت بقوالب الـ
ـألفاظ إذ جمعت أصح مقال
ضمت فرائد في قلائد قلدت
في جيد غزلان بحسن كمال
أبدا براعتها اليراع فأعجزت
من خاض في بحث وفي إشكال
وأماط «تحرير المقال» لثامها
عن مسفر حسن بديع جمال
وأطال «ذيل» فخاره وكماله
ناهيك من «ذيل» ومن «إكمال»
ذيل له شرف على من دونه
بنوافح الإرشاد والإقبال
أهدى لنا حكما عطير نسيمها
راوي الشذا عن صحة الأقوال

إلى آخرى القصيدة التي جاءت في 22 بيتا(22).

وقد أثار أسلوب التقريظ إعجاب شاعر فاس وأديبها: أحمد بن المامون البلغيثي، مما جعل ذلك موضوع مساجلة مع المترجم، فيراسله من فاس شاعرها بهذه النتفة:

لله ما أبدت لنا مكناسة
من أبدع الإنشا وحسن مقال
بهر العقول أديبها بنظامه
في مدح تحرير لذي الإكمال
لا غرو والأصل الزكي مهذب
من منشيء أبدى عقود لئال
ما كان ضره لو يشرف فاسنا
فنفوز من إقباله بمنال
إني وحق قرابة الأدباء ذو
شوق إلى ذي رقة الأقوال
فعليه من صب هواه تحية
تغشى علاه برفعة وكمال

فلما وصلته هذه العواطف حَيَّ باعثها قائلا:

أشموس فضل أم بدور كمال
وشهي لفظ أم نفيس لئال

21) في القاموس وشرحه: «المصل والمصالة بفتحهما ويضم الأخير أيضا: ما سال من الأقط إذا طبخ ثم عصر». فكأن كلمة عصير تصحفت عند الطبع بعتيق.

22) القصيدة منشورة بالمطبعة الحجرية الفاسية، ضمن تقاريظ «تحرير المقال وذيله» من تأليف القاضي أحمد ابن سودة.

أم تلك فاس قد تنفس طيبها
فشذا بمسك أو عبير غوال
أهدت نفائس من عرائس فكرها
مشمولة بمحاسن وجمال
جادت بأبدع نتفة مسكية
جاءت منزهة عن الأمثال
بهرت عقول ذوي النهى بتلطف
وتناسق في أحسن الإكمال
دلت على خلق شريف دونه
أخلاق أهل الفضل والإفضال
من نبعة علوية نبوية
من طينة الأشراف والأفضال
من ءال فاطمة ومن أعلامهم
وأجلهم أدبا بلا إشكال
أعظم بها من درة حسنية
هزت معاطفنا بحسن مقال
شوقا إلى ذاك الحمى لنزوره
ونفوز من إمداده بمنال
فعلى مجادته التَّحايَا سرمداً
بدوام ملك الباريء المتعال
ما قال صب ذو هوى وصبابة
أشموس فضل أم بدور كمال(23)

وهذه مساجلة ثانية، وكان مكانها الروض الزيداني بمكناس، وتاريخها عام 1329هـ وطرفاها: المترجم والقاضي أحمد سكيرج، وكان للأخير السبق في بدء المطارحة:

يا ساعة مثلها لم يلف في زمن
من أجل جمعي بهذا المفْرَد العَلَم
من كنت منتظرا لقربه زمنا
بما سمعت له من رفعة الهمم
شمس البلاد التي في أفقها انفردت
برتبة في العلى منيرة الظلم
ذاك الشبيهي الرضا من لا شبيه له
في الخَلْق والُخلق والعرفان والكرم
من سادة بهم العليا قد افتخرت
وشاع فضلهم في سائر الأمم
أعظم به من شريف زانه أدب
وقدره جل بين العرب والعجم

وبعد خمسة أبيات يعقب الشاعر قائلا عن المترجم: فأجابني - من نظمه الرائق، ولذيذ إنشائه الفائق - بما نصه:

لبيك لبيك يا من حاز كل علا
وجل قدرا رقى عن كل ذي عظم
وساد أهل الهدى فضلا ومنقبة
فكان بين ذوي الإفضال كالعلم
وفاق كل بليغ قد علا أدبا
وأحْـرَزَ الْكنْه في مجد وفي كرم
بدر تكامل في إشراقه وسما
أفق السماء بجنح الليل في الظلم
ذاك السري أبو العباس أحمد من
له المزايا التي في الناس لم ترم
سكيرج من علا قدرا ومرتبة
وكان بين الورى أجل محترم

23) «تنسم عبير الأزهار بتبسم ثغور الأشعار»: اسم ديوان المولى أحمد البلغيثي، مخطوط خ.ع.د 3662 في سفرين: 2/105 - 106.

الفاضل العالم النحرير من رسخت
أقدامه في مباني المجد والكرم
حبر تقاصر أولوا العلم قاطبة
عن درك همته في العلم والحكم
وعن بلاغته أهل النهى قصروا
وأظهروا العجز في معناه والكلم
كذا الألى من بقرض الشعر قد عرفوا
قروا بطلق لسان غير منعجم
وقال بارعهم لله من درر
منظومة نضدت في عقدها الفخم
بها تفرد فرد الشعر من خضعت
له أسود الشرى في غابها الأجم
سبحان من قد حباك كل مكرمة
بها ترقى مراقي العز والهمم
حتى إذا لم تضح كالشمس سيرته
ينبيك عنها كريم الخلق والشيم

والقصيدة ـ بعد هذا ـ لاتزال بها أربعة أبيات(24)، ونقدم بعدها مطالع إحدى قصائد الشاعر في المديح النبوي:

أمن برق بريق في سناء
تجلى بالأبيرق مع حراء
ثملت فهمت من بين الثمالى
ورحت براح راح في صفاء
أم الأنوار إذ لاحت تراءت
درى سلع مطالع الازدهاء
أم الطيف العبيق سرى سحيرا
بطيبة فاح طيبة الشذاء
نعم فيها هيامي واكتئابي
ومنها نار شوقي في اصطلاء
وقلبي عندها المضنى المعنى
سواها ما هواه بلا امتراء
ولم لا والنبي أوى إليها
وفيها قد ثوى طيب الثواء
نبي مجده أفق المعالي
علا عن كل عال في علاء...(25)

وهذه قصيدة مصدرة بنسيب، أنشدها في محفل ختم أستاذه الشيخ المفضل ابن عزوز، لتدريس «الشمائل المحمدية» للترمذي عام 1313هـ، وكان ذلك في المسجد العلمي:

ما الحسن إلا بطرف أحرز الدعجا
بصبح وجه ـ لِـهَيْفَا ـ أحسن البلجا(26)
حَوْرا لها حَوَر قد زانها برد
مفترة عنه فاز من بها ابتهجا
فقدُّها قدَّ كل القد إن رقصت
في روض أنس أريض زهره أرجا
البان إن بان في القوام معتدلا
فلن يقاومها ميْسا ولا ثلجا(27)

24) «غاية المقصود...» مصدر سابق: لوحة 120 ـ 122.
25) «إعلام الحاضر والباد»: مصدر سابق.
26) البلج تباعد ونقاوة مابين الحاجبين.
27) الميس شجر عظيم، والثلج قد يكون الناسخ صحفه عن الثبج بالباء، ومن استعمالاته ماجاء في «تاج العروس»: «والثبج علو وسط البحر إذا تلاقت أمواجه».

ـورد الـورد مــن حمرة وجنتهـا
فاكتسب الشفق الـوسمي والوهجا(28)
ن أقبلت أخجلـت بدر الدجـا كملا
وبهجـة أقصرت أهل البهـا عرجـا
غنت فـأغنى غنـاؤها المشنـف عن
مزمار داوود إذ تلحينهـا لزجا(29)
ـزت معـاطفهـا لحسـن رنتهـا
أولي الترني(30) لدا مانقـرت ونجا(31)
يقظ محاجـرك اللائي شرفـن بمر
ءاها السني الـمُزيح الغيم والرهجا(32)
احـذر فرار الكـرا إن زار طالعهـا
واقطف قطـوف المنى بـاليمن ممتـزجا
ضمخ السمع بـالإسماع مرتشفا
عـذب السلاف بـراح الود مبتهجـا
نـزه اللحـظ في مغنـى محاسنهـا
وروض بهجتها الأبهى الذي بهجا:
ـي «الشمائل» فاشملها بِسَمْعِكَ كي
تنشق(33) شمأل مسكها إذا نفجا(34)

وتستمـد بشيمـة النبـوءة مـن
أسرارها وكمالها الـذي انضرجا(35)
أحسن بها جمعـت أخلاق مـن حسنت
بـه السماوات والأراضي إذ نتجـا
قد سـاقها الترمـذي الحبر في غزل
رق ودق فما يحكـى ولا نسجـا
مسلسـلا ومعنعنـا لها سنـدا
بـه أزاح علينا الخوض والمرجـا(36)
فـدم عكـوفـا على طـلابها أبـدا
تنـل بها كامـل الأوصاف والكلجـا(37)
لا سيما إن أبـان الخدر ذو شرف
بحسـن تعبيره الـوضاح مـازبجـا
بحـر العلـوم ودرة الأفـاضـل ذو
العلم العـريض الذي بـالسر قد مـزجا
العالم البـاقر الفرد «المفضـل» من
رقى بـدرج العلا الطباق والـدرجا
«عزوزي» النسـب الكريـم عنصره
من طاب حلما وعلما بالهدى امتزجا(38)

---

(28) وهج الطيب انتشاره وأرجه.
(29) في القاموس: لزج الشيء كفرح تمطط وتمدد».
(30) ترنى أدام النظر إلى من يحبه.
(31) الونج ضرب من العود أو المعزف.
(32) الرهج الفتنة والشغب.
(33) تنتشق.
(34) في القاموس وشرحه: «ومن المجاز نفجت الريح جاءت بغتة».
(35) إنضرج الطريق : إتسع.
(36) مرج الأمر : إضطرب والتبس وفسد.
(37) الكلج : الكريم الشجاع.
(38) القصيدة هي الثالثة بين قصائد ختم الشمائل الترمذية، حيث يوجد نصها بالمصدر المشار له عند التعليق رقم 16: ص53 ـ 55.

وفي ميدان الرثاء نقتطف من قصيدة للمترجم نظمها تابينا لقريبه النقيب السيد المختار الشبيهي(39)، ومطلعها:

ترقرق جفن العين وانسكب الدمع
وسح كسح الوبل ليس له حصر
وصار ينوح الحب طول حياته
ويبكي حبيبا بينه فرق الدهر

إلى أن يتخلص لبعض محاسنه :

إمام تهادى في المجادة والعلى
يرقى له في كل اوانة قدر
إمام له في الزهد أعظم منصب
ومع زهده بالفضل يخدمه الدهر
صبور على العاهات ذو النسك والتقى
إمام له في كل صالحة ذكر
خطيب إذا ما قام في الناس واعظا
تجبر من ياوي لأحشائه الكسر
فصيح بليغ حاز في العلم شأوه
وفي حلمه الهامي تجلى لنا الإمر
من اختاره الرحمن مختار قومه
بأعلا العلا، قدما له المجد والفخر
فمذهبه حب الشريعة والهدى
وفي متجر الأرباح فيه مضى العمر
له غرة كالشمس واضحة السنا
بصاحبها يبدو التبسم والبشر(40)

ومن شعر المترجم في الاستعطاف، بيتان خاطب بهما أستاذه المفضل السوسي سابق الذكر بين أشياخه:

معدن الفضل ويم الفضلا
دوحة العلم وتاج العلما
سيدي عيني تفيض دمعها
مالها راق سواك من سما(41)

ونذيل - أخيرا - بهذه المساجلة القصيرة بين المترجم وقاضي مكناس المولى أحمد البلغيثي، وقد وردت في ديوانه(42) كالتالي:

قال (القاضي) مجيبا عن بيتين كتب له بهما - في قضاء مكناس - أحد عدولها: الفقيه الشريف الأديب سيدي محمد بن إدريس الشبيهي، وكان يتحامى الانتصاب للشهادة بسماط العدول، ويحب أن ترسل إليه الشهادات لداره في عزة نفس، وكان اتفق توجيه تقييد متروك له لرجل يقال له ابن ساكن، وهما:

---

39) من خط العالم المقيد المعتني الحسن بن اليزيد العلوي المحمدي: «توفي الشريف العلامة، الدراكة الفهامة، نقيب الشرفاء الأدارسة بمكناس سيدي المختار، في 26 من شعبان عام 1307»، وقد كان بين العلماء 13 المنتصبين للتدريس في المسجد الأعظم بمكناس عام 13304هـ كما كان يضطلع بخطبة الجمعة في المسجد العلمي بنفس المدينة.

40) القصيدة من خط السيد الحسن بن اليزيد المنوه به وشيكا.

41) من خطه أيضا.

42) المشار له عند التعليق رقم 23: 2/ 262.

إنسان عيني بل سويداء ساكني
لقد نلت فضلا في تحرك ساكني
وأحببت نفعي وهو عني مبعد
ولاكنه يدنو بنفع ابن ساكن

بقوله : (القاضي) :

لعمرك إني ذو اهتمام بنفعكم
على حين ياتيكم لقعر المساكن
وأرجو لكم تحريك ساكن فعلكم
بفتح وإن رام السوى كسر ساكن

وستكون هذه المساجلة ءاخر ثمانية نماذج من شعر أديب مكناس، ويلاحظ أنها تعود إلى أيام شبابه وكهولته، وقد أقصر ـــ بعد ذلك ـ عن قول الشعر إلا قليلا، تأثرا بانقطاعه للتدريس، فضلا عن واقع المغرب بعد الحماية.

* * *

وإلى هنا يصل بنا المطاف إلى التوجه الثاني لثقافة المترجم، والقصد إلى التفرغ لنشر العلوم الشرعية واللسانية، وهو الهاجس الذي التزمه حتى ءاخر حياته، والمتوقع أنه ابتدأ هذه المرحلة من العشرينيات الهجرية(43)، واستمر إلى حوالي الستينيات: نحو أربعين عاما قضاها في تكوين طلابه جيلا بعد جيل، وخلال هذه المدة كان في بعضها ثالث ثلاثة من أركان التعليم بمكناس: شيخ الجماعة محمد بن الحسين العرائشي، والقاضي محمد بن أحمد السوسي، وثالثهم هو المترجم.

فلنقدم شيئا في الكشف عن جانبه المعرفي، فقد كان ـ في بلدته ـ يشار إليه كعالم متميز ومشارك في جملة مواد: فقها ولغة وتصريفا ونحوا، فضلا عن الأدب والعروض والقوافي، مع مخالطة للسيرة النبوية.

ويشف أسلوب تدريسه عن تمكن من مادته، مع جودة إدراك وحسن تفهيم، ويسلك في إقرائه الطريقة المثلى في التعليم الأصيل، فيكتفي بتحليل المتن المدروس مع شرحه، ويوضح المسألة جيدا، دون تطويل بالرجوع إلى التعاليق إلا مايهم منها(44).

---

43) لنتذكر هنا أن القاضي أحمد سكيرج، يحليه ـــ عام 1329 هـ ـ بأحد العلماء المدرسين بمكناسة، حسب «غاية المقصود»، مصدر سابق: لوحة 120.

44) في «المنتقى المقصود» لأحمد ابن القاضي عند ذكر شيخه مبارك بن علي بن إبراهيم الجزولي: «وقراءته لخليل: يصور المسألة فقط، كعادة أهل مصر والمشرق، وحدثني شيخنا أبو راشد: أن قراءة الزقاق وسيدي علي بن هارون كانت كذلك أيضا، فهي أفيد لطالب العلم»، «المنتقى المقصور...»، مطبعة المعارف الجديدة ـ الرباط: 2/ 788 ـ 89.

وعند محمد المكي الناصري في «الدرر المرصعة» وهو يترجم للشيخ محمد ابن ناصر الكبير: «وكثيرا ما يقول ـ رضي الله عنه ـــ للطلبة، وكذلك تلميذه... شيخنا أبو علي اليوسي رحمه الله: الاقتصار على صورة المسالة انفع للمبتدي، والإكثار من الأنقال اضر بالمتعلمين، وكان يحكي عن ابن مهدي الجراري رحمه الله: أنه كان يقول: حقيقة الإقراء تصحيح المتن وحل المشكل، وزيادة غيرهما ضررها بالمتعلم أكثر من نفعها، ويحكيه عن ابن عرفة أو غيره... وعلى هذا كان شيخنا ـ هذا ـــ أبو عبد الله ابن ناصر، وتلميذه أبو علي اليوسي، وكذلك شيخنا أبو العباس المزجلدي... وشيخنا ابن حمدان التلمساني، وهكذا كان شيخنا القدوة المحدث أبو محمد سيدي عبد=

وبما أنه شاعر بارع، كان ـ أحيانا ـ يرجز لطلبته مسائل المادة التي يصعب تحصيل قواعدها.

ولن أستطيع رصد المواد والكتب التي اشتغل فيها مع طلبته من زمن بدايته، وقد أدركته خلال الخمسينيات الهجرية، يقوم بالتدريس في ا لربع الثاني من المختصر الخليلي بشرحه الدردير، في المسجد الأعظم عند الصباح الباكر، وفي المدرسة العنانية موضع إمامته، يقرىء ـ بعد صلاة العصر ــ الألفية لابن مالك بشرح ابن عقيل، وحينا درس «الكافي في العروض والقوافي»، وبين العشاءين ــ في نفس المدرسة ـ الرسالة القيروانية بشرح أبي الحسن: «تحقيق المباني»، وحين تقترب أيام المولد النبوي يشتغل بالسيرة النبوية بمحاذاة همزية البوصيري.

وإلى مكناس كان يلقي دروسا بزرهون، في مناسبات سنوية يقصد فيها هذه المدينة للاستجمام.

وكان يلقي دروسه إملاء دون الاستعانة برجوعه إلى الكتاب، على خلاف عادة بعض معاصريه.

وتلك كانت عادته في خطبة الجمعة، فيمليها ــ من إنشائه ــ دون ورقة في أسلوب مؤثر.

وفي سلوكه مع طلبته، يحملهم على الوقار في حلقة الدرس، ويؤنب المتكاسل، وربما طرد المخالف لهذه الآداب.

ولم يتصد للتأليف، وقد كان كثير من شيوخ المغرب يفضلون نشر العلم بالتدريس(45)، ومرد ذلك إلى أن التعليم

= في «المنتقى المقصود» لأحمد ابن القاضي عند ذكر شيخه مبارك بن علي بن إبراهيم الجزولي: «وقراءته لخليل: يصور المسألة فقط، كعادة أهل مصر والمشرق، وحدثني شيخنا أبو راشد: أن قراءة الزقاق وسيدي علي بن هارون كانت كذلك أيضا، فهي أفيد لطالب العلم»، «المنتقى المقصور...»، مطبعة المعارف الجديدة ـ الرباط: 2/788 ـ 89.

وعند محمد المكي الناصري في «الدرر المرصعة» وهو يترجم للشيخ محمد ابن ناصر الكبير: «وكثيرا ما يقول ـ رضي الله عنه ــ للطلبة، وكذلك تلميذه... شيخنا أبو علي اليوسي رحمه الله: الاقتصار على صورة المسألة أنفع للمبتدي، والإكثار من الأنقال أضر بالمتعلمين، وكان يحكي عن ابن مهدي الجراري رحمه الله: انه كان يقول: حقيقة الإقراء تصحيح المتن وحل المشكل، وزيادة غيرهما ضررها بالمتعلم أكثر من نفعها، ويحكيه عن ابن عرفة أو غيره... وعلى هذا كان شيخنا ـ هذا ــ أبو عبد الله ابن ناصر، وتلميذه أبو علي اليوسي، وكذلك شيخنا أبو العباس المزجلدي... وشيخنا ابن حمدان التلمساني، وهكذا كان شيخنا القدوة المحدث أبو محمد سيدي عبد القادر بن علي الفاسي، ونجله الصالح سيدي محمد بن عبد القادر، وغيرهما من الأعلام»، «الدرر المرصعة...» مخطوطة خ.ع.د 3785.

45) كتب الأمير شكيب أرسلان تقديما لكتاب «البينات» تأليف الشيخ عبد القادر المغربي، وجاء فيه عن الشيخ إبراهيم التادلي، أن الأستاذ الإمام محمد عبده اجتمع ـ في بيروت ــ بشيخ الجماعة بالرباط، فكان من جملة ما سأله عن حالة العلم في المغرب، وهل يوجد ـ يومه ــ هناك من اشتهر بالتأليف؟ فأجابه الشيخ التادلي: «ليس=

بالمشافهة يفهم السامع فيه من مراد المتكلم، أضعاف مايفهمه منه القارىء لكلامه(46).

أما أخلاق المترجم فكان عزيز النفس في علو همة، يترفع عن مخالطة الولاة، ويبتعد عن حضور الرسميات، وهو ــ كشيوخ جيله ــ متين الديانة، حسن البزة، يلازم ارتداء «الكساء»: زي الفقهاء ءانذاك.

ومن علو همته تجافيه عن الانخراط في الوظائف الرسمية، وكانت الخطة الأولى التي انتدب لها، هي «العدالة» بسماط المدينة عام 1307هـ، على أنه رفض ممارستها من عشرة الأربعينيات هـ، وقد تدرج في أسلاك التعليم الأصيل حتى ارتقى إلى الدرجة الأولى، وعليها توفي، وفي عام 1319هـ أسندت له خطبة جامع الزيتونة، بديلا عن خطيبها المتوفى: الشيخ المفضل ابن عزوز، ثم في عام 1354هـ رشح للوعظ ـ في المسجد الأعظم ـ بكرسي «الذخيرة» و«التفسير» ومامعهما.

ولنتبين المدى الطويل الذي قضاه في التدريس، نلم بزمرة من الآخذين عنه طبقة بعد طبقة، في نماذج من الراحلين منهم تصل إلى 19 إسما، مرتبين في كل طبقة حسب وفياتهم:

فمن أوائلهم الفقهاء السادة: إبراهيم بن محمد بن أبي القاسم المسطاسي، ومحمد بن الحاج محمد ابن عزوز، وأخ المترجم مولاي عبد الملك، ومحمد بن محمد بن قاسم بصري خطيب مكناس والدار البيضاء.

ثم الفقهاء السادة محمد بن سعيد بن عبد السلام الدكالي الأصل، المكناسي الدار، الفاسي القرار، الرباطي الوفاة والمدفن، والقاضي محمد بن إدريس بن محمد العلوي الإسماعيلي، ومحمد العربي المنوني.

ثم الفقهاء السادة: محمد بن أحمد بن المفضل برادة، ومحمد بن أحمد بن محمد ابن الفقيه، ومحمد المختار بن الحاج محمد بن الحاج المكي السنتيسي، وأحمد بن عبد السلام بن الحاج عبد الله ابن شقرون، والمولى العباس بن بناصر بن عبد السلام العلوي الأمراني.

= العلم بكثرة التأليف، ولكن بالمدارسة والمثاقفة، ومع هذا فيوجد مؤلفون في الأيام الأخيرة»، فأعجب الشيخ محمد عبده بقول هذا الشيخ، وهو أن حياة العلم إنما هي بالمدارسة: المطبعة السلفية بالقاهرة 1344هـ: ص13.

(46) من كلام الشيخ محمد عبده في هذا الاتجاه: «إن الكلام المسموع يؤثر في النفس أكثر مما يؤثر الكلام المقروء، لأن نظر المتكلم وحركاته وإشارته ولهجته في الكلام: كل ذلك يساعد على فهم مراده من كلامه، وأيضا يمكن السامع أن يسأل المتكلم عما يخفى عليه من كلامه، فإذا كان مكتوبا فمن يسأل؟.

[إ]ن السامع يفهم 80 في المائة من مراد المتكلم، والقارىء لكلامه يفهم منه 20 في المائة على ماأراد الكاتب»، «تفسير [ا]لمنار» 1/ 13.

ثم الفقيهان : الـرشيد بن عبد اللـه بن رشيد المنوني، ومحمد ـ بضـم أوله ـ بن عبد القادر بن أحمد العرائشي العلمي.

والطبقـة الأخيرة منها الفقهـاء السـادة محمد ـ بفتح أوله ـ بن العربي الطاهري، والنقيب عبـد الرزاق بن إدريـس القادري، والطيب بن العربي الطاهري شقيق المذكور أولا، والطيب بن عبد القادر الحريف.

وبمدينـة زرهون الفقيـه ابن الخيـاط: محمـد بـن عبد اللـه بـن سميـه الأوربي العطاري الزرهوني نـزيل مكناس، ودفين مكة المكرمة حاجـا، وكان يذكر أن المترجم هـو الذي أشـار عليه بـالـرحلة إلى فـاس لإتمام دراسته.

وأخيرا: كانت وفاه المترجم يوم الجمعة 23 جمادى الأولى 1362 / 22 ماي 1943، ودفـن في مقبرة أسرتـــه في درب الشرفـاء بسـوق العطـارين مـن مكنـاس، وأتبعـه الناس ذكرا حسنا، تغمده الله ـ سبحانه ـ بالـرحمة والرضوان، وألحقنـا به مسلمين مومنين.

الرباط ـ محمد المنوني



من مخطوطات خزانة القرويين:

شرح بردة الإمام البوصيري

للفقيه عبد الرحمن الجاديري

للأستاذ محمد بن عبد العزيز الدباغ
محافظ خزانة القرويين بفاس

عرفت مدينة فاس في عهد المرينيين دهارا علميا في شتى ميادين المعرفة، كانت هاته المدينة تستمد عناصر معرفتها ذاك من جامع القرويين من جهة، ومن رافدين عليها من جزيرة الأندلس من هة أخرى، نظرا لاضطراب الأحوال في ك البلاد، ولتسلط النصارى على عدد ن المدن، فلم يكن هناك بد من أن يفر ض العلماء بدينهم، وأن يرحلوا إلى ختلف البلدان التي يجدون فيها انسجاما ع أرواحهم ونفوسهم، فكانت مدينة اس من أحفل المدن التي استقبلتهم، ان علماؤها من أكثر الناس احتفاء ؤلاء القادمين.

ولقد كانت طبيعة هاته المدينة في عصر ينيين تقتضي مسايرة الاتجاه العلمي الذي تناصره الدولة، لأنه اتجاه منبثق من أصول الثقافة الإسلامية، ومن أصول الأدب العربي، بحيث لا نستطيع أن نتحدث عن ازدهار العلوم الدينية والأدبية في العالم الإسلامي عامة دون أن نجعل رصيدا كبيرا للدولة المرينية ولعاصمتها مدينة فاس.

إن النشاط العلمي في عصرهم يبدو واضحا في المؤلفات التي عرفتها هاته الحقبة التي عاشوا فيها، وفي الإنتاج الفكري الذي كانت تزخر به الخزانات العامة آنذاك.

ومن المعلوم، أن الاعتناء بالخزانات يحدث ازدهارا علميا كبيرا، لأنه يسهم في تقريب الثقافة لمريديها، ويسهل على الطلبة الوصول إلى ما يرغبون فيه.

ولا ينسى تاريخ المغرب، الفضل الكبير الذي خلده أبو عنان المريني بتأسيسه لخزانة القرويين عام خمسين وسبعمائة، فإنه بهذا العمل، ساعد أجيالا من بعده على الانكباب على المعرفة، وأفاد كثيرا من الوافدين على جامع القرويين، وأعانهم على المطالعة والدراسة والمقابلة والاستنساخ.

ومن بين الذين استفادوا من هاته الخزانة ولاشك عالم من علماء المغرب، ولد بعد تأسيسها بسبع وعشرين سنة، إنه الفقيه عبد الرحمن الجاديري موقت مدينة فاس في عصره، وشارح بردة البوصيري رحمه الله. المتوفى سنة 818 هجرية.(1)

كان هذا الفقيه وقورا محترما من لدن سكان هاته المدينة، فمنحوه لعلمه وورعه التصرف في تحديد مواقيت صلواتهم، وهم لم يمنحوه هذه الوظيفة إلا لأنهم آمنوا بنزاهته في العلوم الرياضية والفلكية.

ومن المعلوم، أن المركز الرئيسي في تحديد الأوقات وتتبع الأهلة، ورصد النجوم داخل مدينة فاس، كان بجامع القرويين. ففي هذا الجامع توجد غريفة بمصعد الصومعة متصلة بسطح المسجد، كانت تحتوي على ساعة مائية دقيقة تضاف إليها آلات الاسطرلاب، وآلات أخريض صالحة للتعديل، زيادة على المزولة الدقيقة المسامتة للشمس الموجودة بالسطح لحد الآن.

ففي هذه الغريفة، كان عبد الرحمن الجاديري يتولى عمله، ومنها كان ينزل إلى المسجد ليتعلم ويعلم في آن واحد، فالعلم لم يكن له حد زمني، والعالم في عصر المرينيين ـ كما يجب أن يكون عليه الحال في كل عصر ـ هو الذي لا يتوهم أنه بلغ الكمال.

ولقد بلغ الإعجاب بهذا العالم عند المؤرخين مبلغا جعلهم لا يذكرونه إلا بالفضل، ولا يتحدثون عنه إلا حديث تقدير وتنويه، سواء من حيث سلوكه الشخصي، أو من حيث إنتاجه الفكري. نجد ذلك في الكتب القديمة، وفي كتب المعاصرين. فمن الذين ترجموا له قديما أبو العباس أحمد بابا التنبكتي في كتابه (نيل الابتهاج بتطريز الديباج)، وأبو العباس أحمد بن القاضي في كتابه (جذوة الاقتباس فيمن حل من الأعلام بمدينة فاس) وفي كتاب (درة الحجال في أسماء الرجال).

وممن ترجم له حديثا، الفقيه الشريف محمد بن جعفر الكتاني في كتابه (سلوة

---

1) قال في سلوة الأنفاس كذا في الجذوة والدرة ولقط الفرائد والمنح البادية وغير ذلك وأما في الكفاية والنيل فقد ذكرا تبعا لبعض المجاميع المغربية أنه توفي سنة نيف وأربعين وثمانمائة. ونقل عن الوفيات للونشريسي أنه توفي سنة تسع وثلاثين.

الأنفاس)،(2) والشيخ عبد الحي الكتاني في (فهرس الفهارس)،(3) وكحالة في (معجم المؤلفين)،(4) وبروكلمان في (تاريخ الأدب العربي)،(5) والأستاذ المحاضر عبد القادر زمامة في كتابه عن أبي الوليد ابن الأحمر.

وترجم له أيضا، الدكتور محمد بن أحمد ابن شقرون في كتابه (مظاهر الثقافة المغربية)، وقال عنه بعد سرد بعض مؤلفاته: «ويتعلق الأمر هنا كما نرى بشخصية ملحوظة ذات ثقافة واسعة وقدرة على التأليف، ولو قدر لها أن تعيش أكثر، لأفادتنا بإنتاج أضخم، لكن المنية عاجلتها وحالت دون تحقيق ذلك».

ونحن لو تتبعنا موضوعات مؤلفاته، لوجدناها متعددة الاتجاهات، مما يدل على أنه كان عالما مشاركا، فقد أشار الكتاني إلى بعضها في (السلوة) فقال: «ألف رحمه الله تآليف عديدة، منها: شرح رجز ابن مقرع، ومختصر شرح الخاقانية للدائي، ورجز سماه النافع في أصل حروف نافع، وتنبيه الأنام على ما يحدث في أيام العام، وشرح رجز شيخه القيسي في الضبط، وشرح الدرر اللوامع، ونظم في التوقيت سماه روضة الأزهار في علم وقت الليل والنهار، واقتطاف الأنوار ذكر فيه مسائل الروضة نثرا، وهو كالشرح لها، ومختصر الاقتطاف المذكور، وله أيضا المذكر والمؤنث، وفهرست مليحة عد فيها مشيخته، وشرح البردة وغير ذلك».

وتوجد بعض كتبه في الخزانات المغربية محفوظة لحد الآن، ومن ذلك شرحه للبردة الذي توجد منه نسخة بخزانة القرويين داخل مجموع مسجل تحت عدد 643، وتحتوي على ثلاث وخمسين صفحة من حجم 20 × 26، وسطورها 35، وهي عارية عن اسم الناسخ وتاريخ النسخ، إلا أنها تعد من النسخ الجيدة الموثقة، فقد انتسخت ـ كما جاء في آخرها ـ من أصل كتب بآخره ما نصه: «انتهى التقييد على القصيدة المباركة (البردة) مما اختصره العبد الفقير إلى الله عبد الرحمن بن أبي غالب بن عبد الرحمن المديوني الجاديري من شرح الفقيه الرئيس اللغوي أبي الوليد بن الأحمر، وذلك ليلة الخميس منتصف جمادى الثانية عام سبعة وتسعين وسبعمائة».

ولعل هذه النسخة الأصلية، هي نسخة المؤلف، أو على الأقل تكون من النسخ التي احتفظت بتاريخ التأليف إن لم تحتفظ بتاريخ النسخ.

---

2) الجزء الثاني : صفحة 157.
3) الجزء الأول : صفحة 216.
4) الجزء الخامس : صفحة 179.
5) الجزء الثاني :

ويتجلى من هذا النص، أن شرح الجاديري إنما هو مختصر موجز لشرح قام به شيخه أبو الوليد ابن الأحمر فرج، وقد أفصح عن ذلك في مقدمة هذا التقييد حيث قال: «وبعد، فإني لما كتبت القصيدة المعروفة بالبركات، والأعجوبة التي أذهبت الأزمات، والكربات، والكواكب الدرية الموسومة بالبردة التي كسيت من الفضائل بالبردة، وأخذتها عن جماعة من شيوخنا رواية، واشتغلت بمعانيها وألفاظها لإتقانها دراية، فاطلعني شيخنا الرئيس الأديب، سراج الأدباء، وتاج البلغاء، أبو الوليد إسماعيل بن الأمير أبي الحجاج يوسف بن السلطان أمير المسلمين أبي عبد الله محمد بن فرج بن الأحمر الخزرجي على شرحه لمعانيها، وذكر ما غمض من ألفاظ مبانيها. فرأيته تقلد لإظهار الفوائد بالطاعة، وتكفل لها قدر الاستطاعة، وربما زدت في مواضع بنقل غريب لم يشرحه، فأردت أن أسطر له في هذا الجزء المختصر القريب، وأذكر ما احتوى عليه، من القريض والغريب، وما استحسنه من معنى عجيب على حسب ما أمكنني».

وفي مدح شرحه يقول:

هذا الكتاب له فضل وتعظيم
إذ فاق منه بنثر القول تنظيم
أبديت فيه من الإبداع لي جملا
تفصيلها طاب منه الفرع والخيم
فيه من النحو ما لاذ النحاة به
إذ سالموه وقول الحق تسليم
وفيه من لغة الأعراب أفصحها
إذ بان منها إلى الإشكال تفهيم
وقسم القول في علم البديع به
ما منه قد راق تسهيم وتقسيم
وللبيان بيان فيه ممتدح
قد قام منه لبدء القول تتميم
والفقه فيه تزيلات نوازله
بكل معنى له عز وتكريم
وللتواريخ فيه كل فائدة
أطال فيها لسان المدح تعظيم
وفيه من طرق الآداب أظرفها
قد طاب منها لذا التجهيل تعليم
وكل ذاك بأمداح النبي رقا
وراق منه بوسم الحسن توسيم

والواقع، إن الجاديري نفسه سار على نسق أستاذه في هذه الجزئيات، فتتبعها شرحا وتحليلا واستدلالا، وحاول ما أمكنه ألا يدع بيتا دون أن يتتبع شرح ألفاظه، وإبراز حقيقته ومجازه، ودون أن ينبه على ما فيه من مختلف الروايات إذا كان هناك اختلاف فيه، فهو في شرحه هذا يمثل صورة واضحة من الشمولية الثقافية التي كانت معروفة في عصر المرينيين، كما يمثل في الوقت نفسه الطابع الذي كان يتجلى على طرق الرواية، وعلى تتبع السند حرصا على الإبانة، وحفظا للأصول من الضياع،

لا فرق في ذلك بين رواية القصيدة الأدبية والخبر التاريخي ورواية الحديث.

إن قصيدة البردة، رغم كونها تعد من القصائد الأدبية، فإنها عند الجاديري جديرة بإظهار كل الروايات المتعلقة بها، وإظهار ما ينتج عن ذلك من معان وأغراض، وجديرة بأن يذكر رواتها ويذكر شيوخه الذين لقنوه إياها، ليطمئن الذين يروونها عنه، وليعلموا أنه كان جادا في عمله، حريصا على أن تكون القصيدة مطابقة لمنبعها، موافقة لمنطلقها.

وقد أبرز في مقدمة شرحه هذا، حقيقة كانت متجلية في عصر المرينيين تتعلق بذيوع هاته القصيدة وشيوعها بين الأدباء المغاربة، والأدباء الأندلسيين، حيث تولى شرحها عدد كبير من الأدباء والعلماء، كما تولى معارضتها عدد لا يستهان به من الشعراء.

فمن الذين شرحوها: الفقيه أبو القاسم بن يحيى بن محمد الغساني البرجي، ولم يكمل شرحه، ومنهم المؤرخ عبد الرحمن بن خلدون، ومنهم الفقيه أبو عبد الله محمد بن محمد العجيسي المشهور بابن مرزوق، ومنهم أبو الوليد الرئيس أبو عبد الله محمد أخو شيخه أبي الوليد ابن الأحمر السابق الذكر.

وأما الذين عارضوها، فقد ذكر منهم شهاب الدين أحمد بن يحيى بن أبي بكر بن عبد الواحد ابن أبي حجلة التلمساني الدمشقي القاهري الذي عارضها بقصيدته التي أولها:

أمن محية ظبي حل بالحرم
حرمت صيد الكرى في حندس الظلم

وهي التي يقول فيها في مدح خير البرية :

وخصه الله بالخلق الكريم كما
جاء الكتاب به في ن والقلم
وأجزل الله بالقرآن قسمته
لا سيما في الذي في الحجر من قسم
لو أقسم المرء أن الله شرفه
بكل حرف لبرت أحرف القسم

وقد عارضها أيضا شهاب الدين أحمد بن إبراهيم الحسيني المدني المولد والمنشأ، نزيل فاس بقصيدته التي أولها.

أمن غرام بنجد أنت لم تنم
أو من هيام ووجد أنت ذو ألم

وفيها يقول :

وقد نسجت على منوال بردة من
كسوته برد برء الداء والسقم
محمد بن سعيد والسعيد غدا
إذ اشتكى الخلق من أرزاء وزرهم
رئيس بوصيري لا ضلت بصيرته
يوم يضل بها من ضل وهو عم

ومن الذين عارضوها شيخه أبو الوليد ابن الأحمر، قال في مطلع معارضته:

أمن أغاني مغاني طيبة العلم

أصبحت في الحب مثل المفرد العلم

ولقد خص في هذه المقدمة فصلا لترجمة البوصيري رحمه الله فقال عنه: «إنه محمد بن سعيد بن حماد بن عبد الله بن حياتي بن صنهاج بن هلال الحميري البجائي، نزيل بوصيري من أرض مصر، المعروف بالبوصيري». وذكر أنه كان فقيها إماما عالما عارفا بالفقه، بصيرا بالعربية، له حظ وافر في معرفة الآداب والشعر، وله مشاركة في أصول الدين، وباعه مديد في علم التصوف.

ولا بأس أن نشير قبل الشروع في الحديث عن منهاج المؤلف في شرحه هذا، وعن بعض محتوياته، إلى بعض شيوخه الذين روى عنهم هذه القصيدة، فهو قد سمعها في جلسة واحدة من لفظ الشيخ المسن الحاج الراوية أبي عبد الله محمد بن الشيخ الفقيه الراوية الحاج ذي الوزارتين صاحب الخلافة أبي الفضل بن عبد الله بن أبي مدين العثماني، ثم سمعها منه أيضا في جلسة أخرى من لفظه في أواخر محرم عام سبعة وتسعين وسبعمائة، وحدثه بها سماعا لجميعها في مجلس واحد من لفظ الشيخ الفقيه الراوية الحاج الرحال المحدث أبي عبد الله محمد بن جابر الوادي آشي بتونس عام إحدى وأربعين وسبعمائة عن تقي الدين أبي عبد الله محمد بن فخر الدين التوزري سماعا عليه لجميعها عن ناظمها سماعا عليه قال: «وهذا سند عال متصل السماع». وقد رواها أيضا عن شيخه الأديب الرئيس أبي الوليد ابن الأحمر قراءة عليه، وقرأ بعضها على الشيخ أبي العباس أحمد بن محمد التينملي المعروف بالمراكشي.

وهكذا نرى كيف كانت همة العلماء، وكيف كان تقدير الرواية. فهذه قصيدة واحدة حينما أراد الجاديري شرحها تحرى في نقلها، وعمد إلى تحديد روايتها ورواتها، حفظا للمتن من التحريف، وإظهارا لدرجات السند ليكون ذلك أدعى إلى اختيار الموافق، وإيثارا للنقل الصحيح.

ومن المعلوم، أن اختلاف اللفظ قد يتسرب إلى القصيدة الشعرية رغم قرب زمان نظمها، وينتج هذا الاختلاف عن أحد أمور ثلاثة.

الأمر الأول : اعتماد بعض الرواة على الحفظ دون التدوين، فيؤثر ذلك على النص الأصلي، لأن الراوي قد ينسى كلمة فيأتي بما يناسبها في الوزن والمعنى، ومن ذلك مثلا قول البوصيري:

أيحسب الصب أن الحب منكتم

ما بين منسجم منه ومضطرم

فهو يروى أيضا على الشكل الآتي:

يحسب الصب أن الحب مكتتم

ما بين منسجم منه ومضطرم

أي بتبديل لفظة منكتم بلفظة مكتتم.(6)

وقد يكون منه قوله:(7)

حضتني النصح لكن لست أسمعه

إن المحب عن العذال في صمم

فقد روي بتبديل كلمة النصح بكلمة لود إلا أن الجاديري رحمه الله يرى أن لعنى مع النصح أبين وأوضح.

وقد يكون منه أيضا تبديل لفظة لدواخل بالدسائس في البيت الآتي:(8)

اخش الدسائس من جوع ومن شبع

فرب مخمصة شر من التخم

وقد يكون منه تبديل كلمة راح بكلمة ظل في البيت الآتي المتعلق بالآيات القرآنية وما فيها من إعجاز ففيه يقول:

لا تعجبن لحسود ظل ينكرها

تجاهلا وهو عين الحاذق الفهم(9)

فهو يروى على الشكل الآتي: لا تعجبن حسود راح ينكرها الخ..

الأمر الثاني : من الأمور التي تتسبب ي اختلاف الروايات، الخطأ في قراءة المقيدات والمدونات، فإن الكاتب قد يختلط عليه حرف بحرف فيقرأ الكلمة على غير حقيقتها، ويلقنها على حسب ما قرأه لا على حسب ما سمعه. أولا.

ويمكننا أن ندخل في هذا النوع الأمثلة التالية التي يقرب فيها التشابه اللفظي بين الروايتين، وذلك مثل كلمة الدهر في البيت الثاني من البيتين التاليين، فهي قد تعوض بكلمة الزهر.

قال البوصيري رحمه الله:

أكرم بخلق نبي زانه خلق

بالحسن مشتمل بالبشر متسم

كالزهر في ترف والبدر في شرف

والبحر في كرم والدهر في همم

فقد قال الجاديري بعد ذكر هذا البيت:(10)

هكذا في نسخة البردة، الدهر بالدال، وعليه شرح شيخنا أبي الوليد. وفي روايتنا عن الوادي آشي وهو الذي رأيته بخطه ونقلت منه، نسخة بالزاي مضمومة، والزهر والزهر: النور الأبيض، ويريد الناظم بالزهر الكواكب والنجوم، لأنها زاهرة مضيئة. وقال شيخنا العثماني: قال لنا شيخنا الوادي آشي يزعم بعضهم أنه

---

(6) الصفحة السادسة من الشرح المذكور.

(7) الصفحة السابعة من نفس الشرح.

(8) الصفحة العاشرة من نفس المصدر.

(9) نفس المصدر : الصفحة 38.

(10) نفس المصدر : صفحة 23.

الدهر، والدهر لا همة له، وإنما هو الزهر، فإن النجوم عوالي الهمم لما كانت مواضعها عالية في الثامن من الأفلاك العشرة.

الأمر الثالث : في اختلاف الروايات قد يرجع إلى الشاعر نفسه، فهو الذي ينظم قصيدته ثم يرتئي تغيير كلمة بأخرى، أو هو الذي يقع له ذلك التغيير عفويا فيتلقاه الرواة عنه وينتشر كلامه حسب ما ورد عنه حين تقديمه لهؤلاء أو أولئك، فيرويه كل راو حسب ما سمعه، ويمكن أن ندمج في هذا النوع بعض التغييرات التي لها أثر في المضمون.

ومن ذلك قول البوصيري رحمه الله:

آيات حق من الرحمن محدثة

قديمة صفة الموصوف بالقدم

فقد اضطرب شراح هذا البيت في معناه، وقد يكون هذا الاضطراب واردا حتى في عصر الناظم ذاته، لأن الأمر يتعلق بالآيات **المحدثة القديمة**، فما المراد منها؟ وما مصداقها مع العقيدة النزيهة الصافية.

لقد حاول بعض الرواة أن يتلافوا ذلك برواية هذا البيت على الشكل الآتي:

آيات حق من الرحمن محكمة الخ..

عوض محدثة، لكن الجاديري لم ير أي التباس في شرح البيت وفق الرواية الأولى، فقد قال:(11) قوله محدثة ليس المراد وصفها بالحدوث الذي يؤذن بأن القرآن مخلوق، وإنما ذلك راجع إلى حدوث نزوله شيئا شيئا كما قيل في قوله تعالى:(12) **﴿ماياتيهم من ذكر من ربهم محدث...﴾** الآية. على تأويل من جعل الذكر ها هنا على القرآن. قالوا: معناه يريد في النزول تلاوة جبريل على النبيﷺ، فإنه كان ينزل سورة سورة وآية بعد آية، لا أن القرآن مخلوق. وقوله: صفة الموصوف بالقدم إخبار عن تلك الآيات أنه كلام الله تعالى الذي هو صفة من صفاته القديمة. ولا يعني أنها نفس الآيات التي هي الحروف المركبة، والأصوات المجتمعة، وإنما يعني ما دلت عليه تلك الحروف، ولو لم يحمل على هذا كلام الناظم، فكان في الكلام تهافت من حيث أن الحدوث نقيض القدم، فيكون جمع بين متناقضين وهو محال، ثم قال: ويؤيد هذا التفسير رواية أخرى عندنا وهي:

آيات حق من الرحمن محكمة الخ...

فعلى هذه الرواية لا إشكال في البيت.

وعلى كل حال، فإن الاهتمام باختلاف الروايات الشعرية كان مبنيا على تعدد الرواة، الشيء الذي دفع الجاديري رحمه الله إلى شرح بعض الأبيات الواردة في رواية شيخه أبي الوليد ابن الأحمر، مع

---

11) نفس المصدر : صفحة 33.

12) سورة الأنبياء : الآية 2.

أنها ليست من قصيدة البردة، والمقصود بها الأبيات الآتية وهي لأبي الحسن علي بن الجياب يقول فيها:(13)

لما شكت وقعة البطحاء قال له
عالي الربى والهضاب انهل وانسجم
فأدت الأرض من رزق أمانتها
بإذن خالقها للناس والنعم
وأليست حللا من سندس ولوت
عمائما برؤوس الهضب والأكم
فالنخل باسقة تجلو قلائدها
مثل البهار عن الأبصار والعنم
وفارق الناس داء القحط وانبعثت
إلى المكارم نفس النكس والبرم
إذا تتبعت آيات النبي فقد
ألحقت منفخما منه بمنفخم
قل للمحاول شأوي في مدائحه
هي المواهب لم أشدد ولم زيم
ولا تقل لي بماذا نلت جيدها
فما يقال لفضل الله ذابكم
لولا العناية كان الأمر فيه على
حد السواء فذو نطق كذي بكم

لقد أضيفت هذه الأبيات بين قول البوصيري:

كم أبرات وصبا باللمس راحته
وأطلقت أربا من ربقة اللمم
وأحيت السنة الشهباء دعوته
حتى حكت غرة في الأعصر الدهم
بعارض جاد أو خلت البطاح بها
سيب من أليم أو سيل من العرم

وبين قوله :

دعني ووصفي آيات له ظهرت
ظهور نار القرى ليلا على علم
فالدر يزداد حسنا وهو منتظم
وليس ينقص قدرا غير منتظم

وهو رغم علمه بأنها ليست للبوصيري، لم يرد أن يسقطها من الشرح، لأنها وردت في شرح شيخه أبي الوليد الذي التزم بتلخيصه والتعليق عليه. ولهذا قال بعد ذكرها: وسقطت هذه الأبيات التسع في روايتنا عن العثماني عن الوادي آشي الذي نقلت نسختي من خطه وفي غيرها، وثبتت في بعض النسخ، وعلى ذلك شرح شيخنا أبي الوليد، ولذلك ذكرتها هنا. ثم أخبرني صاحبنا الفقيه القاضي الحاج الخطيب أبو عبد الله محمد بن مرزوق العجيسي أن ناظمها هو الشيخ الفقيه الكاتب أبو الحسن علي بن الجياب الأندلسي رحمه الله.

ولعل المتذوق للشعر العربي يشعر عند قراءتها أنها دون نفس القصيدة البوصيرية، وأنها لا تحتوي على نفس القوة التأثيرية المنبثقة من أسلوب البوصيري الذي يأسر النفوس بحسن بيانه وجمال ترصيفه.

---

13) نفس المصدر : صفحة 31.

هذا، وإن طبيعة الشرح كانت تقتضي بعد تحقيق النص تحقيقا توثيقيا عن طريق الرواية، التحدث عن صيغة القصيدة اللفظية من جهة، وعما تحتوي عليه من المعاني من جهة أخرى. لذلك كان اهتمام المؤلف منصبا على الجانبين معا:

فمن الناحية اللفظية: كان يتعرض لبعض الظواهر البديعية الشكلية، كما كان يتعرض لبعض الجزئيات النحوية واللغوية.

ومن الناحية المعنوية: كان يهدف إلى التدقيق في الشرح، وإلى ربط المعاني بما يشبهها عند الشعراء الذين تطرقوا لنفس الموضوع.

وكان في طريقته يسير على نسق المعلمين الذين يبحثون عن أقرب السبل إلى التبليغ والتحصيل، ويعتمدون في الوقت ذاته على إرجاع كثير من الفوائد إلى أصولها، وإلى الإحالات إلى مصادرها، لتكتمل الإفادة، فلا تضيع سلطة الملكة ولا تضيع في نفس الوقت هيبة الأصول، وهي طريقة عملية تجمع بين الرواية والدراية، وتعلم الإنسان الاعتماد على نفسه مع عدم إهمال ما عند غيره.

ولم يكن يطنب في التحليل مهما أمكن الإيجاز، بل ان الإيجاز هو الطابع الذي يطبع هذا الشرح. ويمكننا أن نستشف منه رغم وجازته العناصر الثقافية السائدة في ذلك العصر، وأن نتعرف من خلاله على عدد من أعلام اللغة والأدب والتاريخ والسير في الثقافة الإسلامية عامة. ذلك أن المؤلف لم ينفصل أبدا عما هو متداول في الثقافة العربية من الاستدلال بما وضعه كثير من العلماء في العصر العباسي أيام تدوين مختلف العلوم، ومن الاستدلال بما ألف فيما بعد ذلك.

ففي اللغة مثلا: نراه يستدل بالأصمعي (5 ـ 7 ـ 10 ـ 30) ويعقوب بن السكيت (5 ـ 25) وبابن جني (7) وبأبي عبيدة (8) وبالجوهري (9 ـ 25 ـ 26 ـ 28 ـ 30 ـ 32 ـ 34).

وأما في النحو، فإننا نراه يستدل بالكسائي (23) والزجاجي (25) والفراء (42) وابن مالك وابن معطي.

وأما في الجغرافية والتاريخ، فيستدل بأبي عبيد البكري (5 ـ 25) وبابن إسحق وأبي معشر وموسى بن عقبة (42) والطبري (25) والمسعودي (25).

وأما في الميدان الأدبي، فهو يستدل بعدد كبير من الأدباء والشعراء، ويعتمد على بعض آرائهم النقدية، ولا يفرق في ذلك بين المغاربة وغيرهم، ونذكر من بينهم: الشريف المرتضي (6) وابن قتيبة (7 ـ 30) والشريسي (26) وأبا زيد المكودي (30) والوادي آشي، والعثماني، وأبا الحسن بن الجياب (33) وأبا محمد بن مرزوق (33)

ابـن البناء العـددي (35) وغيرهم، هـذا
يـادة على الاستـدلال بشعــر عـدد مـن
شعـراء المشهوريـن: كحسان بـن ثابـت
12) وكعب بن زهير (16) وعمر بن أبي
بيعة (23) والمعري (36)، بالإضافة إلى
ـعراء مغاربة وأندلسيين ورد ذكرهم عند
حديث عن شعر المدح النبـوي، كأبي بكر
ـن مسـدي الأزدي الأنـدلسي (17) وأبي
حمـد بن عبـد العظيـم النمري الأنـدلسي
17 ـ 39) وأبي بكر بن حبيش وغيرهم.

ولم يكن يقتصر على ذكر الأعلام فقط،
ـل كان يحرص أحيـانـا على ذكر بعـض
كتب التي استفاد منهـا. ونذكر منها على
سبيل المثال الكتب التالية:

- إحياء علوم الدين للغزالي
- أدب الكتاب لابن قتيبة (30).
- الاشتقاق لابن دريد.
- التحبير للقشيري (22).
- الجمل للزجاجي (25).
- خـلاصة المحكـم لابـن سيدة، وقـد طلق عليها الخلاصة لشهرتها (17 ـ 28 ـ 3 ـ 34).
- رسالة ابن أبي زيد القيرواني (16 ـ 2).
- الـروض الأنف: قـال: إنه لأبي زيـد كـودي، ونحـن لا نعــرف إلا الـروض أنف للسهيلي. وقد كتب خطأ على الشكل الآتي: الـروض الأنوف بـزيادة الـواو بين النون والفاء ولا معنى لذلك.
- الصحاح للجوهري (17).
- الطيـف والخيال للشريـف المرتضـى (6).
- مختصر الطبري (25).
- المرشدة للمهدي بن تومرت (16).
- مشارق الأنوار للقاضي عياض (24 ـ 34) وقد سماه بالمشارق لشهرته.
- المنهاج الـواضح في تحقيـق كرامـات أبي محمد صالـح، لأبي العباس أحمد بن أبي محمد صـالح بـن ينصارن الماجـري، واقتصر حين ذكره على عنـوانه فقـط دون الإشارة إلى مؤلفه لشهرته (16).
- الهداية لمكي (35).

إن هذه الكتـب التي ورد ذكـرها أثنـاء الشرح تمثل الجوانـب الثقافيـة التي كـان يهتم بها المؤلـف، ففيها كتب اللغـة والنقد والتاريخ والتصوف والفقـه والحديث، وقد ذكرت إما لتعزيز فكرة، أو لتنوير رأي، أو لتحقيق خبر من الأخبار، أو لتـأييد نظرية من النظـريات، أو لغير ذلك مـن الأغراض التي كـان يهدف المؤلف إلى إيضـاحها، أو التعليق عليها.

ويمكـن الاطـلاع على ذلك مـن خـلال النموذج التالي الذي سنختـاره من شرحه، والذي سنجعله ممثلا لبعـض اتجاهاته في الكتابة. فهو مثلا حينما كان يشرح الأبيات

الشعرية التي جاءت في البردة للحديث عن الإعجاز القرآني قال:(14)

«إن الآية التي أعطي نبينا محمدﷺ، وهي القرآن، آية باقية إلى قيام الساعة، دلالة على نبوءته ومعجزته بين سلف وخلف على الدوام في كل عصر، مخبرة بالأشياء الماضية والكوائن الحادثة، تجدد الإيمان في كل أوان، وليس كذلك الكتب المنزلة، فإنها لم تكن معجزة، ولا تحدى بها من الأنبياء من كان في عصره فعجز عنها، وإن كانت معجزة أيضا بما فيها من الأخبار عن المغيبات، إلا أن نظمها ليس بمعجز بخلاف القرآن، وإنما كان تحديهم بغير تلك الكتب بما كان خارقا للعادة فيها. الغالب على أهل ذلك الزمان الاشتغال والمهارة فيه، لأن موسى عليه السلام بعث في زمان السحر، فأتى بمعجزة أبطلت سحر السحرة، وعجزوا عن معارضتها، وعيسى عليه السلام بعث في زمان الطب، فأتى بما أعجز الأطباء من إحياء الموتى وغير ذلك، وبعث نبينا عليه السلام، وجاء بالقرآن، حيث بلغت البلاغة غايتها، ورفعت الفصاحة رايتها، فتحدى بهﷺ العرب الفصحاء على أن ياتوا بمثله وبعشر سور مفتريات فعجزوا، فنقلهم إلى الإتيان بواحدة فعجزوا، وأخبر تعالى أنهم لم يستطيعوا بقوله: ﴿**قل لئن اجتمعت الإنس والجن...**﴾ الآية،(15) وبقوله: ﴿**فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا**﴾.(16)

ثم قال:

«وليس جملة الكتاب كله معجزة واحدة، بل هي معجزات لا تحصى، لأنك إن نظرت إلى أقصر سورة منه وهي سورة الكوثر رأيت فيها من الإعجاز والمعاني والإيجاز والبلاغة والبديع، ورأيت فيها الإعجاز من وجهين:

أحدهما: أنها تضمنت خبرا عن الغيب قطعا قبل بلوغه فوقع كما أخبر، وهو قوله: ﴿**إن شانئك هو الأبتر**﴾.

والثاني من طريق نظم وقلة حروف وقصر آيات، جمع نظما بديعا وأمرا عجيبا وبشارة لرسول اللهﷺ، وتعبدا بسائر العبادات، ورأيت فيها علوما كثيرة».

ثم قال بعد ذلك: «قلت وقد فسرها الشيخ العالم المتفنن في أنواع العلوم، المجمع لأشتات ما افترق منها، أبو العباس

---

14) قال ذلك إثر شرحه للبيت الذي يتحدث فيه عن المعجزة القرآنية وهو:

دامت لدينا فقامت كل معجزة

من النبيئين إذ جاءت ولم تدم

انظر الصفحة 34 من المصدر ذاته.

15) سورة الإسراء : الآية 88.

16) الآية 24 من سورة البقرة.

أحمد بن محمد بن عثمان الأزدي رحمه الله تعالى في جزء مفرد بها. ناولني شيخنا الراوية المحدث أبو زكرياء بن أحمد الحميري السراج، فأتى فيه بالعجب العجاب، وأظهر من مكنون علمها وبديع نظمها وما احتوت عليه من العلوم، وغير ذلك مما يطول ذكره في هذا الكتاب.

ثم قال :

«واختلف العلماء في وجه إعجاز القرآن، فذهب بعضهم إلى أن القرآن متميز عن صنوف الكلام بميزته البلاغية والجزالة خارج عن المعتاد في ذلك، وان إعجازه في شرف جزالته، وذهب بعضهم إلى أن إعجازه في الجمع بين الجزالة الفائقة، والسهولة الخارجة عن أساليب النظم والنثر والخطب والأراجيز، ولا يستقل الإعجاز بأحدها.

ثم قال : «قلت وقال الإمام أبو العباس الأزدي المعروف بابن البناء في مقالته التي تفرق بين الحكمة والشعر وغيره: إنما ذلك لأن الشعر مرتبط بصياغة اللفظ مسرح في المعنى، والحكمة مرتبطة بتحقيق المعنى مسرحة في اللفظ، وأما الارتباط من الجانبين، فليس ذلك إلا في المؤيد من الله، ولأجل ذلك قال رسول الله ﷺ: «أوتيت جوامع الكلم». ولذلك والله أعلم، عجز الفصحاء البلغاء عن معارضة القرآن للارتباط إلى تحقيق المعاني وتجويد العبارة بغاية الفصاحة والبلاغة، ولأن الذي يعارضون به إما أن يكون حقا، فالحق لا يعارض الحق، بل يعضده، فإن كان يومن بصحته فيلزمه الإيمان بالقرآن، إذ الحق واحد في الحقيقة، ويلزم المعارض عدم المعارضة فيتناقض في ادعاء المعارضة، وإما أن يكون ما يعارضون به كذبا وافتراء. فلا يقدح الكذب في الحق ولا يعارضه، لأن الحق مبطل للباطل عند كل أحد، فالقرآن معجز من كل وجه...

فنحن نلاحظ هنا أن الجاديري حاول ما أمكنه أن يظهر أسباب الإعجاز، وأن يوجه عنايته للجانب البلاغي نظرا لأنه يحدد الميزة التي يمتاز بها القرآن عن الكتب السماوية الأخرى، فهي تشترك معه في الإعجاز بالمغيبات، ولكنه ينفرد بالإعجاز البياني. وقد استدل على ذلك بما ألفه أبو العباس أحمد بن البناء في هذا الموضوع، واختار بعض الفقرات من مقاله المتعلق بالفرق بين الحكمة والشعر، وهو مقال أشار إليه ابن البناء في آخر كتاب (الروض المريع في صناعة البديع)، ولم يتيسر لنا الاطلاع عليه. إلا أن هذه الفقرة الموجودة منه في شرح الجاديري تصور لنا كلا من الاتجاه البياني والاتجاه المنطقي اللذين اعتمد عليهما في إظهار الإعجاز في إبراز حقيقته الواضحة.

ومـــن تـــم يمكننـــا أن نعتبر شرح الجاديري مصدرا من المصـادر التي يمكن الـرجوع إليهـا في الاطـلاع على بعض مـا أنتجـه العلماء في عصره، سـواء في الإطـار الأدبي أو في الإطار الديني.

ومما يجب أن نعلمه، أن المؤلف لم يكن في شرحه يتجه إلى هذا النـوع من التحليل الطويـل، فهو كما قـد سبقت الإشـارة إلى ذلك، كان يعمد إلى الإيجاز، وكان حريصا على إبداء الجوانب البيانية في النظم، إلا أنه لم يكـن دائما يسير وفـق المصطلحـات المعهـودة، فهو قـد يخالف الاتجاه العـام، ولا ندري على أي شيء كان يعتمـد في هذه المخالفة.

فمن الأنواع البديعية التي أشار إليها ما يأتي:

أولا ـ التجنيس

ومن نماذج ذلك قولـه أثناء شرح قول الناظم.(17)

لـو كنـت أعلـم أني مـا أوقـره

كتمـت سرا بـدا لي منه بـالكتـم

قـال : «وفي هـذا البيـت التجنيـس في الكتم، والكتم وهـو في علم البديع منـاسبة بين لفظين فـأكثـر في كـل حـروفهـا، وفي أكثرها مع اختـلاف المعنى، وسواء اتفقت الصيغ أو اختلفت.

ويقصـد بهذا التعريـف، إدماج جميـع أنـواع الجنـاس لا فرق في ذلـك بين التـام وغيره.

ثانيا ـ المقابلة

تعـرض لها أول مرة أثنـاء شرح قـول البوصيري:(18)

محضتني النصح لكن لست أسمعه

إن المحب عـن العذال في صمـم

قال: وفي هذا البيت المقابلة: قابل السمع والصمـم. والمقابلـة في علـم البـديع يطلـق عليها الطباق لكونها تقرب منه.

وهو هنا لم يسر على القـاعدة المشهورة التي تفـرق بين الطباق والمقـابلة، فجعلهـا شيئا واحـدا، مع أن الذيـن يتحدثـون عن المقابلة يشترطـون فيها وجود التنظير بين معنيين فـأكثر، ومـا يقـابـل ذلك. أمـا في الطبـاق، فلا يكـون التنظير إلا بين معنـى واحـد وضده، بحيـث لـو أخضعنا البيـت السـابق وأمثـالـه لحكمهـم لجعلوه مثـالا للطباق لا للمقابلة.

ثالثا ـ المطابقة أو الطباق

لقد تبين من خلال الإشارة السابقة إلى أن مفهوم الطبـاق والمقابلة عنـد الجاديري شيء واحد، ولذلك كـان لا يفرق في الأمثلة

---

17) المصدر نفسه : صفحة 8.

18) نفس المصدر: صفحة 7.

بين النوعين، فهو قد جمع أثناء التعرض للمقابلة بين ما يصلح لها وللطباق معا، كما جمع أثناء التعرض للطباق بين ما يصلح لهما أيضا. ويمكن التمثيل لذلك بما ذكره إثر قول البوصيري في مدح سيدنا محمد ﷺ.(19)

أبان مولده عن طيب عنصره
يا طيب مبتدإ منه ومختتم

فقد قال : «في هذا البيت المطابقة من علم البديع في قوله: ياطيب مبتدأ منه ومختتم. ثم قال: ومنه قول عمر رضي الله عنه: الغنى في الغربة وطن، والفقر في الوطن غربة، وكأنه يقصد بهذا المثال الإشارة مرة أخرى إلى أنه لا فرق بين الطباق عنده وبين المقابلة، لأن البيت عند الذين يفرقون بينهما صالح للطباق، والمثال الذي جاء به لا يصلح إلا للمقابلة.

ولقد فرق بعض البلاغيين في الطباق بين التضاد بين الكلمتين على وجه الحقيقة وعلى وجه المجاز، فإذا كان التضاد حقيقيا، سمي طباقا كما سبق، أما إذا كان مجازيا، فإنهم يسمونه **بالتكافؤ** ومثلوا لذلك بقول الشاعر:

وقد أطفؤوا شمس النهار وأوقدوا
نجوم العوالي في سماء عجاج

فالإطفاء والإيقاد هنا مجازيان.

رابعا - التدبيج

تعرض له أثناء شرحه لقول البوصيري رحمه الله وهو يصف صمود الأنصار في المعارك.(20)

هم الجبال فسل عنهم مصادمهم
ماذا رأى منهم في كل مصطدم
وسل حنينا وسل بدرا وسل أحدا
فصول حتف لهم ادهى من الوخم
المصدري البيض حمرا بعد ما وردت
من العدى كل مسود من اللمم

قال : «في هذا البيت (أي البيت الأخير) التدبيح وهو في علم البديع أن تذكر في معنى من المدح أو غيره ألوانا لقصد الكناية أو التورية فمن تدبيج الكناية قول أبي تمام:

تردى ثياب الموت حمرا فما أتى
لها الليل إلا وهي من سندس خضر

ومن تدبيج التورية قول الحريري: فمذ اغبر العيش الأخضر، وازور المحبوب الأصفر، أسود يومي الأبيض، وأبيض فودى الأسود، حتى رثى لي العدو الأزرق، محبذا الموت الأحمر.

. ولقد كتبت هذه الفقرة في المخطوطة على شكل أبيات شعرية خطأ من الناسخ، كما كتبت بعض كلماتها محرفة عن الأصل، وقد صححناها معتمدين في ذلك على

(19) نفس المصدر: صفحة 24.
(20) نفس المصدر: صفحة 44.

المقامة الزورائية المسماة بالمقامة البغدادية أحيانا، وهـي المقامـة الثـالثة عشرة مـن مقامات الحريري رحمه الله.

ومـن الملاحـظ، أن الألـوان يتعـاقبهـا الطبـاق والتدبيـح، فـإذا كان التضـاد بين البياض والسواد سمي ذلـك طباقا، أما إذا كان التقابـل بين الألوان الأخرى أو بينهما وبين غيرهما مـن الألـوان فـإن ذلـك هـو المعـروف عنـدهـم بالتـدبيـح. ومـن أراد التوسع في هذه الملاحظة، فليرجع إلى كتاب خزانة الأدب للحموي ففيـه الكفاية في هذا الموضوع.

خامسا ـ الترديد

أشار إليـه أثناء شرح قـول البوصيري رحمه الله:(21)

إني اتهمت نصيح الشيـب في عذلي
والشيب أبعد في نصح عن التهم

وعرفه بقوله: هو أن تعلق لفظة بمعنى ثم ترددها بعينها وتعلقها بمعنى آخر. ثم قال: وأكثر ما يستعمله المحدثون.

والشاهد عنده في هذا البيت، هو الترديد في لفظة الشيب في الشطـر الأول، والشيب في الشطر الثاني، فهو في المرة الأولى يتعلق بـالشاعـر ذاتـه، وفي المرة الثـانية يتعلـق بالشيب عامة، سواء كان متصلا بالشاعر أو متصلا بغيره. وهكذا الأمـر بالنسبة إلى جميـع الأبيـات التـي استـدل بها في هـذا البـاب، فقد ذكـر أنـه مـوجود في الأبيـات التاليـة التي تحدث فيهـا البوصيري عـن النفس فقال:(22)

مـن لي برد جماح مـن غوايتهـا
كما تـرد جماح الخيل بـاللجـم
فلا ترم بـالمعاصي كسر شهوتها
إن الطعـام يقوي شهـوة النهـم
والنفس كالطفل إن تهمله شب على
حب الرضاع وإن تفطمـه ينفطم
فاصرف هـواها وحـاذر أن توليـه
إن الهوى ما تولى يصم أو يصم

فالترديـد موجـود في جماح الخيل، وفي جماح النفـس، وفي كسر شهـــوة النفـس، وكسر شهـوة النهــم، وفي هـوى النفــس وتـوليه، وفي الهوى العـام وتـوليه ولقـد أضــاف خطـأ الترديد بين يصـم، ويصـم والغالب أنه لم يكن ذلك منه إلا غفلة فقط.

وكان البـوصيري رحمه الله يكثـر من استعماله، ولهذا كان الجاديـري يشير إليه كلما لاحظه في بيت من الأبيات. فمن ذلك وجوده في قوله:

وراودته الجبال الشـم من ذهب
عـن نفسـه فـأراهـا أيما شمـم

21) نفس المصدر: صفحة 7.

22) نفس المصدر: صفحة 9.

وكـدت زهـده فيهــا ضرورتــه

إن الضرورة لا تعدو على العصم

وفي قوله:

دعـا إلى الله فـالمستمسكون بـه

مستمسكون بحبـل غير منفصم

ولقد ذكر الجاديـري أن الترديد يسمى بالتعطف أيضا، وهذا الاشتراك الذي ذكره يمكن قبوله في النثر، وأما في الشعر، فإنهم غـالبـا ما يفـرقـون بينهما، لأن التعطـف عنـدهم مـا كـان فيه التكـرار بين كلمتين مفصـولتين، بحيـث تكـون إحــداهما في المصراع الأول، والأخرى في المصراع الثاني، مـا إذا لم تكـونا مفصـولتين، فـذاك مـا يعرف بالترديد.

ونحن نلاحظ أن علماء البديع يرون في الترديد والتعطف تكرارا، ولكنهـم رغم ذلك ' يطلقون اسم التكـرار عليهما اصطلاحا، ظـرا لكون التعلـق فيهما مختلفا بخـلاف تكرار، فإن التعلق فيه واحد.

وقد ذكـر ابن حجة الحمـوي، أن تعدد ذه المصطلحـات لا يحمل في طيـه فائدة، 'ن القـوم كلما طلبـوا الكثـرة تغـالـوا في رخيص.

وهذا الكلام مفيد ووجيـه إذا أريد منه تحجير على بعض الذيـن يتمسكون بهذه صطلحـات دون استغـلالها في أهـدافهـا بيـانية، أمـا إذا كانـت تستغل في الإطـار بياني، فـإنها تكون مساعدة على تقـريب المعـاني، وعلى تتبع الظـواهر الجماليـة في التركيب العربي شعرا ونثر. فنحن مثلا لو تتبعنا الأمثلـة المتعلقة بالترديـد والتعطف، لاحظنا أن قسما منها تستغـل فيه الخبرة بالحياة، وتستمد أحكامه من التجربة، وقد يصبح بعد استعماله مثلا سائرا، أو حكمة دقيقـة، كما هـو الحال بـالنسبـة لبعـض الأبيـات التي أشـار إليهـا الجاديري مـن قصيدة البوصيري رحمه الله.

فالمشكل إذن، ليس مشكل مصطلحات، وإنما هـو مشكـل استغــلالها استغـلالا بيانيا. فمن استطـاع أن يستمد من البيان العربي ما يهذب ذوقه، ويحسـن أسلوبه، وينمــي آراءه، فـــإنــه لا تضره هـــذه المصطلحات، ولا تضله كثرة وجودها، وأما من جف طبعه، واقتصر على تردد أسمائها دون أن يلتقط من جواهر البيان ما يندمج فيه مـع أهل البيـان، فإن ذلـك يضره أيما ضرر. وهـــذا هـو السر في أن الجاديـــري حينما كان يشير إلى هذه المصطلحات كان على بينة من أمـره، وكان يذكرهـا مقرونة بـالأبيـات الـرائعـة التـي راقـت بمـدح الـرسـولﷺ، ورقت إلى اسمـى درجـات البيان.

سادسا ـ الترجيع

وهو في علـم البديـع أن يحكي المتكلـم مـراجعـة في القول، ومحاورة جـرت بينـه

وبين غيره، أو بين غيره وآخـــر بـأوجــز عبارة، وأعـذب لفظ. وقد أشار إليـه أثناء قول البوصيري:(23)

فالصدق في الغار والصديق لم يرما

وهم يقولون مـا بالغار من أرم

ظنـوا الحمام وظنوا العنكبـوت على

خير البريـة لم تنسـج ولم تحم

ولا يكون هذا النوع مـن البديع مقبولا إلا إذا كان الذي يستعمله في كلامه يحسن طريـق الحوار، ويوفق في تنسيـق العبارة، ويبدع في مسالك القول. وأكثر من يمارسه من الشعـراء من كان منهم يصـف بعض المواقـف القصصيـة المحتـاجـة إلى تبـادل القول وتسجيل الأحاديث.

سابعا ـ التفصيل

أشـار إليـه أثنـاء التعليـق على البيتين الآتيين وهما قوله:

أكـرم بخلـق نبـــي زانـه خلـق

بالحسن مشتمـل بالبشر متسم

كالزهر في ترف والبدر في شرف

والبحر في كـرم والدهـر في همم

وهو لم يعرفه عند ذكره وإنما قال عنه هو في البديع كقول الكندي:

كـــأن المدام وصـــوب الغمام

وريـح الخزامـــى ونشر العطـر

ونحن نرى من خـلال ما ذكر، أن هذا المصطلح غير متـلائم مع المثال الـذي جاء بـه، ولا مع البيتين اللـذيـن جعل ثـانيهما سبيلا إلى ذكره، إذ أقرب الأشياء إلى المثال أن يكـون فيه مـا يعـرف عند أبي هـلال العسكري بالترصيع، وهو أن يكون حشو البيت مسجوعا، وأقـرب الأشياء إلى البيت الذي انطلـق منه أن يكـون منه مـا يعرف عند ابن حجة الحموي بالتشطير، وهو أن يقسم الشاعر بيته شطرين، ثم يصرع كل شطر منهما. لكنه يأتي بكل شطر من بيته مخالفا لقافية الآخر، ليتميـز كل شطر عن أخيه. وذلك كقول أبي تمام.

تـدبير معتصـم بـاللـه منتقـم

بـالله مـرتعب في اللـه مرتقـب

وهـو نفـس الأسلوب الـذي استعملـه البوصيري.

وعليـه، فـإن الجاديـري هنـا لم يكـن مـوفقا في ربـط المصطلح بمقصـوده، ولم يستعمل مصطلح التفصيل في مكانه.

هذا، وإن كلا من الترصيع والتشطير لا يحسنان في الكـلام إلا إذا قل استعمالهما، ولهذا قـال أبـو هـلال العسكـري حين تعرضه للترصيع: «ومثـل هذا إذا اتفق في مـوضـع مـن القصيـدة أو موضعين كـان حسنا، فإذا كثر وتوالى دل على التكليف.

---

23) نفس المصدر: صفحة 30.

ثامنا ـ التكميل

أشار إليه أثناء التعليق على قول البوصيري في وصف رسول الله ﷺ:(24)

ومن هو الآية الكبرى لمعتبر
ومن هو النعمة العظمى لمغتنم

قال الجاديري : وفيه التكميل، وهو في علم البديع أن تأتي في شيء من الفنون بكلام فتراه ناقصا، لكونه مدخولا بعيب من أجل دلالة مفهومه، فتكمله بجملة ترفع عنه النقص. مثل أن تجيد مدح رب السيف بالكرم دون الشجاعة، أو رب العلم بالبلاغة دون سداد الرأي ونفاذ العزم، فتراه ناقصا فتذكر معه كلاما يكمل المدح، ويرفع الإبهام.

ومعنى هذا أن البوصيري حين مدح رسول الله ﷺ بأنه الآية الكبرى لكل معتبر، خشي أن يتصور أحد أن وصفه بالآية الكبرى لا يبلغ به إلى الحد الذي هو أهله، لذلك كمل قوله بأنه: النعمة العظمى لكل مغتنم، حتى يطمع في شفاعته كل من يرجو رحمة الله، وينتظر المغفرة.

والتكميل في علم البديع: مسلك وعر يقتضي سلامة الحاسة الجمالية، كما يقتضي الاعتداد بذوق الآخرين، ليلا تستهين بهم، أو تستخف بمواقفهم، وسيدفعك ذلك حتما إلى البحث عن أحسن وسائل التعبير، وإلى اختيار أسمى طرق التفكير، حتى إذا توهمت أن في الكلام نقصا، أضفت إليه ما يكمل به، وما يزول به الإيهام والإبهام.

تاسعا ـ الجمع مع التقسيم

أشار إليه أثناء شرحه لقول البوصيري:(25)

كأنه وهو فرد من جلالته
في عسكر حين تلقاه وفي حشم

قال: وهو في علم البديع أن تجمع أمورا كثيرة تحت حكم واحد، ثم تقسم. والظاهر أنه لم يوفق في المثال، لأن هذا النوع يمثل له بنحو قول المتنبي في إظهار انهزام الأعداء:

للسبي ما نكحوا والقتل ما ولدوا
والنهب ما جمعوا والنار ما زرعوا

عاشرا ـ الجمع مع التفريق(26)

تحدث عنه حينما شرح قول البوصيري رحمه الله في وصف آي القرآن وهو قوله:

لها معان كموج البحر في مدد
وفوق جوهره في الحسن والقيم

---

24) نفس المصدر: صفحة 39.

25) نفس المصدر: صفحة 24.

26) نفس المصدر: صفحة 37.

فما تعد ولا تحصى عجائبها
ولا تسام على الإكثار بالملل

قال: وهو في علم البديع، أن تدخل شيئين فصاعدا في معنى، ثم تفرق على جهة الإدخال كقوله:

قد اسود كالمسك صدغا
وقد طاب كالمسك خلقا

فإنه جمع الصدغ والخلق في التشبيه بالمسك، ثم فرق بين جهتي التشبيه. وهو هنا كان موفقا في الشرح، وموفقا في التمثيل للموضوع المقصود، إلا أنه لو كان يعمل دائما على إبراز ما يشير إليه من القصيدة ذاتها لكان إيحاؤه المعنوي أقوى، ولكانت طريقة تأثيره على القارىء سديدة في منهاجها وأدائها.

وعلى كل حال، فإن الجانب البلاغي قد أخذ منه القسط الوافر من شرحه، وهو لم يقتصر على ما ذكرناه فقط، بل أضاف إلى ذلك أنواعا أخرى لم نتطرق لها نحن نظرا لشهرتها ولذيوعها ولوضوحها. مثل: التشبيه والاستعارة والتورية وما أشبه ذلك.

وإذا كان المهتمون بالدراسات البلاغية قد وجدوا فيه هذه الإشارات المفيدة، فإن المهتمين بالتاريخ قد اعتبروا هذا الشرح جديرا بالتقدير، نظرا لاشتماله على وثيقة قيمة تسجل محضر مجلس علمي من مجالس أبي عنان، وتذكر أسماء الذين كانوا يشاركون فيه وهو لم يحضر هذا المجلس نفسه، وإنما نقل مضمونه عن أستاذه أبي الوليد الذي هو بنفسه قد نقله عن غيره.

كان الموضوع الذي تحاور فيه الحاضرون يتعلق بقول البوصيري رحمه الله:

لعل رحمة ربي حين يقسمها
تأتي على حسب العصيان في القسم

ولا ريب أن القصد من هذا البيت عند البوصيري يهدف إلى التماس الفضل من الرب الكريم، وإلى الرغبة في مغفرته، وهو في الوقت ذاته تضرع واعتراف بالحاجة إلى الرحمة التي إذا حرمها حرم كل رجاء، وفقد كل أمل، ولهذا قال أثناء شرحه:

«رجا الشيخ رحمه الله أن تكون الرحمة شاملة مستوعبة لجميع المعاصي حين قسمه إياها، وذلك لما جاء في الحديث النبوي أن الله تعالى يقول: (لو أتاني ابن آدم بقراب ملء الأرض ذنوبا لأتيناه بقراب ملء الأرض رحمة).

وهنا قال :(27)

قال شيخنا أبو الوليد: وقد وقع الكلام بين يدي السلطان أمير المومنين أبي عنان فارس بن السلطان أبي الحسن بن السلطان أبي سعيد عثمان بن السلطان

27) نفس المصدر: صفحة 50.

أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق المريني ملك المغرب، من مقعد ملكه من المدينة البيضاء من حضرة فاس، بمحضر الفقهاء والعلماء والأساتيذ والقضاة والشرفاء والخطباء وأصحاب العلوم.

منهم: الفقيه الإمام المفتي القاضي أبو عبد الله محمد بن محمد القرشي التلمساني المقري بفتح الميم.

وشيخنا الإمام الفقيه المدرك المفتي القاضي الخطيب أبو عبد الله محمد بن الفقيه القاضي الخطيب أحمد بن عبد الملك بن شعيب الفشتالي الصنهاجي الحميري.

والفقيه العارف بالفقه أبو عبد الله محمد بن الحسن السدراتي.

والفقيه الإمام المتكلم أبو عبد الله محمد بن أحمد المعافري التلمساني المعروف.

وشيخنا الفقيه القاضي الخطيب المفتي أبو العباس أحمد بن محمد بن قاسم الجذامي الفاسي المعروف بالقباب.

والشريف الفقيه الإمام العالم المتكلم النظار المفتي أبو عبد الله محمد بن أحمد بن علي الحسني التلمساني.

والفقيه المحدث الحاج الخطيب أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن مرزوق العجيسي.

والفقيه الإمام المتكلم النظار القاضي الخطيب أبو عثمان سعيد بن محمد الخزرجي التلمساني المعروف بالعقباني.

والفقيه المفتي المدرس العارف بالفقه والفرائض أبو الحسن علي الصرصري الفاسي.

والشريف الفقيه المفتي القاضي أبو محمد عبد النور بن محمد العمراني الحسني.

وصاحبنا الفقيه القاضي المفتي أبو إسحق إبراهيم بن محمد بن الفقيه المفتي الصالح إبراهيم بن عبد الله بن عبد الرحيم اليزناسني.

وشيخنا القاضي الخطيب الكاتب صاحب القلم الأعلى العارف بالفقه والحديث والنحو والأدب، أبو القاسم عبد الله بن يوسف بن رضوان الخزرجي المالقي.

وشيخنا الفقيه القاضي الخطيب الكاتب أبو القاسم محمد بن يحيى بن محمد الغساني البرجي.

وشيخنا الفقيه القاضي المدرس العارف بنوازل الفقه أبو عبد الله محمد المدعو بأبي خريص بن ياسين اليباني المريني.

والفقيه المفتي القائم على حفظ المدونة، عبد الرحمن النفزي المعروف بأبي عائشة.

وشيخنا الفقيه القاضي الخطيب الحاج، الكثير الجولة بالمشرق والمغرب وجميع

البلاد محمد بن بطوطة الطنجي العارف بالتاريخ.

والفقيه القاضي العارف بكتاب ابن الحاجب الفرعي المدرس معبر الرؤيا، أبو عبد الله محمد القسمطيني المعروف بالتمتام.

والفقيه المعدل الهندسي الحسابي أبو الحسن علي بن أحمد الصنهاجي الحميري التلمساني المعروف بابن الفحام.

وشيخنا الفقيه المدرس المفتي أبو إسحق إبراهيم بن الفقيه العالم أبي زيد عبد الرحمن بن محمد الحميري التلمساني المعروف بابن الإمام.

وأخوه الفقيه المدرس أبو عبد الله محمد.

والفقيه الخطيب العارف بكتاب ابن الحاجب الفرعي علي بن منصور بن هدية القرشي التلمساني.

وشيخنا الأستاذ النحوي سيبويه زمانه أبو عبد الله محمد بن علي بن حياتي الغافقي الغرناطي.

وصاحبنا الفقيه القاضي العارف بالبدير والبيان، أبو يحيى محمد بن أبي البركات العياضي السكاك.

والأستاذ المقرىء النحوي محمد المجكسي فارس زمانه.

وشيخنا الصوفي الحكيم محمد بن شاطر الجمحي المراكشي.

والفقيه الأستاذ العارف بالقراءات والتصوف والنحو، محمد بن إبراهيم الموحدي التينملي المراكشي المعروف بابن الصفار.

وشيخنا الفقيه القاضي أبو محمد عبد الله بن محمد بن عبد الله الأوربي الفاسي العارف بالوثائق.

والفقيه المدرس، مجالس السلطان، أحمد بن أبي الفضل بن الصباغ الخزرجي العارف بالفقه والحديث والآية في علم التاريخ.

وغيرهم في قوله: لعل رحمة ربي الخ...وتردد بينهم الكلام فيه. فقال مجالس السلطان أبو زيان عريف أبي يحيى العربي السويدي: إذا كانت الرحمة تأتي على حسب العصيان، إذن، يخسر المحسنون.

ولاشك أن الغرض من هذه الملاحظة، التنكيت على البوصيري، وأنه لم يكن موفقا في طريقة تعبيره حول ما كان يقصده، مع أننا لو تأملنا في الهدف الذي تؤديه العبارة لما وجدنا أي خلل، ولا أي نقص، ولهذا عقب الجاديري على هذه الملاحظة بقوله:

«قال شيخنا: لو كنت حاضرا هناك لقلت مجاوبا له، أما أهل الطاعة ففرارهم عن الذنوب ونبذهم إياها بعراء الترك، وإدبارهم عن المعاصي وإقبالهم على الطاعة

هو الرحمة الكبرى، والطائع بإحسانه لا
يشبه العاصي بإساءته ما بين اليزيدين
يزيد بن مسلم والأغر حاتم.

وعلى كل حال، فإن هذه الفقرات التي
اقتبسناها من الكتاب في هذه الجزئية
أعطتنا فوائد عدة. منها:

أولا — ذكر هذا الفيض من العلماء
والشيوخ الذين اطلعنا على أسمائهم
وكناهم.

ثانيا — تحديد اختصاصاتهم، وما
اشتهروا به من انواع العلوم والمعارف.

ثالثا — إظهار أقاليمهم ومدنهم، ما
يدل على أن الثقافة كانت عامة في كثير من
الأقاليم المغربية.

رابعا — إظهار نموذج من
المساجلات التي كانت تقع في مجالس أبي
عنان المريني،سواء كانت صوفية أو أدبية
مع ترك انطباعاتها في نفوس بعض العلماء
ولو بعد حين.

ولاشك أن هذه الإحالات التي سجلها
المؤلف في كتابه هذا، ستفتح مجال البحث
أمام الراغبين في تحضير المصادر المتعلقة
بهذا العصر، أو ببعض أعلامه. وبالفعل
فإن هناك من الباحثين من اعتبر
الجاديري حلقة الربط بينه وبين من
سبقه، وذلك نظرا لفهرسته من جهة،
ولفهرسة أستاذه أبي الوليد التي
اختصرها.

يقول الأستاذ عبد القادر زمامة في
كتابه عن أبي الوليد ابن الأحمر:(28)

«وكان ابن الأحمر، محظوظا في هذا
الباب، حيث إن تلميذه أبا زيد عبد الرحمن
الجاديري كان مثله مغرما بالأسانيد
والروايات، وكان كثير التلاميذ، فربط بين
شيخه ابن الأحمر وبين عدد من الفهارس
التي كتبت في القرن التاسع الهجري وما
بعده.

ويقول في مكان آخر:(29)

«أما تلاميذ ابن الأحمر، فالذي اشتهر
بالرواية عنه هو تلميذه أبو زيد عبد
الرحمن الجاديري، الذي يرتبط أصحاب
الفهارس بواسطته بأبي الوليد. وقد كتب
الجاديري فهرست اختصر فيها فهرسة
شيخه ابن الأحمر ـ كما يقول المؤرخون ـ
وقد اعتدنا في كتب الفهارس المغربية
المتعددة هذا السند الشهير ابن غازي عن
أبي الحسن منون عن الجاديري عن أبي
الوليد بن الأحمر».

فشرح البردة إذن، كان أحد العوامل
الكبرى في إبراز هذه الرابطة العلمية بين
الجاديري وأستاذه، وبينها وبين غيره من
العلماء، وهو كتاب مازال إلى الآن صالحا

(2) مكتبة دار الثقافة ـ مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر: صفحة 114.

(2) نفس المصدر: صفحة 127.

للدراسة والتحليل، وقابلا للتعرف على معانيه وعلى أسلوبه، وعلى الاستفادة من بعض محتوياته، وذلك هو الدافع الذي جعلنا نقدم هذا العرض حوله من خلال النسخة المخطوطة بخزانة القرويين لنستشف من ذلك ظاهرة من ظواهر التأليف في عصر المرينيين الزاهر، ولنتعرف على علم من أعلام المشاركين في مختلف الفنون والعلوم التي كانت تطبع المثقف المغربي في ذلك الحين.

فاس ـ محمد بن عبد العزيز الدباغ



تعريف بكتاب:

تهذيب الرياسة وترتيب السياسة

لأبي عبد الله محمد بن علي بن الحسن القلعي

إعداد: الأستاذ عبد العزيز الساوري
باحث دراسات عليا بكلية الآداب
جامعة القاهرة

من المخطوطات الطريفة التي قدمتها صالة «الكونواسور» في لندن، التي يملكها مكرم إيراني، بمناسبة «السوق السنوي للكتاب» الذي نظمته جمعية بائعي الكتب القديمة، وذلك في الفترة مابين 19 و 21 من يونيو الماضي، مخطوط نادر من القرن السابع الهجري، يدعى كتاب: «تهذيب الرياسة وترتيب السياسة» ألفه محمد بن علي القلعي المتوفى سنة 630هـ/1233م،(1) وهو دراسة نادرة عن مبادىء السياسة وحرفة الدولة، يبحث في مواضيع القيادة، ودور الملك، ومعنى العدل، وفي العلاقة بين الملك ووزرائه وموقفه من أتباعه...

وصرح مكرم إيراني الذي يملك نسخة من هذا المخطوط لمراسل «الحياة» في لندن بتاريخ 90/6/13 عدد 10003 ص16 مايلي:

«يظهر أنه ليس هناك نسخة أخرى من هذه المخطوطة في أي مكتبة من المكتبات التي تهتم بالمخطوطات العربية كالمكتبة البريطانية في لندن، أو مكتبة شيستربيتي في دبلن. أما الكاتب فهو غير معروف، ولكنه ربما كان من عائلة القلعي المعروفة بعلمائها في سورية».

وهذا غير صحيح، فكتاب «تهذيب الرياسة وترتيب السياسة» توجد منه مخطوطتان أخريتان كذلك في القاهرة، وأما مؤلفها فمعروف، وقد ترجمت له كتب التراجم والطبقات.

(1) أخطأ مكرم إيراني حين ذكر أنه توفي سنة 625هـ/1227م.

المؤلف :

هو أبو عبد الله محمد بن علي بن الحسن بن علي بن أبي علي اليمني المعروف بالقلعي، قيل بفتح القاف وسكون اللام نسبة إلى قلعة حلب المدينة المعروفة بالشام، وقيل بفتحهما نسبة إلى قلعة بلدة بالمغرب، هذا قول الجندي.

وقال الأسنوي في طبقاته: إنه منسوب إلى بلد باليمن يقال لها: القلعة، بينها وبين زبيد نحو يوم، ولم يذكر الأسنوي اسم هذه القلعة التي نسبه إليها، ولا في أي ناحية هي من زبيد، وهذا غلط من الأسنوي، والله أعلم. وكان القلعي المذكور فقيها عالما كبيرا عاملا، وله مصنفات حسنة كثيرة مشهورة، انتفع الناس بها، منها:

1 — «احتراز المهذب»، الذي شهد له أعيان الفقهاء أنه لم يصنف له في الاحتراز نظير.

2 — «أحكام القضاة».

3 — «إيضاح الغوامض من علم الفرائض»، مجلدان جيدان جمع فيه بين مذهب الشافعي وغيره، وأورد فيه طرفا من الجبر والمقابلة والوصايا.

4 — «تهذيب الرياسة في ترتيب السياسة».

5 — «قواعد المهذب».ض.

6 — «كنز الحفاظ في غريب الألفاظ»، يعني ألفاظ المهذب، وذكر الزركلي أنه في فروع الشافعية.

7 — «لطائف الأنوار في فضل الصحابة الأخيار».

8 — «المستغرب من ألفاظ كتاب المهذب»: جمع في هذا المختصر من الألفاظ اللغوية والأسماء الوضعية الواقعة في كتاب «المهذب» ما قد يخطىء في النطق بأكثرها، أو يجهل تفسيرها أكثر المتدرسين، بل كثير من المدرسين، منه مخطوطتان بدار الكتب والوثائق القومية ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة.

الأولى : تحت رقم 21854 بـ ميكرو فيلم رقم 36610 في 36 ورقة خط 754هـ، 13×19 سم، ومنها نسخة مصورة بمعهد إحياء المخطوطات العربية بالقاهرة تحت رقم 218 (علم اللغة).

الثانية : تحت رقم 21942 ميكرو فيلم رقم 48856 في 82 ورقة خط 1360هـ. وله غير ذلك.

وأكثر ما توجد مصنفاته في ظفار وحضر موت ونواحيها، وعنه انتشر الفقه بتلك الجهة، ولم ينتشر العلم عن أحد بتلك الناحية كما انتشر عنه. واعيان فقهائها أصحابه وأصحاب أصحابه، فممن تفقه به، ناصر بن عبد الله بن عبد الرحمن المصري، وأحمد بن محمد بن صمع، ثم أبو مروان، وحج من مرباط، فأخذ عنه

مكة وزبيد وغيرهما من البلاد التي مر
ها خلق كثير، وكانت وفاته بمربط
63هـ/1233م، وقبره هناك.(2)

كتاب «تهذيب الرياسة وترتيب سياسة» :

كما أن للكتاب نسختين أخريين :

الأولى : وهي من محفوظات مكتبة سوهاج في جنوب مصر تحمل رقم 219 دب في 78 ورقة، مقاس 16×21 سم، منها مصورة بمعهد إحياء المخطوطات عربية بالقاهرة تحت رقم 17، وهي بخط حمد بن عبد الرحمن بن أحمد المكي بن حمد ناصر الدين الشهير بابن دجاجة، وقد فرغ من كتابتها بعد العصر يوم ثلاثاء الثامن من شهر جمادى الأولى عام 98هـ.

والثانية : وهي محفوظة في دار الكتب والوثائق القومية ـ الهيئة المصرية العامة لكتاب ــ القاهرة تحمل رقم 9907 أدب. يكرو فيلم رقم 32783 في 186 صفحة، وهي منسوخة عن النسخة السابقة بقلم حمد أحمد فتح الله، وقد تم نسخها في وم الخميس خمسة أيام مضت من شهر له رجب الفرد من عام 1354هـ على ذمة دار الكتب المصرية بأمر الأستاذ أسعد بك برادة والشيخ محمد عبد الرسول.

أوله : «بسم الله الرحمن الرحيم، وبه نستعين على القوم الكافرين، الحمد لله حمدا كثيرا دائما متواصلا متواتر مترادفا متكاثفا متظاهرا متظافرا...».

نهايتة : «... إلى أن يخرج، فإنه مجد في طلبك، فانصرف وتوارى ثم إن محمد الداعي أمر للأموي بمثل ما أمر به لسائر عبد مناف».

وجعله المؤلف في قسمين :

القسم الأول : يشتمل على أبواب تحتوي على غرر من كلام الحكماء، ودرر من تظاهر الفصحاء، مما ينسبك في قالب الأمثال الشاردة، وينتظم في سلك الحكم الواردة، وتتطمئن محاسن الأوصاف المحمودة من ذوي الأمر وذم أضدادها، وما يجب استعماله أو تركه من الأمور التي يحمد متبعها عاقبة أضدادها وإيرادها.

ومن أبواب هذا القسم:

1 ــ باب في ذكر وجوب الإمامة والاحتياج إلى السلطان وعدم الاستغناء عنه في جميع الأزمان (ص3).

2) انظر ترجمته في : طبقات فقهاء اليمن ص 220، والسلوك في طبقات العلماء والملوك ص 210 ـ 211، وطبقات الشافعية 2/ 324ـ325 رقم 957، والعقود اللؤلؤية 1/ 51ـ52، والأعلام 7/ 169ـ170، ومعجم المؤلفين 10/ 317، وفهرس المخطوطات المصورة 1/ 367،549.

2 — باب في ذكر الوالي العادل وما له من الأجر، والوالي الجائر وما عليه من الوزر (ص5).

3 — باب في ذكر ما يجب على الرعية للولاة من الطاعة، وما يكره لهم من الخروج ومفارقة الجماعة (ص9).

4 — باب في ذكر مجامع ما يجب أن يتصرف به الملك من الطرائق الجميلة، والمذاهب السنية، والشيم الزكية، والسير المرضية (ص13).

5 — باب في ذكر ما يجب على السلطان من حسن السياسة، وما يلزمه من الصيانة والرعاية والحراسة (ص18).

6 — باب في اجتناب الوزراء والعمال، وذكر ما يجب أن يتصفوا به من الخصال (ص21).

7 — باب في ذكر الولاية والعمل وما يتصل بهما من المدح والذم، وذكر ما يتعلق بهما من العز والذل في حالتي الولاية والعزل (ص25).

8 — باب في صحبة الملوك ومخاطبتهم، وكيفية التحرز منهم في حال مجالستهم ومباسطتهم (ص28).

9 — باب في اختيار الأجناد والحماة، ووصف الأبطال والكماة (ص36).

10 — باب في مدح الاستشارة، وذم الاستبداد بالرامي (ص39).

11 — باب في ذكر العفو ومدح مستعمله في أكثر أحواله، والانتقام ومحل استعماله (ص49 ـ 50).

12 — باب في بغض الأناة وذم العجلة في الأمور التي يستعقب فوتها ضرر، ولا يخشى في تأخيرها عذر (ص58).

13 — باب في إيثار السلم، والموادعة على الحرب والنازعة، وكيفية الدخول في الحرب عند الحمل عليها والاضطرار إليها (ص60).

القسم الثاني :

يتضمن حكايات عن الخلفاء ووزرائهم وعمالهم وأمرائهم، مما يدل على ميلهم، وغزارة فضلهم، وحسن سيرتهم، وكمال مروءتهم، وما اشتملت عليه طرائقهم من العدل والانصاف، والبذل والإسعاف، والعفو عند الاقتدار، ومعرفة حقوق ذوي الإقدام، وقبولهم النصح من الناصحين، وسماع الموعظة من الصائحين، مع ما اتصفوا به من آداب وعلم، ووقار وحلم، وفصاحة وبراعة، وسماحة وشجاعة، فمن اتخذ ذلك إماما ارتفع وانتفع، ومن عمل بما شاكله رشد وحمد. وقد بدأه بذكر معاوية رضي الله عنه، ثم من بعده على ترتيب وجودهم، وتعاقب أزمنتهم، إلى حيث ينتهي الكلام، وبالله التوفيق.

مختارات من «تهذيب الرياسة وترتيب السياسة»:

1 — قال عمرو بن العاص: إمام عادل خير من مطر وابل، وأسد حطوم خير من سلطان غشوم، وسلطان غشوم خير من فتنة تدوم (ص4).

2 — وقال كعب الأحبار : مثل السلطان والإسلام مثل عمود وفسطاط؛ فالفسطاط الإسلام، والعمود السلطان، والأوتاد الناس، ولا يصح بعضها إلا ببعض (ص4).

3 — وقال رسول الله ﷺ: إن أحب الناس إلى الله تعالى وأقربهم إليه إمام عادل، وإن أبغضهم إلى الله تعالى وأشدهم عذابا إمام جائر (ص7).

4 — وقال عليه السلام : من رأى من أميره ما يكره فليصبر، وأنه من فارق الجماعة شبرا، مات ميتة جاهلية (ص10 ـ 11).

5 — وقال أردشير : الناس ثلاث طبقات تحت سياستهم بثلاث سياسات: منهم طبقة من الخواص الأعيان تسوسهم محض اللطف والإحسان، وطبقة من العوام الأوساط يسوسهم من العنف واللطف فيما بين الاقتصاد والإفراط، وطبقة من العوام والأطراف يسوسونهم محض الغلظة والاعتساف (ص14 ـ 15).

6 — قال رسول الله ﷺ:(كلكم راع وكل مسؤول عن رعيته، فالأمير الذي على الناس راع ومسؤول عن رعيته، والرجل راع في أهل بيته ومسؤول عنهم، والمرأة راعية على بيت زوجها وولده ومسؤولة عنهم، والعبد راع على مال سيده وهو مسؤول عنه، فكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته) (ص18).

7 — وقال بعض الشعراء في ذلك :

وكلكم راع ونحن رعية
وكل سيلقى ربه فيحاسبه (ص18).

8 — وقال بعض الحكماء : اعلم أن الملوك تحتاج إلى وزير، وأشجع الناس يحتاج إلى سلاح، وأجود الخيل إلى سوط، وأجود الصغار يحتاج إلى مسن (ص21).

9 — وقال أردشير : إذا ساوى الوزير الملك في المال والهيبة والطاعة من الناس، فليصرعه، وإلا فليعلم أنه المصروع (ص28).

10 ـ وقيل : إنه لم يزل الرشيد مُرَوِّيًا في أمر البرامكة حتى وقف على هذا فصمم (ص28).

11 — وقال بزر جمهر : من جالس الملوك بغير أدب فقد خاطر بنفسه (ص 29).

12 — وقال الصاحب بن عباد : رضا السلطان لا يقاوم شيئا من الإيمان، ولو تبذل الروح والجنان (ص30).

13 — وقال المأمون : الملوك تحتمل كل شيء إلا ثلاثة: الطعن في الملك، وإفشاء السر، والتعرض للحرم (ص30-31).

14 — ومن كتاب المنهج : أمور الملك بأصحاب الداريع والأقلام، وأرباب الدروع والأعلام، فأولئك للكتب والآراء، وهؤلاء للكتائب والرايات (ص36).

15 — وقال الشاعر :

وشرط الفلاحة غرس الثمار

وشرط الرياسة غرس الرجال(ص36).

16 — وقال أبو هريرة : ما رأيت أحدا أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله ﷺ، الاستشارة لأصحابه في قصص كثيرة منها: أنه لما أراد مصالحة عيينة بن حصن الفزاري، والحارث بن عوف المُرِي، حضرت الأحزاب في الخندق على أن يعطيهم ثلث ثمار المدينة ويرجعا بمن معهما من غطفان عنه (ص39).

17 — ومن أحسن ما قيل في ذلك قول بشار:

إذا بلغ الرأي المشورة فاستعن
بحزم يصح أو بصحة حازم

ولا تجعل الشورى عليك غضاضة
فريش الخوافي نافع للقوادم(ص43)

18 — وقال عبد الله بن الحسن :

احذرمشورة الجاهل وإن كان ناصحا، كما تحذر غيلة العاقل إذا كان عدوا، فيوشك أن تورطك مشورة الجاهل، ويسبق إليك مكر العاقل (ص44).

19 — وقيل : صواب الجاهل كزلة اللبيب (ص44).

20 — واستشار المأمون الحسن بن سهل في قتل إبراهيم بن المهدي فقال: يا أمير المومنين! إن قتلته فلك نظير قتلك، وإن عفوت عنه فلا نظير لك. فعفا عنه (ص50).

21 — وقال الأمير شمس المعالي: العفو عن المجرم من مواجب الكرم، وقبول المعذرة من محاسن الشيم (ص53).

22 — وقال بعض الحكماء : الغضب يفسد الإيمان كما يفسد الصبر العسل (ص54).

23 — وقيل : إذا دخل الغضب على العاقل الورع أذهب من العقل والورع، فكيف من لا عقل له ولا ورع (ص54).

24 — وقال ابن المعتز : الغضب يصدئ العقل حتى لا يرى صاحبه صورة حسن فيفعله، ولا صورة قبيح فيجتنبه (ص55).

25 — وقيل : الأناة حصن السلامة، والعجلة مفتاح الندامة (ص58).

26 — وقال عليه السلام : التُّؤَدَة والاقتصاد والتثبت جزء من ستة وعشرين جزاء النبوة (ص58).

27 — وقال عليه السلام : من تأنى أصاب أو كاد، ومن عَجِلَ أخطأ أو كاد (ص58).

28 — وقال بعضهم : لا تفتح بابا يعييك سده، ولا ترسل سهما يعجزك رده، ولا تفسد أمرا يعييك إصلاحه، ولا تغلق بابا يعجزك افتتاحه (ص60).

29 — وقيل : كل شيء ينفق عليه من المال إلا الحرب، فإن النفقة عليه من النفوس (ص60).

30 — وقال الشاعر :

كم بين قوم وإنما نفقاتهم

مال وقوم ينفقون نفوسا (ص60)

31 — وقال ابن المعتز : أوهن الأعداء كيدا أظهرهم بعداوته (ص63).

32 — قال عبد الملك بن مروان لأخيه عبد العزيز بن مروان حين وجهه إلى مصر: أعرف حاجبك وكاتبك وجليسك، فإن الغائب عنك يخبر عنك كاتبك، والمتوسم لك يعرفك بحاجتك، والخارج يعرفك بجليسك (ص71).

33 — وكتب معاوية إلى سعيد بن العاص وهو أمير بالمدينة بالقبض على مال مروان بن الحكم، فلم يفعل لمراجعة فيه، ثم كتب إليه ثانيا فلم يفعل واحتفظ بالكتابين، فلما عزل سعيدا وولى مروان، كتب إليه بالقبض على أموال سعيد، فأرسل مروان بالكتاب مع ابنه عبد الملك إلى سعيد قال: ولو لم يكن الكتاب لتخافيت عن ذلك، فدعا سعيد بالكتابين، فأعطاهما عبد الملك؛ فجاء بهما إلى مروان؛ فلما قرأهما قال: هو أفضل منا، فكف عن قبض أموال سعيد (ص83).

34 — وقال عبد الملك بن مروان لأسماء بنت خارجة: بلغني عنك خصال؛ فحدثيني بها، فقالت: يا أمير المؤمنين! ما مددت رجلي بين جليس لي قط، ولا صنعت طعاما فدعوت إليه قوما إلا كانوا أمنّ علي مني عليهم، ولا نصب لي رجلا وجهه يسألني حاجة فاستكثرت شيئا أعطيته إياه (ص99).

35 — ولما حُبس يحيى بن خالد، كتبتْ إليه أم ولد له: جميع أمهات أولادك قد نالوا أفضل أيامك سواي، فوقع لها: قد أعددت لك الفضل بن سهل، وبلغ ما بلغ؛ دفعت الجارية توقيع يحيى إليه؛ فلما رآه بكى، وأمر لها بعشرة آلاف دينار وقال: إذا فنيت فطالعينا (ص162).

المصادر والمراجع

1 ــ الأعلام: (قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين) تأليف خير الدين الزركلي ــ الجزء السابع ــ مطبعة كوستاتسوماس وشركاؤه، القاهرة ـ الطبعة الثانية 1375 هـ ـ 1956م.

2 ـ السلوك في طبقات العلماء والملوك، تأليف أبي عبد الله يوسف بن يعقوب المعروف بالبهاء الجندي المتوفى سنة 723هـ، مخطوط بمكتبة كوبريلي بالآستانة تحت رقم 1107، ومنها مصورة بدار الكتب والوثائق القومية ــ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة برقم 996، تاريخ ميكرو فيلم رقم 12033.

3 ـ طبقات الشافعية: تأليف جمال الدين عبد الرحيم بن الحسن الأسنوي المتوفى سنة 772هـ ـ الجزء الثاني ـ تحقيق عبد الله الجبوري ــ مطبعة الإرشاد ـ بغداد ــ الطبعة الأولى 1391 هـ ـ 1971م.

4 ـ طبقات فقهاء اليمن: تأليف عمر بن علي بن سمرة الجعدي، الفه سنة 586 هـ ـ تحقيق فؤاد سيد ـ مطبعة السنة المحمدية ـ القاهرة 1957.

5 ـ العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية: تأليف الشيخ علي بن الحسن الخزرجي ـ الجزء الأول ـ عنى بتصحيحه وتنقيحه الشيخ محمد بسيوني عسل ــ مطبعة الهلال ــ القاهرة 1329 هـ ـ 1911م.

6 ــ فهرس المخطوطات المصورة: لـ«معهد إحياء المخطوطات العربية ـ القاهرة» ـ بدأه: محمد بن تاويت الطنجي، كمله: فؤاد سيد ـ دار الرياض القاهرة 1954م.

7 ـ معجم المؤلفين: (تراجم مصنفي الكتب العربية) تأليف عمر رضا كحالة ـ الجزء العاشر ـ مطبعة الترقي ـ دمشق 1380 هـ ـ 1960م.

وجدة ـ عبد العزيز الساوري

دعوة

إلى السادة العلماء والأساتذة والباحثين كتاب المجلة

استمرارا للدور الطلائعي الذي ظلت تضطلع به مجلة دعوة الحق في مجال رسالتها الإسلامية الخالدة،ووعيا بالمكانة المرموقة التي لها في الأوساط الثقافية والفكرية والعلمية داخل المغرب وخارجه، واعتبارا بان المادة الخام والرصيد الهام لكل مجلة ثقافية هو ما يزودها به كتابها وقراؤها الكرام على اختلاف توجهاتهم وتخصصاتهم في العلوم والثقافة الإسلامية، والآداب والمعارف الإنسانية والحضارية.

يسعد هذه المجلة أن تدعو قراءها الفضلاء أساتذة وباحثين وعلماء وأدباء، وأن تهيب بهم وتستنهض هممهم وتستحث أقلامهم للمشاركة المتواصلة، بكتاباتهم القيمة، والإسهام المتنوع والمبدع في المسيرة التي تنهض بها أمتنا الإسلامية، حتى تظل هذه المجلة الرائدة في المستوى العلمي والثقافي الرفيع الذي رسمه لها مؤسسها الأول باعث النهضة الإسلامية والفكرية جلالة المغفور له محمد الخامس ويريده لها خلفه البارّ، ووارث سرّه الملهم أمير المومنين جلالة الحسن الثاني، وينشده القراء الدارسون، والباحثون المتخصصون الذين يجدون فيها ضالتهم المنشودة وبغيتهم المطلوبة من تنوع مباحث المعرفة الإسلامية،والآداب والعلوم الإنسانية.

وفق الله الجميع لخدمة العلم والدين، والوطن والمسلمين.

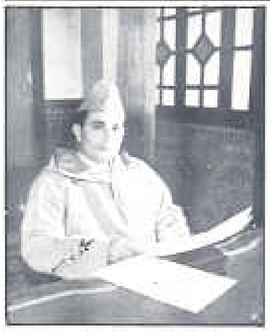
دعوة الحق

فــهـــرس

دعوة الحق

شهرية تعنى بالدراسات الاسلامية
وبشؤون الثقافة والفكر

تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية
الرباط - المملكة المغربية



أسسها
جلالة المغفور له
محمد الخامس
قدس الله روحه
سنة
1376 هـ — 1957 م

التحرير:
الهاتف: 623.60

الإدارة و التوزيع
636.93
627.03
627.04
608.10

*

الاشتراكات: في المملكة المغربية: 70 درهماً
في العالم: 80 درهماً

الحساب البريدي: رقم 55-485. الرباط

Daouat El Hak compte chèque postal 485 - 55
à Rabat

ثمن العدد: 4,00 دراهم



صومعة مسجد الحسن الثاني بالدار البيضاء المعلمة الحسنية التاريخية